بدائع التراث

(٣)

المسائل المكنونة

تأليف

أبي عبد الله محمد بن علي الترمذي الحكيم

تحقيق

الدكتور محمد ابراهيم الجيوشي

دار التراث العربي

المسائل المكنونة

تأليف

أبي عبد الله محمد بن علي الترمذي الحكيم

تحقيق

الدكتور محمد ابراهيم الجيوشي

دار التراث العربي
للطباعة والنشر

الطبعة الأولى

شعبان سنة ١٤٠٠ هـ ــ يونيه سنة ١٩٨٠ م



بين يدى الكتاب

نسأل الله جلت قدرته أن ينقى أعمالنا من الرياء ، ويعمر قلوبنا بالاخلاص ، ويقينا شر أنفسنا ، ويجعل وجهتنا خالصة ابتغاء مرضاته ، ويحفظ علينا نعمة الايمان ، ويزينه فى قلوبنا ، انه سميع مجيب الدعوات •

وبعد •• ففى الصفحات التالية عرض لحياة الحكيم الترمذى وما حفلت به من أحداث مثيرة ومجاهدات شاقة واتهامات ظالمة ، صبر لها واعتصم خلالها بحبل الله وثقته فيه ، فخرج منها مرفوع الرأس نقى الساحة طاهر الذيل ، لأنه تأسى فى هذه المحنة بقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : **((واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ، ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون))**(١) •

ثم يعقب هذا العرض •• نص كتاب ((المسائل المكنونة)) نرجو أن يجد فيه القارىء غذاء لقلبه وشفاء لنفسه ، وعونا له على السير فى طريق الهدى والنور •• **((ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور))**(٢) •

د• محمد ابراهيم الجيوشى

---

(١) النحل : ١٢٧ ، ١٢٨ •   (٢) النور : ٤٠ •

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسة وتقديم : حياته وعصره

١ ــ سمة العصر :

كانت منطقة خراسان ــ فى القرن الثالث الهجرى ــ تموج بالصراعات الفكرية ، والتقلبات الاجتماعية ، والمغامرات السياسية ، وكانت مدينة ترمذ احدى مدن منطقة خراسان ، أحد المراكز الثقافية الهامة فى تلك المنطقة تتفاعل مع هذه التيارات ، وتتأثر بها ، وتتشارك فى صنع جانب منها أحيانا ، الى جانب نظيراتها من مراكز الثقافة النشطة فى ذلك الاقليم مثل بخارى وسمرقند وبلخ ونيسابور ، وكان الصراع الفكرى بين رجال المذاهب والفرق الاسلامية من فقهاء ومحدثين ومتصوفة وعلماء كلام حول بعض المفاهيم الاسلامية وكيفية تطبيقها على أشده ، الى جانب الصراع بين الاسلام كقوة دينية وثقافية واجتماعية وبين بقايا الديانات القديمة ومواريث سكان البلاد الأصليين التى توارثوها عبر القرون المتطاولة .

وكان ذلك كله ينعكس على من يعيش فى هذه المنطقة من رجال الفكر والسياسة والاجتماع ويؤثر فى تفكيرهم ، ويلون نظرتهم للحياة والناس من حولهم .

وقد أدى ذلك الى ايجاد حركة فكرية وثقافية نشيطة فى هذه المنطقة ، والى ظهور عدد كبير من رجال الفكر والثقافة فى مجالاتها المختلفة بحثوا فى كل ألوان المعرفة دينية وفلسفية وتاريخية ولغوية وسواها ، ومن أبرز الأدلة على ذلك أن ترى عددا كبيرا من رجالات الفكر ينتسبون الى هذه المدن ، فحركة أهل الحديث التى تعد أبرز هذه الحركات قد ظهرت هناك ، وعمدت الى جمع الحديث النبوى وتمييز الصحيح من غيره ، وقد اتسعت هذه الحركة حتى أصبحت سمة عامة لثقافة المنطقة جميعها ، ولعلنا ندرك مدى شمولها وانتشارها حينما نعرف أن أصحاب الصحاح الستة : البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وأبو داوود ، والنسائى ، وابن ماجه وسواهم من أئمة الحديث كانوا جميعهم من أبناء هذه المنطقة ورجالاتها (١) .

وفى هذا الجانب من الدولة الاسلامية نشأت الحركات الصوفية وشيوخها كالملامتية ، وأصحاب الفتوة أتباع شاه الكرمانى سنة ٣١٠ هـ ، والسهلية

---

(١) راجع المعرفة عند الحكيم الترمذى للدكتور عبد المحسن الحسينى ص ٤٥.

التى تنسب الى سهل التسترى سنة ٢٨٣ هـ ، والكرامية أتباع محمد ابن كرام سنة ٢٥٥ هـ ٠

ويقع فى هذا الاقليم أيضا مدينة بلخ(١) التى أخرجت عددا من شيوخ الصوفية ، مثل ابراهيم بن أدهم ، وحاتم الأصم وغيرهما ٠

وترعرعت كذلك فى هذا الاقليم فرق المتكلمين من شيعة ومعتزلة ، وخوارج ، بما فيهم المرجئة والجهمية التى نشأت بمدينة ترمذ نفسها التى أخرجت الحكيم الترمذى ٠

ولم تقصر المذاهب الفقهية عن القيام بدورها فى هذا الاقليم ، فقد كان التعصب بين أتباع أبى حنيفة والشافعى عنيفا : الى حد الاقتتال وازهاق الأرواح كما تحدث بهذا المقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم (٢) ٠

فى هذا الجو المشحون بالحركة الملىء بالتيارات الفكرية المتصارعة ، وعلى أرض هذه البقعة التى كانت مسرحا لهذا الصراع وملتقى لاختلاف الأفكار والآراء والحضارات والأجناس ، ولد الحكيم الترمذى ، وفى خضمها نشأ وترعرع وتعلم وأخذ وأعطى ٠

٢ — نسبه ومولده ونشأته :

أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن — أو الحسين — بن بشر — أو بشير — الترمذى الملقب بالحكيم ، وأحيانا يوصف بالمؤذن والمحدث ٠

لم تقدم لنا كتب الطبقات والسير تاريخا لميلاد الحكيم الترمذى ، وهذا أمر طبيعى فى ذلك العصر اذ لم يكن يهتم بتواريخ الميلاد ، ولكن بعد أن ينبغ الرجل ، ويكون له مشاركة فى نشاط الحياة العلمية أو السياسية أو الاجتماعية تتحدث الكتب عنه وتذكر وفاته بعد أن أعلن عن نفسه بنشاطه فى مجاله الذى شارك فيه وكذلك كان الشأن بالنسبة للحكيم الترمذى ، فلم تحدثنا المصادر العربية أو الفارسية عن تاريخ مولده ولو على وجه التقريب ، لهذا لم يكن ميسورا أن يذكر المرء تاريخا محددا لميلاد الحكيم الترمذى وان كان من المحتمل الاستنتاج بأنه رأى الحياة فى العقد الأول أو الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وهذا كل ما يمكن أن يقال عن مولده ٠

٣ — مدينة ترمذ :

وقد ولد فى مدينة ترمذ ، احدى مدن ما وراء النهر ، الواقعة على ضفة

---

(١) مدينة مشهورة بخراسان على نهر جيحون بينها وبين ترمذ اثنا عشر فرسخا ٠ معجم البلدان جـ ٢ ص ١٧٩ ، ١٨٠ ٠

(٢) المقدسى ، أحسن التقاسيم ص ٣٢٣ ٠

نهر جيحون ، وقد نقل الدكتور على حسن عبد القادر والبروفسور آربرى فى مقدمتهما لكتابى « الرياضة » و « وأدب النفس »(١) عن المؤرخ الفارسى آبرو قوله : « ان الاسكندر الأكبر هو الذى أسسها ، وأنها كانت مركزا للبوذية وقت الفتح الاسلامى ، وكان بها اثنا عشر ديرا لزهاء ألف راهب ، وكان يحكمها ملك يسمى ترمذ شاه ، ويحميها حصن قوى على ضفة النهر • وفى عام ٧٠ هـ ــ ٦٨٩ م فتحها موسى بن عبد الله بن خازم ، واستمر حاكما عليها طوال خمسة عشر عاما الى أن خلفه عثمان بن مسعود بأمر من المفضل ابن المهلب حاكم الولاية (٢) •

وتحدث عنها ياقوت الرومى فى كتابــه « معجم البلدان » فقال : مدينة مشهورة ، من أمهات المدن ، راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقى ، متعلقة العمل بالصغانيان ، ولها قهندز وربض يحيط بها سور ، وأسواقها مفروشة بالآجر ، ولهم مشرب يجرى من الصغانيان لأن جيحون يستقل عن مشرب قراهم (٣) •

وأخرجت ترمذ كثيرا من المحدثين والفقهــاء ، وأشــهرهم أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى صاحب كتاب « الجامع والعلل » وكتاب « الشمائل » • المتوفى بعد سنة ٢٧٠ هـ •

هذا عن ترمذ فى المــاضى • أما ترمذ فى أيامنا هذه ، فهى قرية متواضعة بالاتحاد السوفييتى بالقرب من الحدود الأفغانية ، وكانت الى عهد قريب داخل حدود أفغانستان ، وقد نقل محققا كتاب الرياضة :

« ان قبر الحكيم الترمذى الآن معروف فى خرائب ترمذ القديمة ، وهو من المرمر الأبيض »(٤) ، وقد كتبا هذا الكلام منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما •

٤ ــ وفاته :

اذا كانت كتب الطبقات والسير قد لزمت الصمت بالنسبة لميلاد الحكيم الترمذى فانها قد تحدثت عن تاريخ وفاته حديثا يتفاوت الخلاف فيه تفاوتا كبيرا اذ يبلغ خمسة وستين عامــا ، وســنحاول أن نستنتج تاريخ وفاته جهد الاستطاعة حسبما تهدينا المقارنة بين ما كتب عنه فى كتب الطبقــات والسير ، فقد جاء فى سفينة الأولياء وفى أماكن من كشف الظنون أنه توفى عام ٢٥٥ هـ ، ولكن الدارس لحياة الترمذى وما كتب حــوله لا يتردد فى

---

(١) طبع بالقاهرة عام ١٩٤٧ بمطبعة الحلبى •
(٢) مقدمة الرياضة وأدب النفس ص ٤ •
(٣) معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٦ دار صادر ــ بيروت •
(٤) مقدمة الرياضة وأدب النفس ص ١١ •

رفض هذا التاريخ لأن الترمذى نفسه كتب عن بعض الرؤى التى رأتها زوجة له وذكر تاريخ هذه الرؤى بالساعة واليوم والسنة حيث يقول فى رسالته « بدو الشأن » وهى المعروفة بعنوان بدو شأن الحكيم الترمذى ٠٠ « ورأت لسنتين أو لثلاث وذلك يوم السبت ضحى لعشر بقين من ذى القعدة سنة تسع وستين ومئاتين »(١) • ويبدو من هذا أن الحكيم الترمذى كتب رسالته هذه فى حدود عام ٢٧٢ هـ ، وليس صحيحا أيضا ما ذكره « ماسينيون » وفى بعض أماكن فى كشف الظنون من أن وفاته كانت عام ٢٨٥ هـ ، لأن الذهبى والسبكى يرويان أنه طرد من ترمذ ورحل الى نيسابور ، وأخذ يدرس الحديث هناك وكان ذلك فى عام ٢٨٥ هـ (٢) ولا يمكن التسليم بما استنتجه الدكتور على حسن عبد القادر والدكتور آربرى من أن وفاته كانت فى حدود عام ٢٩٦ هـ ، لأن ابن حجر يروى فى لسان الميزان أن الأنبارى سمع منه عام ٣١٨ هـ ، والحق أنه ليس هناك من دليل قاطع على تاريخ وفاة الحكيم الترمذى ، لذلك لا يمكن للباحث أن يقطع بتاريخ محدد لذلك ، ولكن يمكن بعد استعراض المناقشة السابقة نرجح أن وفاته كانت بعد عام ٣١٨ هـ ، وقد يكون ذلك فى ٣١٩ هـ أو ٣٢٠ هـ ٠٠ كما ذهب الى ذلك بروكلمان •

ومن الواضح من العرض السابق أن الحكيم الترمذى قد عاش عمرا طويلا ، قد يقارب المائة عام أو يزيد أو ينقص عنها قليلا ، وسنحاول فى الصفحات المقبلة أن نتتبع رحلة هذه الحياة ، ونلم بما جرى فيها من الأحداث التى تسعفنا المراجع بالحديث عنها أو الاشارة اليها •

وهى ولا شك أحداث قليلة ، لأن الباحث لا يجد فى المراجع الميسرة له ما يشبع رغبته فى الاستقصاء والبحث عن دقائق هذه الحياة العريضة ، الحافلة بالمفاجآت المثيرة ، والحجاج العلمى العنيف الذى يستشعر الباحث مدى حرارته وقسوته فيما نال الحكيم من نفى واضطهاد ومطاردة أدت الى لزومه بيته وحرمت عليه الاتصال بالناس والحديث اليهم ، ولو قدر لنا أن نقف على تفصيلات هذه المعارك العلمية فاننا سنقف على صورة دقيقة لما كانت تموج به هذه العصور من حجاج علمى وصراع فكرى حاد امتلأت بهما حياة الشيخ وانعكس أثرهما على كتاباته ومناقشاته ، وقد ينبىء عن عنف هذه المعارك وأثرها على نفس الشيخ الحكيم ومدى علاقاته بالناس من حوله عبارة رددتها عنه أكثر الكتب التى تحدثت عنه وهى قوله : « ما صنفت شيئا لينسب الى ، ولكن كنت اذا اشتد على وقتى أتسلى بمصنفاتى » • فقد تشف عن مدى ما كان يعانيه من قطيعة الناس ، وعدم الاجتراء على

---

(١) بدو شأن أبى عبد الله مقدمة ختم الأولياء ص ٣٠ ، ومخطوط اسماعيل صائب رقم ١٥٧١ •

(٢) راجع تذكرة الحفاظ جـ ٢ ص ١٩٧ ، وطبقات الشافعية جـ ٢ ص ٢٠ •

لقائهم أو الحديث اليهم ، ولعله فعل ذلك نزولا على حكم الوالى الذى طلب اليه ألا يتحدث الى الناس ولا يلتقى بهم بعدما اتهموه بافساد الناس وشهدوا عليه بالكفر .

٥ ـ معالم حياة الحكيم الترمذى :

فما هى معالم هذه الحياة المثيرة ؟ وفى أى البيوتات نشأ الحكيم وترعرع ؟ .
لقد فتح الحكيم عينيه على حلقات العلم والدرس منذ بدأ يعقل ، لأن أباه كان أحد علماء الفقه ورواة الحديث كما يبدو من حديثه عنه ، وقد أخذ أبوه يغرس فيه حب العلم وتحصيل المعارف ويحمله على ذلك حملا فى وقت مبكر ، حتى امتلا وقته منذ الصبا الباكر بالاقبال على الدرس وتحصيل العلم ، بفضل تشجيع والده وحثه على الاستزادة منه مدفوعا بحرص الأب ومسئولية المربى حتى أصبح العكوف على الدرس أمرا مألوفا له فى سنه الباكر الذى يقطعه أترابه فى اللهو واللعب ، وقد كان أبوه أستاذه الأول ، ولعله استغنى بذلك عن التردد على الشيوخ فى صباه الأول ، ويفهم مما كتبه الحكيم عن تعليمه فى هذه السن المبكرة أن أباه كان يدرس له علم الرأى والآثار أو بعبارة أخرى علم الحديث والفقه ، فقد كان أبوه محدثا ، ويروى عنه فى كتبه جميعها ، وهذا كله يجمله الحكيم فى عبارة موجزة بقوله :

« كان بدو شأنى أن الله تبارك اسمه قيض لى شيخى ـ رحمة الله عليه ـ من لدن بلغت من السن ثمانيا ، يحملنى على تعلم العلم ، ويعلمنى ويحثنى عليه ، ويدئب ذلك فى المنشط والمكره ، حتى صار ذلك لى عادة وعوضا عن اللعب فى وقت صباى ، فجمع لى فى حداثتى علم الآثار وعلم الرأى »(١) .

ولا ندرى على وجه التحديد الى أى مدى استمر والده يعلمه ، ولا ندرى اذا كان هناك من الشيوخ الآخرين من تتلمذ عليه الحكيم فى صباه وفى صدر شبابه غير والده أو لا ، لأن المصادر التى بأيدينا قد سكتت عن الحديث عن هذه الفترة من حياة الحكيم الترمذى ، وان كان مما لا شك فيه أن هناك من شيوخ الترمذى الحكيم وأساتذته من قام بتعليمه الى جانب والده . ولا ندرى على وجه التحديد أيضا متى توفى والده ، وان كان من المؤكد أنه قام بالنصيب الأكبر فى تثقيفه وتوجيهه فى الفترة الأولى من حياته ، ويؤخذ من كثرة روايته عن أبيه فى كتبه أن أباه لم يمت الا بعد أن بلغ سن الشباب وحصل كثيرا من مسائل العلم ، وليس صحيحا أنه مات وهو صغير كما يروى فريد الدين العطار فى تذكرة الأولياء (٢) .

---

(١) بدو شأن الحكيم الترمذى مقدمة ختم الأولياء ص ١٤ ، مخطوط الاسماعيل صائب ١٥٧١ ورقة ٢٠٩ ب .
(٢) تذكرة الأولياء جـ ٢ ص ٩٠ ، ٩١ .

ويبدو أن الحكيم كان شـديد الحب لأمه كثير العطف عليها ، يعرف لها حقها ، ويقوم بواجبها كما سيتبين لنا ذلك بعد حين الحديث عن رحلاته وأسفاره ، ولا تشير الكتب التى تحدثت عنه أن كان له اخوة ، ولعل ذلك كان السبب الأكبر فى تعلق أمه به وحرصها على بقائه بجانبها فى وحدتها ومرضهـا ٠

وقد كان لتوجيه والد الحكيم له منذ الصبا الباكر أثر بالغ فى تعلقه المبكر بتحصيل العلم ، والرغبة فى الاستزادة من المعرفة ، والاستعداد للرحلة من أجل ذلك كما كانت العادة جارية بذلك فى زمانه بالنسبة للطلاب الذين لم يعرفوا حدودا تفصل بين بلد وآخر ، فالعلم عندهم لا وطن له ، والرحلة فى سبيله أمر مطلوب محبب ، وتاريخ الاسلام حافل برحلات رجاله فى الشرق والغرب للتزود من المعرفة وتحصيل شوارد العلم ، وحسبك أن تلقى بنظرك عبر التاريخ وتستطلع سير مفكريه ، وقادة الرأى فيه لتدرك بجلاء الى أى مدى كانوا يرون الرحلة لهذا الهدف النبيل أمرا لازما ، وفرضا لا بد من القيام به ٠

٦ ــ رحلة لم تتم :

ولهذا اتفق الترمذى منذ صدر شبابه مع اثنين من زملائه على القيـام برحلة علميـة يلقون خلالهـا قادة الفكر فى مختلف الأمصار ، ويتلقون عنهم علومهم ومعارفهم ، ويأخذون عنهم ، غير أن الأمنية الغالية لم تتحقق للحكيم الشاب فى تلك الفترة التى عقد العزم فيهـا على السـفر مع زميليه ، فقد مرضت أمه ، وطلبت اليه أن يبقى بجانبهـا يرعاها ، ويقوم على شئونها ، لأنه ليس هناك من يقوم بهذا الواجب سواه ، وما كان للحكيم البار بأمه أن يتخلى عنها فى ذلك الوقت الذى تحتاج فيه الى من يرعاها ، ويقوم بواجبها ، وان كانت الرحلة المرتجاة تلهب خياله ، وتملأ كل أحاسيسه ، والشوق الجارف الى التزود من المعرفة يشغل أيامه ولياليه ، فانطلق صاحباه ، وظل هو يبكى ضياع وقته ، وافلات الفرصـة السـانحة ، وقد رسم لنـا الشـاعر الفارسى فريد الدين العطار صورة معبرة عن المشاعر المتضاربة التى اجتاحت كيان الحكيم وتصارعت فى داخله فى هذه الآونة من حياته ، فلنلق بأسماعنا الى العطار وهو يقول : « كان الحكيم الترمذى قد عقد النيـة فى أول أمره على الرحلة لطلب العلم فى رفقة اثنين من اخوانه ، وفيما هو يأخذ أهبته للسـفر مرضت أمه ، فقالت له : يا بنى ، انى امرأة ضعيفة ، لا عائل لى ، ولا معين سواك ، وأنت المتولى لأمرى ، فالى من تكلنى ،وتذهب ؟ ، فنالت هذه الكلمات من نفسه حتى عدل عن الرحلة ، ومضى زميلاه فى سبيلهما ٠ ثم مضى على ذلك بعض الوقت كان الحكيم فيه فريسة للاسى والحزن على ما فاته ، وكان يلجأ الى البكـاء يخفف به عن نفسـه ما تجد ، وذات يوم بينما كان فى المقابر يبكى بكاء حارا ويقول : ها أنذا قد بقيت جاهلا مهملا ، وسيرجع

صاحباى وقد حصلا العلم • اذا به يرى أمامه فجأة شيخا مشرق الوجه ، فسأله عن سر بكائه ، فأفضى اليه بذات نفسه ، فقال له الشيخ : ألا أعلمك فى كل يوم شيئا من العلم ، فلا يمر عليك كثير من الوقت حتى تسبق اخوانك ؟ فأجابه الى ذلك ، واستمر الشيخ يعلمه عدة أعوام ، ثم عرف الحكيم بعد ذلك أن معلمه الشيخ انما هو الخضر عليه السلام ، وأنه حصل على هذا ببركة دعاء أمه اه »(١) •

ان قضية الخضر أمر مختلف فيه بين العلماء فبينما يثبت ابن القيم فى المنار المنيف عدم صحة الأحاديث الواردة بالنسبة للخضر ويخلص منها الى أن الخضر قد مات ويستدل على ذلك بأحاديث صحاح ، نرى الصوفية يكادون يجمعون على بقاء الخضر حيا ولقائه لبعض شيوخهم •

وقد نأخذ من هذا النص مدى ما كان يعتلج فى صدر الحكيم من الرغبة الملحة فى طلب العلم ، وتصارع ذلك مع عاطفة البر بأمه ، ثم انتهائه الى التضحية برغبته فى سبيل الحرص على رعاية شئون أمه والقيام بواجبها ، وانعكاس ذلك على مستقبله حتى هيأ الله له الخضر يعوضه ما فاته من أمر السفر ، ويفتح له بسبب ذلك من فيوض الله وخزائن علمه التى لا تنفد •

ولكن هل كف الترمذى الحكيم عن التفكير فى مثل هذه الرحلة ؟

وهل قنع بما نال من المعرفة على يدى الخضر ؟

٧ — الرحلة الى الحج :

لقد ظل يرقب الفرصة حتى سنحت ، وما أن تهيأت له حتى أزمع الخروج الى مكة يحج الى بيت الله الحرام ، وكانت سنه اذ ذاك سبعا وعشرين سنة ، كما يحدث عن نفسه(٢) ، ويبدو أن ذلك بعد وفاة أمه •

ولئن كانت الرحلة مقصدها الأول هو الحج ، فلا بأس من أن تغتنم لتحصيل ما لم يمكن تحصيله من قبل ، ففى طريقه الى البيت المحرم مر بالعراق ليأخذ الحديث عن علمائه ، وهناك عرج على البصرة يأخذ عن شيوخها ، وبقى فيها الى رجب من نفس العام ، ثم شد رحاله الى مكة وحل بها فى نفس الشهر وظل مجاورا للبيت المحرم ملتزما لرحابه حتى حان وقت الحج ، وكان يقضى أوقاته فى تلك الرحاب المقدسة فى العبادة والتضرع والدعاء الى الله ، وكان يكثر ويلح فى أوقات السحر من الليل عند باب الملتزم ، ويبدو أنه داوم على ذلك خلال الأشهر الخمسة التى قضاها فى جوار البيت العتيق ، حتى ظفر بتوفيق الله له الى تصحيح التوبة والخروج مما جل ودق ،

---

(١) تذكرة الأولياء (طبع نيكلسون) جـ ٢ ص ٩١ — ٩٢ •

(٢) بدو شأن الحكيم الترمذى ، مخطوط اسماعيل صائب رقم ١٥٧١ ورقة ٢١٠ (أ) •

وأداء فريضة الحج بعد هذا التمحيص الذى استمر خمسة أشهر متواصلة ، انصهرت فيهـا نفسه وأرهفت مشاعره ، وانتعشت مشاعر الخير فى داخله ، واتصل قلبه بنور الله حتى أبصر طريقه ، ويقول هو عن نفسه موجزا نتيجة هذه الرياضة والتضرع والدعاء الذى أقام عليه مدى خمسة أشهر فى هذه الأوقات التى تنام فيهـا الأعين وتأوى الجنوب الى المضاجع ، وفى تلك الرحاب التى باركها الله وطهرها ، وجعلها موئلا لرحمته ، وساحة لقبوله ، ومجلى لرضـاه يقول : « فرجعت وقد أصبت قلبى »(١) ٠

٨ ـــ بعد الحج :

ويبدو أن هذه الرحلة المقدسة كانت نقطة تحول فى حياة الترمذى وترقيـه الروحى ، وكانت فتحا جديدا فى طريقه الى الله ٠ فهو يقول عن نفسه أثناء اقامته بمكة : « وسألته عند الملتزم فى تلك الأوقات أن يصلحنى ويزهدنى فى الدنيا ، ويرزقنى حفظ كتابه ، وكنت لا أهتدى لشىء من الحاجات غير هذا »(٢) ، ويبدو جليا أن هذه الرحلة كانت نقطة التحول الكبرى فى حياة الحكيم الترمذى ، واتجاهـه نحو التصوف والسـير فى طريقه بعـد ما حصل القسط الوافى من ألوان العلوم والمعارف الأخرى السائدة فى عصره كالفقه والحديث والتفسير وعلم الكلام ٠

وقد ألقى بثقله الى حفظ القرآن الكريم وهو فى طريق عودته وتم له حفظه جميعه بعد وصوله الى وطنه ترمذ ، وأخذ القرآن من احساسه وعقله وقلبه ووجدانه كل مأخذ حتى كان يقطع الليل كله يتلوه الى مطلع الفجر ، وحتى وجد فى قلبه حلاوته وانشرح صدره لنوره ٠

ثم أخذ فى تتبع الكتب التى تتحدث عن محامد الرب ـ على حد تعبيره ـ والعظات وحسن الكلام الذى يعين على أمر الآخرة ٠

٩ ـــ البحث عن الطريق :

وقد مر الترمذى بفترة قلقة أشبه ما تكون بالحيرة التى تنتاب السالك فى محاولاته اكتشاف النفس أو الاطمئنان الى طريق الهدى ، فهام على وجهه يبحث عن مرشـد أو واعظ يأخذ بيده ، فلا يجد من يوجه طريقه ويسدد خطاه ، ويبدو أن الخوف والقلق قد اشتدا به خـلال هذه الفترة الحرجة ، ولم يجد خيرا من الصلاة والصوم حتى اهتدى الى سماع أقوال العارفين ، وأثناء بحثه عن معين على الطريق وقع فى يديه كتاب الأنطاكى ، ويبدو أنه يقصد كتاب علوم المعاملات لأحمد بن عاصم الأنطاكى ، فأقبل على قراءته ، واهتدى

---

(١) بدو شأن الحكيم الترمذى مخطوط اسماعيل صائب ورقة ٢١٠ (أ) ٠

(٢) بدو شأن الحكيم الترمذى مخطوط اسماعيل صائب ص ٢١٠ ، ومقدمة ختم الأوليـاء ص ١٤ ٠

بواسطته الى طريق رياضة النفس ، وأخذ فى تطبيقه عمليا ، وهذه الاشارة العابرة من الحكيم عما انتابه من حيرة تعيد الى أذهاننا ما وصفه الغزالى من حيرته فى كتابه « المنقذ من الضلال » ، غير أن الغزالى قد أودع تجربته كاملة فى كتابه ، والحكيم أشار اليها باختصـار ولم يعطنا صورة مفصلة عنها ويا ليته فعل ، اذن لوقفنا على تجربة كاملة تعطى صورة مماثلة أو مغايرة لمـا أعطاها الغزالى ٠

١٠ ـ رياضة النفس :

ويمضى الحكيم فى تصوير تجربته الروحية فيأخذ نفسه بمنهج صارم حتى كان يمتنع عن شرب المـاء البارد خشية أن يكون قد جرى فى موضع بغير حق ورغبت نفسه فى الخلوة والبعد عن الناس والتردد على الأماكن المهجورة الخربة ، وحبب اليه الخروج الى الصحراء لينال فترة كافية يتخلص فيها من علائق الدنيـا ، ومطالبها ، ويتهيأ له جو هادىء يركن فيه الى التأمل والتدبر فى عظمة الخالق ، وملكوت السموات والأرض ، ولا شك أن سكون الصحراء وجلالهـا وانفساح الأفق فيها ، كل ذلك قد هيأ له فرصة نادرة يدرك فيها من أسرار الكون وعظمة الخالق ما لم يكن من الميسور أن يتهيأ له لو عاش بين الناس ، وانشغلت نفسه بمشاكلهم ، وامتلا قلبه بأمورهم ، خاصة ، وأنه لم يتهيأ له أصحاب صدق يستعين بهم على المضى فى طريقه الذى تتشوف نفسه الى الوصول به الى الغاية التى ينشدها ، فكانت الخلوة أمرا لا بد منه ، وقد عرض الحكيم هذه الخطوات التى أشرنا اليها وما انتابه من نوازع وخلجات أثناء سيره ومجاهدته فى رسالته بدو الشأن ، ولا نجد من بأس بأن نورد هنا نص ما كتبه فانه أكثر تعبيرا عما نود أن نصف من حاله فى هذه الفترة القلقة من حياته ، وان كان فيه تكرار لبعض ما أشرنا اليه الا أن هذا التكرار يلقى أضواء جديدة وفى الوقت نفسه يضع بين أيدينا مثلا من كتابة الحكيم الترمذى وطريقة تفكيره ٠ وأسلوب تعبيره ، يقول : « ٠٠ فرجعت وقد ألقى على حرص حفظ القرآن فى طريقى ، فأخذت صدرا منه فى الطريق ، فلما وصلت الى الوطن يسر الله على ذلك بمنه حتى فرغت منه ، فأقامنى ذلك بالليل ، فكنت لا أمل من قراءته ، حتى انه كان ليتيمنى ذلك الى الصباح ، ووجدت حلاوته ، فأخذت أتتبع من الكتب محامد الرب تبارك اسمه ، والتقاط محاسن الكلام ، من طريق العظات ، ومما يستعان به على أمر الآخرة ، وأسترشد فى البـلاد فلا أجد من يرشدنى الطريق أو يعظنى بشىء أتقوى به ، وأنا كالمتحير لا أدرى أى شىء يراد لى ، الا أنى أخذت فى الصوم والصلاة ، فلم أزل كذلك حتى وقع فى مسامعى كلام أهل المعرفة ، ووقع الى كتاب الأنطاكى فنظرت فيه ، فاهتديت لشىء من رياضة النفس ، فأخذت فيها ، فأعاننى الله ، وألهمت منع الشهوات نفسى حتى صرت كأنى أعلم على قلبى الشىء بعد الشىء ، حتى ربما كنت أمنع نفسى المـاء البارد ، وأتورع من شربه

ماء الأنهار فأقول : لعل هذا المـاء جرى فى موضع بغير حق ، فكنت أشرب من البير ، أو من الوادى الكبير ، ووقع على حب الخلوة فى المنزل ، والخروج الى الصحراء ، فكنت أطوف فى تلك الخرابات والنواويس حول الكورة ، فلم يزل ذلك دأبى ، وطلبت أصحاب صدق يعينونى على ذلك ، فعز على فاعتصمت بهذه الخرابات والخلوات »(١) ٠

وليس من شك فى أن هذا النص قد زودنا بألوان من المجاهدات والرياضات النفسـية التى أخذ الحكيم بهـا نفسه حتى أسلمته الى ما يريد ، وقد بدا له فى خـلال مجاهداته هذه والرغبة فى تحصيل المعارف على اختلاف أنواعها أن يشتغل بتقدير شأن الزوال وتعلم الحساب من أمر البروج والاصطرلاب وما شاكل ذلك حتى أخذ منه بقسط كبير غير أنه انصرف عن المضى فيه الى النهاية بسبب رؤيا رؤيت له تنصحه بترك الاشتغال بهذا النوع من العلوم خشية أن يؤثر ذلك على تقدمه الروحى ، ويكون حجابا بينه وبين رب العزة(٢) ٠

١١ ــ بداية المتاعب :

وداوم الحكيم على رياضة النفس ، ولزوم العزلة ، وكثرة النجوى ، واستمرار الدعاء ، حتى عرف طريقه ، وأحس من قلبه قوة وانتباها ، فبحث عن زملاء يعاونونه على الطريق ، واتخذ لهم مجلسـا يجتمعون فيه للتذاكر والمناظرة والدعاء والتضرع فى وقت الأسحار ، ويبدو أن جانبا من الخواطر التى كانت تدور فى هذه المجالس تسرب الى الخارج ، وتناقله الناس واحدا عن الآخر ، ولم تنل هذه اللمحات الروحية القائمة على الذوق والرياضة رضا بعض الشيوخ الذين كانوا ينهجون فى فهم الدين وأوامره منهجا آخر يدور فى فلك الألفاظ وفهمها الظاهر مما يناسب العامة من الناس ، ويبدو أيضا أن هذه المجالس كانت تحفل بكثير من اشارات الصوفية ، ولمحات العارفين فى أمور لم يألف الناس الخوض فيهـا ، أو تناولها على هذا النحو الذى يطلق فيه العنان لاشراق النفس ، ونور القلب ، فيلهم أهله فهما فى آية من كتاب الله أو شرحا لحديث من أحاديث رسوله الكريم ، أو تعليلا لأمر من الأمور التى كانت مجالا يخوض فيه الناس فى ذلك الوقت ، وكانت مثار أخذ ورد بين العلماء والباحثين ، وتختلف نظرتهم اليها وحكمهم عليها تبعا لاختلاف المنزع والمنهج والقدرة على الاستنتاج والحرية فيه ، أو تبعا لارتباط الباحث بمنهج معين ، والسير على منوال خاص لا يحـاد عنـه فى تفسير الأمور وتعليلهـا ، وقد أدى هذا الاختلاف فى المنهج والقدرة على الاستنتاج الى أن

---

(١) بدو شأن الحكيم الترمذى مخطوط اسماعيل صائب ورقة ٢١١ (ا و ب)

(٢) بدو شأن الحكيم الترمذى مخطوط اسماعيل صائب ورقة ٢١٥ (ب) ومقدمة ختم الأوليـاء ص ٢٧ ٠

يتناول بعضهم الحكيم بالنقد والتجريح ، وأحيانا بالايذاء والاتهام بالهوى والبدعة ، مما سبب كثيرا من الحزن والألم للشيخ الحكيم ، وقاد حملة الايذاء والتشهير هذه بعض من يدعون العلم ، ولم يعرفوا منه الا ظاهرا يتجملون به أمام الحكام ، ويتواجهون به بين العامة ، ولم يتورعوا أن يغروا به الحاكم ، ويشوا به الى الولاة ، ويشنعوا عليه بين العامة واتخذوا من حديثه عن النبوة والولاية نقطة يثيرون عليه بها الأحقاد ويفترون عليه ما لم يقله ، ولكن ذلك كله لم يثنه عن استمراره ، وظل دائبا نشيطا ، فلما اشتد الأمر ، وألقى الواشون بثقلهم رفعوا الأمر الى والى بلخ وألقوا بالاتهام جزافا حتى استدعاه الوالى ، وكتب عليه فى حضوره ألا يتكلم فى الحب ، وفى تصوير الحكيم الترمذى لهذه المحنة يقول : « ٠٠ فكان يكون لنا اجتماع فى الليالى نتناظر ونتذاكر وندعو ونتضرع بالأسحار ، فأصابتنى غموم من طريق البهتان والسعايات ، وحمل ذلك على غير محمله ٠ وكثرت القالة ، وهان ذلك كله على ، وسلط على أشباه ممن ينتحلون العلم ، يؤذوننى ويرموننى بالهوى والبدعة ويبهتون ٠ وأنا فى طريقى ليلا ونهارا دؤبا دؤبا » ٠

١٢ ــ ابتلاء ومحنة :

« واشتد البلاء ، وصار الأمر الى أن سعى بى الى والى بلخ ، وورد البلاد من عنده من يبحث عن هذا الأمر ، ورفع اليه أن هاهنا من يتكلم فى الحب ويفسد الناس ويبتدع ويدعى النبوة ، وتقولوا على ما لم يخطر ببالى قط ، حتى صرت الى بلخ ، وكتب على قباله ألا أتكلم فى الحب ٠٠ »(١) ٠

واشتدت الحياة على الحكيم الترمذى ، وآذته كثيرا هذه الاتهامات الباطلة التى ألصقها به منتحلو العلم زورا وبهتانا ، ولم يكن له بد من أن يتوارى عن الناس ، وعلى الرغم من المرارة التى شعر بها الحكيم من هذا البهتان الذى رمى به الا أنه انتهز فرصة هذه الشدة ليحكم سيطرته على نفسه ويتم له اخضاعها وتذليلها ، ويتخلص من شهواتها الكامنة ، وأهوائها المتربصة ، وهكذا فعل حتى انه ليحدثنا أنه كان يمشى حافيا فى الطرقات ، ويلبس الدون من الثياب ، ويحمل ما يحمله العبيد والفقراء ، وكانت نفسه تأنف قبل ذلك أن تأتى هذه الأمور ، الا أنه استطاع اخضاعها وترويضها حتى ذلت واستكانت ، حتى انه ليستشعر فى قلبه حلاوة هذه الذلة (٢) ٠

وكان الترمذى لا يدع الاجتماع باخوانه فى حلقات الذكر ، الا أن هذه الاجتماعات كانت تتم فى بيوتهم لا فى بيته ، حتى ليحدثنا أنه فى أثناء عودته

---

(١) بدو شأن الحكيم الترمذى ، مخطوط اسماعيل صائب رقم ١٥٧١ ورقة ٢١١ (أ) ، ومقدمة ختم الأولياء ص ١٧ ، ١٨ ٠

(٢) بدو شأن الحكيم الترمذى مخطوط صائب ورقة ٢١١ ومقدمة ختم الأولياء ص ١٨ ٠

من هذه الجلسات فى احدى الليالى ، أحس بقلبه وقد أشرق نوره ، واستبان طريقه ٠

ويؤخذ من تناول الترمذى لأحداث هذه الفترة أنه اعتبرها بمثابة تمحيص وامتحان ومحاولة للتغلب على نوازع النفس ، وامتلاك زمامها ، واخضاع رغباتها ، حتى لا تجمح به أو تستهويها مظاهر العبادة والنسك فتفسد عليه طريقه ، وتصرفه عن غايته التى كرس جهوده كلها للوصول اليها ، وقد نلمس صدى هذه المجاهدات الدائبة ، والمحاولات الشاقة لاخضاع أهواء النفس ٠ وامتلاك قيادها فيما كتبه الحكيم شارحا ومفصلا طرق رياضة النفس فى كتابيه المسميان « الرياضة » و « أدب النفس » وفى معالجاته المتكررة فى رسائله الأخرى لألوان الصراع الذى لا يهدأ بين القلب وجنوده من ناحية ، وبين النفس وأعوانها من ناحية أخرى ، وتجده منبثا فى العديد من كتبه ورسائله حينما يحلل مكر النفس ويصورها بصورة الوحش المتربص للفرصة يغتنمها ليفتك بفريسته ، وفى كتابه « ختم الأوليــاء » تحليل واف لهذا الصراع ، وحسبك أن تعود الى مجموعات رسائله لترى هذا الاهتمام محتلا جانبا كبيرا من محتوياتها ٠

وفى الوقت الذى تفرغ فيه الحكيم للسيطرة على نفسه ، واضطر الى الانزواء بعيدا عن ايذاء الناس له وتشنيعهم عليه وجد فى عالم الأحلام والرؤى متسعا يجد فى رحابه الفسيحة ما يرضى قلبه الكسير ، ويقنع وجدانه الجريح ، ويستبدل فيه سعادة الرضى بالمرارة القاسية التى تجرعها من كيد منتحلى العلم له واثارة العامة عليه حسدا من عند أنفسهم ، واتهامهم له ظلما وعدوانا ، وقد زودنا الحكيم بصورة حية لهذه المشاعر والأحاسيس التى عاش فيهــا ، وقاسى مرارتها ، بما قصه علينا من رؤى رآها أو رؤيت له ، والتى تعتبر بحق تعويضا داخليا يلجأ اليه الوجدان ، ويحيا فيه العقل الباطن للانسان فيعكس فى المنام مالم يتحقق فى عالم الواقع ، وفى الوقت ذاته يمد صاحبه بطاقة من المثابرة والجد حتى يظفر بما يكافح من أجله ، ويعوضه عما ناله من قسوة الناس وظلمهم ، ويفتح أمامه الأمل العريض فى حسن العاقبة ، واستقامة الطريق ٠

ولا شك أن الرؤى فى مثل هذه الظروف التى يتمتع أصحابها باشراق النفس وصفاء القلب ، وشفافية الروح ، ورقة الحس تكون بمثابة وعد لهم أن يواصلوا سيرهم ، ويقيموا على منهجهم حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ، خاصة وأن الحكيم الترمذى ومن على شاكلته من شيوخ الصوفية يرددون قول النبى صلى الله عليه وسلم : (لم يبق من النبوة الا المبشرات) ٠

قيل : وما المبشرات ، يا رسول الله ؟٠

قال : (الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له) ٠

وقد عاين الحكيم الترمذى كليهما ، فقد رأى هو نفسه ما فسح له باب

الأمل ، وهون عليه انكار الناس ، ورؤى له ما ثبته وقوى روحه ، وقد قص علينا جانبا من هذه الرؤى فى رسالته « بدو شأن الحكيم الترمذى » ومن رؤاه التى رآها حينما أحكم حساده من حوله الدائرة وضيقوا عليه الخناق حتى انه كان يخاف الظهور أمام الناس أنه قال : « فبينما أنا على هذه الحال ، اذ رأيت فيما يرىٰ النائم ، كأنى أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم • دخل المسجد الجامع فى كورتنا ، فأدخل على أثره ، فألزم اقتفاء أثره ، فما يزال يمشى حتى دخل المقصورة ، وأنا على أثره ، ومن القرب منه ، حتى كأن أكاد ألتزق بظهره ، وأضع خطاى على ذلك الموضع الذى يخطو عليه حتى دخلت المقصورة • فرقى المنبر فرقيت على اثره ، كلما رقا درجة رقيت على اثره ، حتى اذا استوى على أعلاها درجة قعد عليها ، فقعدت عند الدرجة الثانية من مجلسه عند قدميه ، ويمينى الى وجهه ، ووجهى الى الأبواب التى تلى السوق ، وشمالى الى الناس ، فانتبهت من منامى ، وأنا على تلك الحال »(١) •

ولا يحتاج المرء الى تفكير عميق ليستنتج أثر رؤيا كهذه على نفس رجل يتهمه الناس بالكفر ويقاطعونه من أجل ذلك ، وهو يحيا فى رؤاه مع النبى يقفو خطاه ويتبع أثره ، وفى ذلك ما فيه من الطمأنينة الى أن منهجه لا عوج فيه ولا زيغ ، وتأكيد لسلامة طريقه ، وبعده عن الانحراف والمؤاخذة ، وحسبه أن تحقق له ذلك ، وتأكد منه ، وليقل الناس فى شأنه ما يقولون ، فهم لا يعرفون طوايا القلوب •

ولعل ما يطلع عليه الدارس لآثار الترمذى من كتابات يتناول فيها علماء الرسوم بالنقد الشديد ، واللوم العنيف وتعريتهم من كل ثمرة من ثمار العلم النافع والمعرفة الحقة ، لعل ذلك يرجع الى ما عاناه من تحاملهم عليه ، وتشهيرهم به ، وكيل التهم اليه جزافا حتى حل به ما حل من الضيق ، وعانى من الألم والمرارة ما أشار اليه فى رسالته « بدو شأن الحكيم » التى كانت احدى ثمرات فترة الاضطهاد والتضييق التى مر بها •

ويمكن القول أن هذه الفترة المشار اليها قد امتدت حتى عام ٢٨٦ هـ ، وهو التاريخ الذى انتقلت فيه ولاية بلخ الى حكم السامانيين ، وانتهت ولاية آل الصفار الذين استمعوا الى الوشاة ، وآخذوه بما قالوا ، كما مر بيانه •

وقد تكون مدة الشدة قد امتدت أكثر من عشر سنوات ، وفى أثنائها رحل الحكيم الى نيسابور ، وقام بتدريس الحديث هناك ، وأخذ عنه كثيرون من محدثيها كما يتبين ذلك من استعراض أسماء الرواة عنه ،

---

(١) بدو شأن الحكيم الترمذى ، مخطوط اسماعيل صائب ورقة ٢١٠ (ب) ، ختم الأولياء ص ١٦ •

وقد قام بهذه الرحلة عام ٢٨٥ هـ كما ذكر ذلك الذهبى فى تذكرة الحفاظ(١) ، ولهذا وصفه كثير من كتاب التراجم بالمحدث ، فقد قال الذهبى : انه عنى بهذا الشأن ـ يعنى رواية الحديث ـ ورحل فيه(٢) ، وقال عنه شارح الرسالة القشيرية : سمع الكثير من الحديث بالعراق وغيره ، وهو من أقران البخارى ، وروى قول الحافظ ابن النجار فى تاريخه أنه كان اماما من أئمة المسلمين ، له التصانيف الكبار فى التصوف وأصول الدين ومعانى الحديث وفى شيوخه كثرة(٣) ٠

ويبدو أن فترة المحنة هذه جعلته يكف عن الحديث فى التصوف والخوض فى مسائله علانية وفى الحلقات العامة للدرس ، واقتصر على تناول الدقائق والاشارات فى مجالسه الخاصة ، ومع تلامذته الأدنين فى حالة الحاجة الى تجلية فكرة أو اجابة عن سؤال أو دعوة الى تصحيح اتجاه أو تقويم معوج ٠

١٣ ـ اهتمامه بالحديث النبوى :

وكان لاهتمام الحكيم الترمذى بالحديث طابع بارز ترك آثاره فى تفكيره ومنهجه وأسلوب تعبيره ، واستقل علم الحديث والتأليف فيه بثلاث مجموعات من مؤلفات الترمذى الحكيم ، الأولى تؤلف كتاب نوادر الأصول الى معرفة أخبار الرسول وقد رواه عنه علماء نيسابور وطبع فى استانبول سنة ١٢٩٣ هـ بعناية وشرح الشيخ مصطفى الدمشقى ٠

الثانية : تؤلف كتاب الرد على المعطلة ، ولا زال هذا الكتاب مخطوطا حتى الآن وتوجد منه نسخة فى مكتبة بلدية الاسكندرية تحت رقم ١٤٥ فنون متنوعة ، وان كان كثير من صفحاتها قد انمحت منها أسطر أو بعض أسطر عديدة بفعل المطر أو المياه مما يجعل الانتفاع به علميا غير ممكن الا اذا أمكن العثور على نسخة أخرى فى المستقبل يمكن تعويض النقص بالمقابلة عليها ، ونسخة الاسكندرية هذه ضمن مجموعة كلها للحكيم الترمذى تشتمل على المسائل المكنونة ، وتحصيل نظائر القرآن ، والمجموع قد نسخ فى سنة ٥٩٣ هـ بخط محمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أبى جراد ٠

والثالثة : تؤلف كتاب « المنهيات » وكل ما جاء فى حديث بالنهى ويوجد منه نسختان احداهما فى باريس والثانية فى مكتبة أسعد أفندى باستانبول ، وكلاهما فى حالة جيدة ٠

وقد تركت دراسة الترمذى للحديث طابعها فى مؤلفاته الأخرى ، وكانت الأحاديث مادة غزيرة بين يديه استعان بها فى تأييد أفكاره فى التصوف

---

(١) طبع حيدر آباد الدكن جـ ٢ ص ١٩٧

(٢) طبع حيدر آباد الدكن جـ ٢ ص ١٩٧

(٣) شرح الرسالة القشيرية جـ ١ ص ١٦٤

وقضاياه التى تصدى لها كالولاية ، والرياضة ، وأدب النفس ، ومناهج السلوك ، والمعرفة وغيرها من الأمور التى حفلت بها كتبه ورسائله العديدة ، بحيث تجد أثر ذلك فى كل صفحة مما كتب •

وأغلب الظن أن أكثر مؤلفات الترمذى قد كتبت فى هذه الفترة ، التى كان يقتل فيها فراغ الوقت بالكتابة وتسجيل خواطره •

١٤ — زوجه وأسرته :

ونحس مما سجله الحكيم الترمذى فى رسالته « بدو الشأن » أن زوجه كانت تأخذ بنصيب من هذا الاتجاه الروحى ، وكان لها أثر كبير فى التخفيف عنه ، ومعاونته على اجتياز هذه الفترة العصيبة ، ويظهر اعزاز الحكيم لها وتقديره بما يرويه من رؤاها التى رأتها له ، وكان الحكيم رب أسرة كبيرة فيما يبدو تضم عددا من الأطفال ، ففى احدى رسائل مجموعة ليبزج(١) يذكر أنه بلغ من العمر خمسة وستين عاما ، وأن له ستة من الأولاد ، والمعتقد أن الحكيم كان فى وضع مالى مريح أميل الى اليسار كما يؤخذ من الحادثة الآتية التى رواها فريد الدين العطار فى كتابه تذكرة الأولياء ، والتى تقول : « انه كان متوجها فى أحد الأيام الى المسجد يرتدى جبة نظيفة وعمامة نقية ، فألقت الخادم بماء ملوث بفضلات طفل رضيع فأصاب رأسه وملابسه »(٢) •

• ويعنينا من ايراد هذا الخبر أن نبرز أن الحكيم كان يستعين بخادم لترعى أطفاله وشئون منزله ، ولا يفعل ذلك الا ذوو اليسار والعيش الرغد •

وكانت علاقة الحكيم الترمذى بزوجه وأولاده قائمة على المحبة والاحترام ، فقد روى فريد الدين العطار(٣) أن أبناءه سئلوا كيف يعرفون أن الشيخ غضبان ؟

فكانت اجابتهم : أن عطفه عليهم يكون أكثر منه فى الأيام العادية ، ويمتنع عن الطعام والشراب ، ويأخذ فى البكاء والتضرع الى الله قائلا : يا رب فى أى شيء أغضبتك حتى أغضبونى هكذا ؟ يا الهى ندمت ، فأعدهم الى الصواب ، عند ذلك نعلم أنه غضبان منا ، فنندم ونترضاه حتى يذهب عنه حزنه •

---

(١) مجموع ليبزج ٢١٢ (س) ورقة ١٦٨
(٢) تذكرة الأوليا ، لفريد الدين العطار جـ ٢ ص ٩١ ، ٩٢
(٣) تذكرة الأولياء ، لفريد الدين العطار جـ ٢ ص ٩١ ، ٩٢

من هذا الأمر الذى يبدو متناقضا فى ظاهره عند الوهلة الأولى ، ويلقى ظلالا من الشك على صحة التاريخ الذى حددناه لانتهاء المحنة ، والذى نرجحه أن انتهاء زمن الاضطهاد قد انتهى نهائيا فى سنة ٢٨٥ هـ ولكن ليس معنى ذلك أن التاريخ السابق عليه كان كله تضييقا ومصادرة بل كان ذلك فى أغلب الأحوال وكانت هناك فترات تتخلل هذه الشدة ينجو فيها الحكيم من مؤاخذة الوالى ومتابعة حساده والنافسين عليه ، وقد تكون هذه الفترات هى التى كان يزول فيها سلطان بنى الصفار عن الاقليم ، ومما يؤيد هذا الاستنتاج أن كتب التاريخ تذكر أن كثيرا من الثورات قد قامت فى هذه البلاد خلال حكم بنى الصفار لها ، وأنها كانت تخرج من أيدى ولاتهم الى حين ثم تعود ، وقد تمتد هذه الفترات ما بين عام الى عامين خاصة وأن الحكيم الترمذى نفسه قد أشار الى جانب من هذه الفتن فى عرضه للاحداث التى مرت به ، وأن زعماء التحريض عليه قد فارقوا البلاد لما هاجت الفتنة لأنهم كما يبدو كانوا من أعوان الوالى وأنصاره ، وهذا نص تعبيره : « وهاجت بالبلاد فتنة وانتقاض أمر حتى هرب جميع من كان يؤذينى ويشنع على فى البلاد ، وابتلوا بالفتنة ووقعوا فى الغربة ، وخلت البلاد منهم »(١) ولعل مثل هذه الفترات كانت أوقات تنفس يباشر فيها الحكيم الترمذى جانبا من حريته ، ويتحدث الى الناس بآرائه وأفكاره ٠

ومما لا شك فيه أن هذه الفترة الهامة فى حياة الشيخ الحكيم قد حفلت بكثير من الأحداث والوقائع والصراع العلمى ، الى جانب الرياضات الروحية التى قص علينا جانبا منها ، وقد يشوق الباحثين أن يقفوا على تفاصيل هذه الأحداث وما جرى فيها من مساجلات هادئة أو مثيرة ، ليعرفوا المزيد عن هذه الحياة الزاخرة ، غير أن المصادر الميسرة الآن لم تقدم من هذه المعارك العلمية وما استتبعها من أحداث ما يشبع رغبة الدارسين فى الوقوف على أسرار حياة الشيخ الحكيم ، والالمام بأوجه نشاطه المختلفة ، ولعل هذا يكون ممكنا وميسرا فى يوم من الأيام ٠

١٦ — الرحلة الى بلخ :

وآخر الرحلات التى قام بها الترمذى الحكيم رحلته الى بلخ اثر موجة من موجات الاضطهاد العنيف التى تعرض لها ، وقد تحدثت عنها أغلب الكتب التى ترجمت له ، وقد استقبله أهل بلخ بالقبول والترحاب لاتفاقهم معه فى المذهب والأفكار (٢) ٠

---

(١) بدو شأن الحكيم الترمذى ، مخطوط اسماعيل صائب ورقة ٢١١(ب) ، وختم الأولياء ص ١٨

(٢) راجع تذكرة الحفاظ جـ ٢ ص ١٩٧ طبع حيدر آباد ، ولسان الميزان طبع حيدر آباد جـ ٥ ص ٣٠٨ ، وطبقات الشافعية جـ ٢ ص ٢٣ الطبعة الأولى ٠

وقد نقل أخبار هذه الرحلة كل من الذهبى وابن حجر والسبكى مسندين أصلها الى السلمى وأن السبب فيها أنه ألف كتاب « ختم الولاية » أو « ختم الأولياء » كما هو معروف الآن وكتاب « علل الشريعة » وأن أهل ترمذ هجروه لذلك ، ويسند الذهبى الى السلمى أنه نفى من ترمذ الى بلخ بسبب تأليف هذين الكتابين(١) ، وأما ابن حجر فمع اتفاقه مع الذهبى فى سبب هجر أهل ترمذ له فانه يقول : انه حمل الى بلخ(٢) وكلاهما يسند روايته الى السلمى ، وان كان لفظ حمل الذى استعمله ابن حجر لا يعطى صراحة أن ذلك كان نفيا وان كان المعنى لا يستبعد فهمه من تعبيره ، ثم يأتى ابن السبكى فيسند روايته أيضا الى السلمى ويشارك الذهبى فى أن خروجه كان نفيا بل ان تعبيره أكثر صراحة فهو يقول : « قال أبو عبد الرحمن السلمى : نفوه من ترمذ وأخرجوه منها وشهدوا عليه بالكفر وذلك بسبب تأليفه كتاب (ختم الولاية) وكتاب (علل الشريعة) ... »(٣) .

ثم جاء بعد ذلك شارح الرسالة القشيرية فردد ما قالوا مسندا له الى السلمى أيضا الا أنه قال : انه روى ذلك فى طبقاته(٤) والنسخة المطبوعة من الطبقات ليس فيها هذا الخبر ، ولعل السلمى أورده فى كتابه « تاريخ الصوفية » وهو مفقود الآن ، وفى رواية ابن حجر جملة تستحق التأمل وهى أنه قال : « ان ذلك كان فى آخر عمره » ، ولنا أن نستنتج من هذا التعبير أن تأليف الكتابين كان فى السنوات الأخيرة من حياة الحكيم وأن المطاردة التى هدأت بعد عام ٢٨٥ هـ قد عادت من جديد ، وهاج الناس عليه بعد تأليفه للكتابين المذكورين حتى نفى الى بلخ ووجد ترحيبا من أهلها وقبولا لآرائه فى الولاية وعلل الشريعة ، ومعنى ذلك أن فترات المطاردة والمصادرة كانت تتجدد كلما أبدى الترمذى الحكيم من الآراء مالا يتفق مع رأى جمهور أهل ترمذ .

وقد أتاحت هذه الرحلة للحكيم أن يناقش عن قرب آراء الملامتية خاصة وأنه كانت قد جرت بينه وبين اثنين من شيوخ الملامتية وكبار متصوفى بلخ مراسلات ومكاتبات لا زال محفوظا لنا بعض منهـا فى خلال رسائله ، وواحدة منها لمحمد بن الفضل البلخى ، والثانية لأبى سعيد الحيرى ، ولسـنا نزعم أن هذه كانت الرحلة الأولى والأخيرة الى بلخ ، فلعله رحل الى بلخ قبل ذلك

---

(١) تذكرة الحفاظ جـ ٢ ص ١٩٧ طبع حيدر آباد الدكن .

(٢) لسان الميزان جـ ٥ ص ٣٠٨ طبع حيدر آباد الدكن .

(٣) طبقات الشافعية جـ ٢ ص ٢٠ الطبعة الأولى المطبعة الحسنية المصرية .

(٤) نتاج الأفكار القدسية للعروسى وشرح الرسالة القشيرية ، للانصارى جـ ١ ص ١٦٤

ويبدو أن حياة الترمذى الحكيم الأسرية كانت حياة ترف السعادة على جوانبها ، ويظللها الاخلاص والوفاء ، وتزينها زوجة صالحة تحتل من قلب الزوج ومشاعره مكانا مرموقا ، وتشاركه مسرات الحياة وأحزانها ، وكان لها الى جانب ذلك حظ من المعرفة الالهية ، والسمو الروحى مما آنس الترمذى وعاونه كثيرا فى أيام شدته ، وأمده بطاقة جديدة تفسح له فى رحاب الأمل ، وتشد على يديه ، وتتطلع معه الى فيض الله يغمره واياها ، والى توفيقه يبدد من طريقه المصاعب ، ويزيل العراقيل والشدائد ٠

وكان الحكيم يعرف لها هذا ، وتحل من نفسه محل الاعزاز والاعجاب والتقدير ، ويتجلى كل ذلك من خلال حديثه عنها فى رسالته « بدو شأن الحكيم ٠٠٠ » حيث ألم ببعض من تجاربها الروحية ومجاهداتها مما يوحى بأن كان لها مقام تجاهد فى سبيل الوصول اليه ٠

ومن ثنايا حديث الحكيم عن زوجه ورؤاها يعطينا تاريخا لبعض هذه الرؤى مما يساعد على معرفة الزمن الذى كانت فيه هـذه الفترة القاسية والتى عانى فيها ما عانى ، فقد حدث أنها رأت لسنتين أو ثلاث ، وذلك فى يوم السبت ضحى لعشر بقين من ذى القعدة سنة تسع وستين ومئتين(١) ٠

وقد نأخذ من هذا النص أن الحكيم سجل خواطره فى تلك الرسالة بين عامى ٢٧٢ هـ أو ٢٧٣ هـ ، وهو ما يشعر به قوله عن زوجه : « ثم رأت لسنتين أو ثلاث ، وذلك فى يوم السبت ضحى لعشر بقين من ذى القعدة سنة تسع وستين ومئاتين » ٠

١٥ ــ نهاية المحنة :

ويعطى كذلك دليلا جديدا أن فترة الشدة هذه تمتد على مدى التـاريخ الذى استنتجناه من قبل ، غير أن هناك احتمالا قد يثير الشك فى أن فترة المحنة قد امتدت الى عام ٢٨٥ هـ حسبما أشرنا من قبل ، وذلك على تقدير أن الحكيم بدأ فى تسجيل خواطره بعد زوال المحنة وانتهاء آثارها ، وهذا ولا شك احتمال يحتاج الى التأمل والمناقشة ، ولو سلمنا به لكان هذا نقضا صريحا لما سبق أن قلناه بالنسبة لامتداد زمن الاضطهاد حتى سنة ٢٨٥ هـ وهذه نتيجة لا مفر من التسليم بها اذا ذهبنا الى أن الحكيم سجل خواطره بعد زوال المحنة وارتفاع أسبابها ٠

أما أن المحنة قد امتدت الى عام ٢٨٥ هـ فهذا أمر ثابت بدليل رحلته الى نيسابور فى نفس العام المذكور ، واذا كان الأمر كذلك فكيف نجد مخرجا

---

(١) بدو شأن الحكيم الترمذى مخطوط اسماعيل صائب ورقة ٢١٧ (ا) ، وختم الأولياء ص ٣١

والتقى بشيوخها أو لعلهم التقوا به فى ترمذ أو نيسابور أو غيرهما فان تلك كانت سنة الشيوخ فى ذلك العهد يذهب بعضهم الى بعض للمناظرة والمناقشة أو للتلقى أو للمذاكرة أو لمجرد اللقاء والزيارة وكان حديث الترمذى الحكيم عن النفس وعيوبها ومكرها وشهواتها متأثرا الى حد بعيد بمناقشاته مع شيوخ الملامتية من أهل بلخ ، وزيارته لها ، ولسنا نعنى بذلك أنه أخذ منهجه فى القضايا المتعلقة بالنفس وآفاتها من الملامتية بل نعنى أن ما دار بينه وبينهم من مساجلة وحوار ومذاكرة كان له اعتبار فى تقديره وبسطه لما يرى سواء اتفق معهم أو خالفهم ، ورسالته الى محمد بن الفضل(١) تكشف بوضوح عن الخط الرئيسى الذى يميز موقفه من علاج أهواء النفس من موقف الملامتية ٠ وسنعرض لمناقشة الملامتية فيما بعد ٠

١٧ — مراحل الاتهام :

قلنا ان سبب النفى أو الالتجاء الى بلخ كان الثورة على آرائه التى سجلها فى كتابيه ختم الولاية وعلل الشريعة ونحب أن نعقب بكلمة موجزة هنا عن مراحل الاتهامات التى وجهت الى الشيخ الحكيم ٠ فالذى يبدو أنها مرت بمراحل بدأت بالحديث عن الحب وافساد الناس ، وانتهت بالادعاء بتفضيل بعض الأولياء على الأنبياء ، مما سيتبين لنا فيما بعد أنه ادعاء لا دليل عليه من قول الحكيم وكتبه ، وأنه لم يقل شيئا من هذا مطلقا ، وانما هو سعى الحاسدين وكيدهم يلاحق القمم فى كل جيل وعصر ومكان ٠

١٨ — زوال المحنة :

وحينما أذن الله لهذه الشدة أن تنجلى كان الحكيم قد بلغ قمة نضجه الفكرى والروحى ، وبدأ ينفذ حديثه الى القلوب ، ويجتمع اليه الراغبون فى المعرفة بعد أن تبين زيف الوشايات وانكشف أمرها ، وأخذ نور الكلمات يغزو القلوب ، ويفك مغالقها ، وأقبل طلاب العلم ينهلون من منابع الحكمة ، ويتزاحمون على مواردها بعدما اختفى زعماء الفتنة وأقبل بعضهم آسفا يجلس مجلس التلامذة يبتغى الهدى ويسأل الصفح ، وبدأت دار الحكيم تشهد وفود الطلاب يتقاطرون عليها ويزداد عددهم يوما بعد يوم ، حتى ضاقت بهم جوانبها ، وأخذوا يتزاحمون على أبوابها ومن حولها ، وتقدموا اليه أن يتخذ لهم فى المسجد مجلسا يجمع عديدهم ، ويهيىء لهم فرصة أوسع ومجالا أرحب ، ويستجيب الحكيم الى طلبهم ويتحلق الطلاب من حوله فى المسجد ، ولكنه لم يفرح بذلك ، ولم يجد فيه مجدا تطمح اليه نفسه وترنو اليه ، بل اعتبر ذلك فتنة من الله له وابتلاء تخشى عواقبه ، وما علينا أن نلقى له

---

(١) راجع مخطوط مجموع ليبزج ورقة ١١٦ (ب) ، ١٧ (ا ، ب) ، ١٨ (ا) ، ومجموعة الاسكندرية ورقة ١٣ (ب) ، ١٤ (ا ، ب) ، ١٥ (ا) ٠

بأسماعنا يحدثنا عن هذه التطورات السريعة فى موقف الناس منه والتفافهم من حوله بعد القطيعة والاتهام ، يقول : « ··· حتى اجتمع الناس ببابى من مشايخ البلد من غير أن أشعر بهم ، وقرعوا الباب فخرجت اليهم ، فكلمونى فى القعود لهم ، وقد كان هؤلاء الأشكال قد قبحوا أمرى عند العامة قبحا كنت أتوهم أنهم السقم أكثرهم ، لما كانوا يذيعون على من الكلام القبيح ، ويشنعون أمرى ، ويرموننى بالبدعة ، من غير أن يكون ذلك من شأنى ، أو توهمته قط ·

فما زالوا يكلموننى فى ذلك حتى أجبتهم الى القعود ، فذكرت لهم من الكلام شيئا كأنه يغترف من البحر ، فأخذت من القلوب مأخذا ، واجتمع الناس ، فلم تحتمل دارى ذلك ، وامتلات السكة والمسجد ، فلم يزالوا بى حتى مدونى ـ جرونى ـ الى المسجد ، وذهبت تلك الأكاذيب والأقاويل الباطلة ، ووقع الناس فى التوبة ، وظهرت التلامذة ، وأقبلت الرياسة والفتن بلوى من الله لعبده ·

ورجع أولئك الأشكال الى البلاد بعدما قويت وكثرت التلامذة وأخذت القلوب مواعظى ، وتبين لهم أن هذا كان منهم بغيا وحسدا ، فلم ينفذ لهم بعد ذلك قول وأيسوا ، وقبل ذلك كانوا صيروا السلطان والبلاد على بحال لا أجترىء أن أطلع رأسى ، فأبى الله الا أن يبطل كيدهم ·· »(١) ·

١٩ ـ مكر النفس :

وعلى الرغم من المكانة التى وصل اليها الحكيم الترمذى فانه لم يغفل لحظة عن مجاهدة نفسه ، والأخذ بزمامها ومحاسبتها حسابا عسيرا حتى الخواطر التى تجول بذهنه ، فقد روى فريد الدين العطار أن الحكيم جلس مرة يستعرض فى مخيلته ما مر به من أحداث ، فتذكر أن احدى النساء حاولت اغراءه فى صدر شبابه وطاردته بغية أن يتحقق لها ما تريد ففر منها ، وفى خلال استعراضه لهذا الحادث جال بخياله « ماذا عسى قد يكون لو أنه قد أجابها الى ما تريد وقد كان لا زال غض الشباب » غير أنه انتفض انتفاضا شديدا لما حدثته نفسه بهذا الخاطر ، وامتنع عنه الهدوء والنوم ، وأخذ ينحى باللائمة على نفسه ، ظانا أن هذا الخاطر لا يأتيه الا اذا كانت هناك ثلمة فى تقدمه الروحى ، وخيل اليه أنه وقع فريسة لمكر النفس وخداعها بعد أربعين عاما من المجاهدة والرياضة ، فامتنع عن الطعام والشراب ، واجتاحته أزمة نفسية عنيفة لم ينجه منها الا رؤيا رأى فيها النبى صلى الله عليه وسلم ، وطمأنه أن لا خوف عليه من مثل هذه الخواطر العابرة(١) ·

---

(١) بدو شأن الحكيم الترمذى مخطوط اسماعيل صائب ورقة ٢١١ ومقدمة ختم الأولياء ص ١٨

(2) Muslim Saints and mystics by ARBRRY P·244

٢٠ ـ شيوخه وأساتذته :

لم يحدثنا الحكيم عن شيوخ له تعلم منهم وأخذ عليهم الا والده الذى أشار اليه فى رسالته « بدو الشأن » وفى جانب آخر من هذه الرسالة روى الحكيم أنه سافر الى الحج لما بلغت سنة سبعة وعشرين عاما ، وأنه فى طريقه الى الحج ذهب الى العراق ، وأقام بالبصرة والكوفة يأخذ الحديث عن شيوخهما ، ولكنه لم يذكر لنا أسماء هؤلاء الشيوخ ولا مدى تأثره بهم ، وقد ذكرت كتب التراجم وخاصة كتب الرجال أسماء حوالى سبعة عشر من شيوخه الذين تلقى عنهم الحديث فى خراسان والعراق ، وليسوا هم كل شيوخه من المحدثين فانهم يزيدون على المائة والستين محدثا كما سنثبت ذلك فيما بعد ، وقد تردد فى كتاب الطبقات أسماء ثلاثة من كبار شيوخ الصوفية التقوا بالحكيم وكانت له معهم صحبة هم يحيى بن الجلاء ، وأبو تراب النخشبى ، وأحمد بن خضرويه غير أن هذا اللقاء لا يعنى أنه كانت تلمذة من الحكيم عليهم ، وانما هو لقاء الأقران والنظراء ، ولو كان هناك شىء من هذا لأخبرنا الحكيم عنه فى مجال حديثه عن أطوار تقدمه الروحى وبحثه عمن يرشده الى طريقه وكل الذى وقع له من ذلك انما هو كتاب الأنطاكى ٠

وأما لقاؤه بالخضر وهل هذا صحيح أو غير صحيح فتلك قضية ناقشناها باسهاب فى كتابنا « الحكيم الترمذى آثاره وأفكاره » ٠

وقد كان للحكيم شيوخ كثر من المحدثين أحصينا منهم مائة وسبعين وقدمنا ترجمات لهم فى كتابنا عن الحكيم الترمذى ٠

أما تلاميذ الحكيم الترمذى فلم تسعفنا المراجع الا بأسماء ستة منهم وهم :

١ ـ أحمد بن محمد بن عيسى ٠

٢ ـ الحسن بن على الجوزجانى ٠

٣ ـ منصور بن عبد الله بن خالد الهروى ٠

٤ ـ أبو بكر محمد بن جعفر بن الهيثم ٠

٥ ـ أبو بكر محمد بن عمر الوراق الترمذى الحكيم ٠

٦ ـ أبو محمد يحيى بن منصور القاضى ٠

* * *

وقفة مع الحكيم الترمذى
فى كتابه المسائل المكنونة

يعالج الحكيم الترمذى فى هذا الكتاب عدة قضايا ، يجمعها خطوط رئيسية وقد تناول بعضهـا بصورة أكثر تفصيلا فى عديد من كتبه ورسائله •

وهذه القضايا يمكن أن نزعم أنها تدور فى المجالات التالية :

١ ــ العلم والعلماء •

٢ ــ الولاية والأولياء •

٣ ــ المعرفة وجندها ومملكتها ووسائلها فى انارة القلب وتأثيره على الجوارح •

٤ ــ النفس ومكرها وأعوانها ومحاولاتها الدائبة فى السيطرة على القوى المختلفة فى داخل الكيان الانسانى وتوجيه سلوكه حسبما تريد •

٥ ــ الصراع الدائم بين القوى الخيرة فى الانسان بقيادة القلب وبين القوى الشريرة بقيادة النفس الأمارة بالسوء •

أما العلم والعلماء فان الحكيم الترمذى يرى ، أن العلم النافع هو الذى يجب الاشتغال بتحصيله والحرص عليه وهو الذى تنعكس آثاره على سلوك الشخص وتصرفاته ، وتحكم أخلاقه واتجاهاته ، والعالم الذى انتفع بهذه الآثار الصالحة هو الجدير بأن يسمى عالمـا ، لأنه انتفع بما علم •

أما هؤلاء الذين يتخذون العلم وسيلة للوجاهة عند الناس ، والتطلع الى المناصب والسلطان فهم ليسوا بعلماء فى الحقيقة وانما هم منتحلة العلم ، ويسميهم الحكيم علماء السوء ، أو علماء الرسوم ، لأنهم أمثلة غير مشرفة للعلماء الذين يجب الاقتداء بهم ، والأخذ عنهم ، وقد شغلت قضية العلم والعلماء حيزا كبيرا من تفكير الحكيم ووقته حتى كتب فيها عدة رسائل منها : « بيان العلـم »(١) و « أنواع العلوم »(٢) و « العلـوم » أو « المسـائل العفنة »(٣) وفى هذه الرسائل أفاض فى الحديث عن أصناف العلماء وأنواع العلم ودرجاته •

ومن القضايا المتصلة بالعلم والعلماء التى ناقشها بوضوح قضية العلم الباطن والعلم الظاهر ، وخلاصة رأيه فى هذا الموضوع أن أحدهما لا يستغنى

---

(١) مخطوط اسماعيل صائب ورقة ١٠ ــ ٢٤ (ا) •
(٢) مخطوط ليبزج ورقة ١٦٨
(٣) مخطوط الظاهرية •

عن الآخر ، وأن من اتقى بالعلم الباطن ولم يتعلم العلم الظاهر ليقيم به الشريعة وأنكرها فهو زنديق ، ومن اتقى بالعلم الظاهر وأنكر العلم الباطن فهو منافق .

ونص كلامه فى هذه القضية هو ما يلى ننقله عن كتابه « الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب » : « .. فهذا طريق باطن العلم وظاهره ، ولا يستغنى أحدهما عن الآخر ، لأن أحد العلمين بيان الشريعة ، وهو حجة الله على خلقه ، والآخر بيان الحقيقة التى وصفت بعضها ، فعمارة القلب والنفس بهما جميعا ، وصلاح ظاهر الدين وقوامه بعلم الشريعة ، وصلاح باطنه وقوامه بالعلم الآخر ، وهو علم الحقيقة ، والدليل على ذلك أن صلاح الدين بصحة التقوى ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (التقوى هاهنا) وأشار بيده الى قلبه ، فمن اتقى بالعلم الظاهر ، وأنكر العلم الباطن فهو منافق ، ومن اتقى بالعلم الباطن ، ولم يتعلم العلم الظاهر ليقيم به الشريعة وأنكرها ، فهو زنديق ، وليس علمه فى الباطن علما فى الحقيقة ، انما هو وساوس يوحى بها الشيطان اليه ... »(١) .

أما الولاية والأولياء ، فهى حجر الزاوية فى فكر الحكيم والقاسم المشترك فى كل كتبه وآثاره ، ويعتبر الحكيم الترمذى أحد الذين وضعوا تصورا كاملا للولاية والأولياء فى الفكر الاسلامى ، فالحديث عن الولاية قبل الحكيم كان خطرات هنا وهناك أما الحكيم فقد تحدث عن الولاية حديثا مفصلا قائما على اعتبار الولاية نوعين ولاية عامة وولاية خاصة ثم بين المراحل التى يمر بها أهل كل نوع وصفاتهم ، وله تفصيلات دقيقة فى هذا الموضوع ، والأولياء عنده درجات ، منهم أهل الهداية وأهل الجباية ومنهم صغار الأولياء ومنهم الأقوياء الأمناء سادة الأولياء الذين يسمون الصديقين والمحدثين وختم الاولياء ، وله فى تفاصيل كل ذلك بحوث مستفيضة ضمنها كتبه العديدة ، مثل علم الأولياء ، وختم الأولياء ، ومنازل العباد ، ومعرفة الأسرار ، وغور الأمور وسواها ، فقلما يخلو كتاب من كتبه صغر أو كبر عن حديث عن الأولياء والولاية وكل من كتب فى موضوع الولاية بعد الحكيم الترمذى قد اعتمد عليه وأخذ منه ، وقد كان حديث الحكيم المستفيض عن الولاية سببا فى أن جر عليه اتهامات خطيرة عرضته لكثير من المتاعب ووضعته موضع الاتهام ، فقد أشيع عنه أنه يفضل الولاية على النبوة ، وتناقل الباحثون هذا الاتهام جيلا عن جيل بدون تمحيص أو بحث حتى ردده أبو العلا عفيفى فى كتابه « التصوف الثورة الروحية فى الاسلام » والحقيقة أن الحكيم الترمذى برىء من هذا الاتهام براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، بل ان كلامه فى غاية الوضوح والتحديد وهو يتناول هذه القضية سواء فى كتابه « ختم الأولياء »

---

(١) الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب ص ٥٢ ، ٥٣ .

ونص كلامه فيه « حاشا لمسلم أن يفضل غير نبى على نبى » • أو فى كتابه « معرفة الأسرار » حين يتكلم عن أجزاء النبوة ويحدد العلاقة بين الأولياء والأنبياء ، وكلا الكتابين مطبوع يمكن الاطلاع عليهما والوقوف على رأى الحكيم الترمذى مفصلا واضحا فى هذه القضية الخطيرة •

أما المعرفة فهى عنده قمة العلم وهو بالنسبة لها بمثابة المقدمة بالنسبة للنتيجة فالعارف عالم وليس العالم عارفا ، والعارف هو الذى بلغ أعلى درجات الولاية ، وما عنده من المعارف يسميه الحكمة العليــا أو حكمة الحكمة ، وقد تحدث الحكيم عن المعرفة فى كل كتبه ، وفى كتابنا الذى نقدمه اليوم للقراء مسألتان تتحدثان مباشرة عن المعرفة • الأولى : المعرفة والعلم والعقل والفهم والذهن والحفظ وهى المسألة رقم ٣٩ •

والثانية : تربية المعرفة ، رقم ٦٠ •

وقد عرضنا لنظرية المعرفة عند الحكيم الترمذى بالدراسة المفصلة فى كتابنا « الحكيم الترمذى آثاره وأفكاره » ، أما جند المعرفة ومملكتها ، فقد أفاض الحكيم فى الحديث عنها وعن النفس وأعوانها فى كتابه « غور الأمور » •

ويستطيع الدارس لآثار الحكيم الترمذى أن يقف على وجهة نظره فى مكر النفس ومحاولاتها الدائبة ، وفى كتابنا هذا مسألة بعنوان « مكر النفس » عرض فيها للمحاولات الدائبة للنفس أن تخدع الانسان وتمكر به ، وفى آثاره التى يتحدث فيها عن الولاية والأولياء والمعرفة والعارفين والنفس ومكرها تبرز بوضوح وجهة نظره فى الصراع الذى لا يهدأ بين القلب والعقل من جانب وبين النفس والهوى من جانب آخر •

لكننا ونحن نحاول تعريف القارىء بكتاب « المسائل المكنونة » نجد أنفسنا مضطرين الى الوقوف أمام مسائل ثلاث :

الأولى : مسألة الحمد كلمة جامعة شاملة •• وهى المسألة رقم ٢١ ، فان الدارس يجد الحكيم الترمذى قد مهد الطريق لابن عبد الجبار النفرى الى الفكرة التى بنى عليها كتابه الفذ فى الفكر الصوفى « المواقف والمخاطبات » فقد اختط الحكيم الترمذى المنهج فى مسألة « الحمد » وجاء النفرى فسار على هداه وأخرج لنا كتابه الذى لا نظير له والفضل فى هذا للحكيم ولا شك •

الثانية : « مسألة علم القالب » ٥٣ فى هذه المسألة جعل الحكيم علم القالب ذا درجات ثلاث بعضها أسمى من بعض ولم يتناول هذه الفكرة فى موضع آخر من كتبه ورسائله ، وهو هنا يتحدث عن علم الأولياء وعلم الأنبياء ويجعله درجات ثلاث : ١ ــ علم الأولياء ، ٢ ــ علم ربائب الأنبياء ويقصد بهم المجتبين من الصديقين والمحدثين وسادة الأولياء الأقوياء الأمناء ثم أعلى الدرجات وهو علم الأنبياء •

الثالثة : « مسألة جملة العبودة » رقم ٥٢ ، نرى الحكيم فى هذه المسألة يتحدث عن المعرفة ، ويضع لها تصورا جديدا حيث يقول : « فوضع فى القلب المعرفة ، وفى الصدر علم المعرفة ، وفى الرأس عقل المعرفة ، وفى الناصية المقدور وجعل الذهن والفهم والفطنة من جنود العقل » ٠

فنجده هنا بعد أن جعلَ المعرفة مقرها القلب وهذا هو ما جرى عليه فى أماكن أخرى من كتبه الا أنه بعد ذلك ، يتصور للمعرفة علما يجعل مقره بالصدر ، ويجعل للمعرفة عقلا يجعل مقره فى الرأس ٠ وهذا توزيع جديد للمعرفة وأعوانها وأماكن انطلاقها لم يتناوله فى كتاب آخر من كتبه على الرغم من حديثه المتكرر عن المعرفة وأعوانها ومناطق انطلاقها ٠

* * *

تأثير الحكيم الترمذى فى الفكر الاسلامى

الحكيم الترمذى واحد من مفكرى الاسلام ورجالاته البارزين فى القرن الثالث الهجرى ، الذين لم يأخذوا حظهم من الدراسة والاهتمام والعناية بتراثهم على الرغم من انتفاع الكثيرين بفكره سواء ممن عاصروه أو ممن جاءوا بعده ، وقد يكون هناك بعض العذر ان كان الرجل لم يترك أثرا مكتوبا يدل عليه ويرشد الى منهجه ولكن المثير للدهشة أن آثار الحكيم الترمذى ، مسجلة وباق منها الكثير بأيدى الناس يتداولونها حتى يومنا هذا ٠

وحينما تتاح الفرصة للدارس أن يرى هذه الآثار فى مظانها ٠٠ وأغلبها لا يزال مخطوطا حتى الآن ، سيرى على وجه اليقين أن كثيرين من علماء الاسلام ومفكريه قد انتفعوا بفكر الحكيم وأسلوبه وكتاباته ، ولكنهم لم يشيروا الى هذا الا فى القليل النادر ٠

وعلى سبيل المثال فانك ترى أثر الحكيم الترمذى واضحا فى فكر حجة الاسلام الغزالى وأنت تقرأ كتابه « احياء علوم الدين » فلو قدر لك أن تطلع على كتاب « الأكياس والمغترين » للحكيم الترمذى لأدركت على الفور أن الغزالى قد تلقف فكرة الحكيم فى كتابه المشار اليه وأضفى عليها من بيانه السيال وعرضه الشائق وبخاصة فى القسم المسمى « ربع المهلكات » ٠

وكذلك انتفع الامام الغزالى بما كتبه الحكيم عن العلم والعقل والنفس والروح والقلب وجنوده ، تلك الأفكار التى أشبعها بحثا فى كتبه « بيان العلم » و « أنواع العلوم » و « الأعضاء والنفس » وسواها ، ويمكن للقارىء لكتاب احياء علوم الدين أن يرى تأثير الحكيم الترمذى يطل بين لحظة وأخرى وهو ينتقل بين أبواب كتاب الاحياء ويصحب الغزالى وهو يناقش هذه القضايا ، ويعرضها بأسلوبه العذب الشائق ٠

فاذا ما تركنا الغزالى واتجهنا الى آثار رجل مثل ابن قيم الجوزية المتوفى عام ٧٥١ هـ وبخاصة فى كتابه « الروح » نراه وهو يتحدث عن النفس ، والأفعال التى تصدر عنها والفروق بين الأعمال المشتبهة فى الظاهر ولكنها مختلفة بحسب دوافعها الداخلية فان كانت تنبعث من النفس الأمارة فهى أعمال مذمومة وان كانت تنبعث من النفس المطمئنة فهى أعمال محمودة ، ويمثل لذلك بالمداراة والمداهنة ٠

والحقيقة التى تطل من كتاب الروح أن ابن قيم الجوزية قد أخذ فكر الحكيم الترمذى عن النفس وأقسامها والفروق بين الأعمال التى تبدو متماثلة فى الظاهر ، حتى ان بعض الأمثلة الموضحة التى ضربها الحكيم الترمذى فى كتابه « الفروق ومنع الترادف » وهو يتحدث عن الفرق بين « المداراة والمداهنة » قد جاء بها ابن قيم الجوزية بنصها فى كتابه الروح وهو يتحدث عن نفس الفكرة ، ويمكن أن يقال ان ما كتبه ابن قيم الجوزية فى كتابه « الروح » من بداية المسألة الحادية والعشرين حتى آخر

الكتاب ، وقد استغرق ذلك قرابة التسعين صفحة • قد أخذه من كتاب « الفروق ومنع الترادف » وكتاب « الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب » ، للحكيم الترمذى(١) •

أما ابن عربى ، فقد عنى نفسه بالاجابة عن الأسئلة الخمسة والخمسين ومائة التى أوردها الحكيم الترمذى فى كتابه : « ختم الأولياء » وطالب من يدعى المعرفة أن يجيب عنها ، فجاء ابن عربى فأجاب عنها مرتين مرة فى كتابه الضخم « الفتوحات المكية » ومرة فى كتاب مستقل وضعه خصيصا للاجابة عن تساؤلات الحكيم الترمذى وسماه « القسطاس المستقيم فيما سأل عنه الترمذى الحكيم » ولا يزال مخطوطا حتى الآن (٢) •

ونستطيع أن نقول ونحن مطمئنون ان كل من كتب عن الولاية والأولياء بعد الحكيم الترمذى سواء أكان مؤيدا لآرائه أو معارضا لها قد تأثر برأيه واستند اليه ان كان يذهب مذهبه ، أو ناقشه ورد عليه ان كان ينازعه فيما يذهب اليه جميعه أو بعضه ، كما هو الحال بالنسبة لابن تيمية الذى ناقش رأى الحكيم الترمذى فى فكرة « ختم الأولياء » وسواها من القضايا التى تتعلق بالولاية والأولياء ، ويمكن الاطلاع على ما ذهب اليه ابن تيمية فى كتابه « الرسائل والمسائل »(٣) •

وعلى العموم فان كل من تكلم فى الولاية بعد الحكيم الترمذى قد تأثر به واقتفى خطاه ، ونرى ذلك فى كلام شيوخ التصوف المتأخرين من أمثال أبى الحسن الشاذلى وابراهيم الدسوقى وابن عطاء الله السكندرى وسواهم •

ولم يقتصر تأثير الحكيم الترمذى على الفكر الصوفى فقط ، وانما نجد جوانب من هذا التأثير فى آثار بعض المفسرين كما نرى عند القرطبى فى تفسير الآية الكريمة **« الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم »**(٤) فانه اعتمد على رأى الحكيم الترمذى فى تفسيره لهذه الآية الكريمة ونقله عنه (٥) •

---

(١) راجع كتاب الروح ص ٣٧٥ حتى آخر الكتاب طبع حيدر آباد ، وكتاب الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب (تحقيق نقولا هير) طبع القاهرة ، وكتاب الفروق ومنع الترادف مخطوط •

(٢) راجع ختم الأولياء للحكيم الترمذى تحقيق دكتور عثمان يحيى ، والفتوحات المكية جـ ٢ ، القسطاس المستقيم • مخطوط •

(٣) راجع الرسائل والمسائل جـ ١ ص ٤٣ ـ ٦٠ طبع المنار •

(٤) سورة النور الآية ٣٥ •

(٥) راجع تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ٢٦٠ طبع دار الكتب •

ثم جاء من بعد ذلك الشوكانى فأخذ عن القرطبى نفس الاتجاه فى تفسيره للآية الكريمة فى كتابه « فتح القدير »(١) •

ولا شك أن نقل مفسر كبير مثل القرطبى عن الحكيم الترمذى فى تفسير آية من آيات الكتاب الكريم يدل دلالة واضحة على المكانة السامية التى كان يحتلها الحكيم الترمذى عند واحد من أكبر مفسرى القرآن الكريم وهو القرطبى ، ويكفينا هذا العرض فى بيان تأثير الحكيم الترمذى فيمن أتى بعده من علماء الاسلام ، ولكن علينا قبل أن نترك هذا الموضوع أن نشير الى تأثير الحكيم الترمذى فى معاصريه من العلماء وطلاب العلم على السواء والذى لا شك فيه أن الحكيم الترمذى قد تأثر وأثر فى رجالات عصره ، وآية ذلك الكتب والرسائل التى تبودلت بينه وبين الشيوخ من معاصريه من أمثال محمد ابن الفضل البلخى وأبى عثمان سعيد الحيرى النيسابورى وكلاهما من زعماء الملامتية الذين يمثلون اتجاها خاصا فى التصوف الاسلامى ، وفى الآثار التى بين أيدينا رسالتان كتبهما الحكيم الترمذى الى محمد بن الفضل البلخى ردا على رسالتين كان قد كتبهما اليه ورسالة الى أبى عثمان سعيد النيسابورى ردا على كتابه اليه أيضا ، وفى هذه الرسائل الثلاث يناقش الحكيم الترمذى كلا من محمد بن الفضل البلخى وأبى عثمان سعيد النيسابورى ، ونستطيع أن نلخص الأفكار الرئيسية التى يدور الحوار حولهـا بين الحكيم وشيوخ الملامتية فى أمور ثلاثة :

الأول : الصراع بين القلب والنفس ومحاولة كل منهما السيطرة على الآخر وتوجيه القوى المختلفة فى الكيان الانسانى للعمل بمقتضى توجيهات من يفوز فى هذا الصراع •

الثانى : ان هناك نوعين من العلم : العلم بالنفس ودواهيها وعيوبها ، والعلم بالله تعالى ، ويحذر الحكيم الترمذى من الانشغال بالنوع الأول من العلم ، لأن المرء لو شغل نفسه بذلك النوع لقضى عمره كله فى الكشف عن أخطار النفس ومكرها ومحاولاتها التسلل الى القلب وقد ينقضى العمر ولا يصل الى تحقيق شىء مما يريد ، ولم يتيسر له فرصة يتعرف فيها الى نعم الله وآلائه •

أما النوع الثانى من العلم ، وهو العلم بالله تعالى ، فان فيه الدواء الناجع للمرء ، والسبيل القويمة الى الفوز بقرب الله تعالى ، ويلخص الحكيم الترمذى رأيه فى قوله : « لأن علمه به ــ بالله ــ يؤديه الى حياة قلبه ، وازهاق نفسه ، فاذا زهقت النفس بما ورد عليها من التجلى حيى القلب بربه » (٢) •

---

(١) راجع فتح القدير تفسير سورة النور ج ٣

(٢) مخطوط اسماعيل صائب ورقة ٦١ •

ويأخذ الحكيم الترمذى على زعمـاء الملامتية الانصراف الى النوع الأول من العلم ، ويرى أن ذلك حائل بينهم وبين الوصول الى الله تعالى ، ورؤية نعمه وآلائه ·

الثالث : نتيجة الاشتغال بالعلم بالله تؤدى بالمرء الى منزلة الحكمة فى الدنيا ، والحظوة فى الآخرة بأن يكون من المقربين الى المولى مع المصطفين من الأنبياء والأولياء ، ثم يلح على رأس العلم الذى هو العلـم بالله ويحذر من الانشغال بغرائب العلم الذى هو العلم بالنفس فيقول : « العلم بالله ، والمعرفة لله ، والعقل عن الله تعالى فمن حوى هذه الثلاث حيى قلبه بالله تعالى ، ونعم باله ، وطاب روحه ، وصحت عبودته ، وظفر بالحرية من رق نفسه ، وعلت رتبته ، وبرزت منزلته ، وساد أشكاله ، وكرم على مولاه » ·

وفى رسالته لمحمد بن الفضل يشرح له باستفاضة خطر الانصراف الى معرفة النفس والانشغال بها عن اللجوء الى الله والفزع اليه أن ينجيه من دواهيها(١) ·

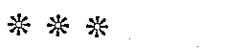
الجانب الآخر من تأثير الحكيم الترمذى فى أبناء عصره يتمثل فى الرسائل والمسائل التى كانت تأتيه من جهات عدة تسأله البيان والكشف عن بعض القضايا التى تشغل أذهانهم ويلتمسون لها حلا ، ومن ذلك ما نراه فى آثار الحكيم الترمذى من مجموعة من المسائل سماها « مسائل أهل سرخس » ومنها « جواب كتاب من الرى » وجواب كتاب من الرى يعالج قضية هامة من قضايا الفكر الصوفى ، وهى طريقة الوصول الى الله ·· هل يحتاج السالك فى وصوله الى الله الى شيخ يبصره الطريق ويسدد خطاه ؟ ، أم أنه ليس بحاجة الى ذلك الشيخ وانما المعول على جهاده واخلاصه وعبادته ، يذهب شيوخ التصوف قاطبة الى ضرورة الشيخ ليأخذ بيد السالك يجنبه المزالق ويؤدبه بأدب الطريق ، وقد أثر عنهم تلك العبارة المشهورة : « من لا شيخ له فشيخه الشيطان » ، الا أن الحكيم الترمذى يقف على الجانب الآخر ويرى أن الوصول الى الله وسيلته الاجتهاد فى العبادة والاخلاص فى الاقبال على الله والتوبة ، وقد عالج هذه القضية بوضوح وجلاء فى رده على « جواب كتاب من الرى » الذى يشكو له كاتبه فيه أنه وصل الى منزلة لا يعمل شيئا الا باذن ثم صحب شيخا رجا أن تزداد منزلته على يديه ، ولكنه وجد نفسه وقد فقد ما وصل اليه من قبل ، ويسأل الحكيم الرأى فيجيبه فى اختصار ووضوح شديدين : « هكذا يكون شأن من يطلب الخالق بالمخلوق » ·

---

(١) راجع رسالة الى محمد بن الفضل مخطوط ليبزج ورقة ٦٧ (ا) ، ٦٩ (ب) ·

ثم يرسم له طريق الصادقين فى الوصول الى الله تعالى فيقول : « الصادق فى الطريق يطلب ربه به لا بشىء سواه » ثم يكشف له عن الوسائل التى يأخذ بها فيقول : « فمن شأنك الآن استقبال الأمر والتوبة من الحدث الذى أحدثت ، وتسليم النفس الى الله تعالى مبتدئا ، والتبرى من الحول والقوة ، والتضرع الى الله تعالى فى الاقالة تخرج من حيرتك ان شاء الله تعالى ، فتطهر ، وصل ركعتين فى براز من الأرض ، وتب الى الله تعالى من الحدث الذى أحدثت فى تركك طريقك ، واقبالك على مخلوق مثلك ، واجعل هذا رأس أمرك ، فان النفس تحتاج الى مثل هذا ، حتى تعلم النفس استقبال الأمر ، ثم خذ بزمام جملك ، فقده الى الله تعالى قودا رقيقا بلطف ، ولا تعرج يمينا ولا شمالا ، حتى تبلغ المنزل ، ولو امتدت بك المدة الى وصول المنزل الى آخر رمق من الحياة ، فلا تتحير ، ولا تلتفت ، فان بعد أجلك ، وقد وصلت الى المنزل فطوباك » .

لقد جرنا الحديث عن تأثير الحكيم الترمذى أن نستشهد لما قلناه ببعض آثاره ، ولئن أفضنا فى بيان هذا التأثير بعض الشىء فنرجو أن لا يفوتنا هنا الاشارة الى وجود فرقة من فرق الصوفية تسمى الحكيمية نسبة الى الحكيم وهى تقوم على اقتفاء خطاه فيما أرساه من أفكار فى عرضه لقضية الولاية ، وهذه الفرقة وان لم تكن معروفة لنا الآن فان الهجويرى قد ذكرها فى كتابه « كشف المحجوب » وتحدث عن مبادئها التى تعتنقها(١) .



---

(١) راجع كشف المحجوب للهجويرى ترجمة دكتورة سعاد عبد الهادى قنديل نشر المجلس الأعلى جـ ٢ ص ٤٧٩ .

وصف المخطوط

كتاب المسائل المكنونة مجموعة من المسائل والرسائل تتناول موضوعات مختلفة من تفسير وحديث وفقه وتوحيد وتصوف ، وان كان الجانب الصوفى يستغرق معظمها ، وتسود المسحة الصوفية معالجته للموضوعات الأخرى التى تتضمنها مجموعة الرسائل والمسائل ·

ويعالج الحكيم الترمذى فى هذه المجموعة كثيرا من الأفكار التى تناولها فى كتبه المختلفة ، وألح فى التركيز عليها وايضاح مفاهيمها مثل : الولاية ، والمعرفة ، والصراع بين القلب والنفس · وما يتصل بهذه الموضوعات ·

وليس هناك رابط يجمع تلك المسائل فى سياق واحد ، لأنها لم تكتب على أنها كتاب يعالج فكرة واحدة ، بل هى خواطر فاض بها وجدان الحكيم فى معرض الاجابة عن أسئلة كانت تلقى اليه من حين لآخر ، أو هى علاج مشكلة فكرية أو وجدانية كان يعرضها على بساط البحث تلاميذه ومريدوه فى مجالسه المتعددة ·

ويتراوح مقدار هذه الرسائل بين الطول والقصر ، فقد يستغرق بعضها قرابة عشر ورقات ، وقد لا يشغل البعض الآخر أكثر من أسطر تعد على أصابع اليد الواحدة ، وبعض هذه الرسائل له عنوان فى صلب المخطوط ، وبعضها غفل من العنوان ·

نسخ المخطوط :

ويوجد من هذا الكتاب نسختان ، كل منهما جزء من مجموع يحوى رسائل أو كتبا أخرى للحكيم الترمذى ·

وتوجد النسخة الأولى فى صدر مجموعة ليبزج ، وتستغرق من أول المجموع حتى الورقة ٥٤ ـ ألف ـ والعنوان مسجل فى أعلى الورقة الأولى هكذا « كتاب المسائل المكنونة » وهو بخط الناسخ نفسه ، غير أن ورقة الغلاف يوجد بها عنوان آخر هو « الدر المكنون فى أسئلة ما كان وما يكون » وهو بخط الناسخ الأصلى أيضا ، ويبدو أن العنوان المكتوب على الغلاف هو عنوان وضعه الناسخ للمجموع كله وليس من تسمية الحكيم الترمذى لأنه لم يشر اليه فى أى مكان من كتبه على كثرة ما يشير الى مؤلفاته فى أماكن متعددة ·

ويحتوى مجموع ليبزج هذا طائفة من المسائل تربو على مائة وثلاثين مسألة ، وقد تم نسخه فى السادس من شهر ربيع الأول عام ٦١١ هـ بيد محمد

ابن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أبى جراد كما هو مدون فى الورقة رقم ٢٢٥ آخر المجموع ومسطرته ١٩ سطرا وبكل سطر ١٢ كلمة ٠

والمخطوط مكتوب بخط الرقعة الواضح الجميل ، ويبدو أن الناسخ كان من المشهورين بجودة الخط وكان من المولعين بآثار الحكيم الترمذى وكتابتها لأننا سنجد فى الآثار التى عثرنا عليها للحكيم الترمذى أربع مجموعات كلها بخطه وهى مجموع ليبزج الذى نتحدث عنه ويقع تحت رقم ٢١٢ س ومجموع بلدية الاسكندرية الذى يشتمل على النسخة الثانية من المسائل المكنونة ويقع تحت رقم ١٤٥ تصوف ٠

ونسخة من كتاب الفروق بمكتبة بلدية الاسكندرية أيضا تحت رقم ٣٣ فقه شافعى ٠

ونسخة من كتاب الفروق أيضا بمكتبة وحيد باشا بتركيا تحت رقم ٢٢٥٢ ٠

وان دل هذا على شىء فانما يدل على الاهتمام البالغ للناسخ بآثار الحكيم الترمذى ، ولم يكن محمد بن هبة الله بن أبى جراد ناسخا عاديا يتخذ نسخ الكتب حرفة له ، وانما كان أحد العلماء والزهاد الذين تولوا الخطابة فى جامع حلب ، وامتنع عن تولى القضاء من باب الورع والزهد وقد كتب عنه صاحب معجم الأدباء فقال : وهو من بيت علم وقضاء وخطابة ، وكان قد تولى الخطابة فى جامع حلب ، وعرض عليه القضاء فامتنع ، وهو أحد الأولياء العباد ، وأرباب الرياضة والاجتهاد ، عامل ، كثير الصوم والصلاة ، كتب بخطه الكثير ، وشغف بتصانيف أبى عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى ، فجمع معظم تصانيفه عنده ، وكتب بعضها بخطه ، وكتب من كتب الزهد والرقائق والمصاحف كثيرا ، وكان خطه فى صباه على طريقة ابن البواب القديمة ، ووهب لأهله مصاحف بخطه ، وكان اذا اعتكف فى شهر رمضان كتب مصحفا أو مصحفين ، وجمع براوات الأقلام ، فيكتب بها تعاويذ للحمى وعسر الولادة فيعرف بركتها ٠

وكان مولده سنة أربعين وخمسمائة ، وقد سمع أباه وعمه أبا المجد عبد الله وغيرهما ٠

وروى الحديث ، وتفقه على العلاء الغزنوى ، واجتمع بجماعة من الأولياء ، وكوشف بأشياء مشهورة ٠

وكان معاصرا لياقوت صاحب معجم الأدباء حتى انه كان حيا لما كتب هذه النبذة التى نقلنا خلاصة لها ٠ وحيث قال : « انه الآن يحيا » ، وكان ذلك فى محرم عام ٦٢٠ هـ ١٠ هـ ٠ بتصرف(١) ٠

---

(١) راجع معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ نشر الرفاعى ٠

وتوجد النسخة الثانية من المسائل المكنونة فى مكتبة بلدية الاسكندرية ، فى مجموع تحت رقم ١٤٥ تصوف ، وتقع المسائل المكنونة فى أول المجموع ويوجد معها فى المجموع كتابان آخران للحكيم الترمذى هما « تحصيل نظائر القرآن » وقد نشر هذا الكتاب بمعرفة الأستاذ حسنى زيدان عام ١٩٦٥ م و « الرد على المعطلة » ٠

وقد نسخ هذا المجموع أيضا محمد بن هبة الله بن أبى جراد فى السابع عشر من شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة هجرية (٥٩٣ هـ) ٠ وهذا يعنى أنه نسخ قبل مجموع ليبزج بثمانية عشر عاما وهو مكتوب بخط الرقعة الا أن مجموع ليبزج أكثر وضوحا منه ، ومسطرة هذه النسخة ٢١ سطرا فى كل صفحة وبكل سطر ١١ كلمة ، ويشتمل كتاب المسائل المكنونة على ست وستين مسألة تنقل فيها بين التصوف والتفسير والحديث وعلم الكلام مما يدل دلالة قاطعة على اتساع ثقافة الرجل ، ومكانته الفكرية بين معاصريه ممن راسلوه وناقشوه وكتبوا اليه مستوضحين أو مناظرين ٠

ولعل كثيرين من الباحثين يودون أن نزود هذه الدراسة بقائمة تنتظم آثار الحكيم الترمذى وأماكن وجودها فى مكتبات العالم ٠٠ وقد فكرت فى هذا الأمر طويلا ، ثم وجدت أن هذا سيكون تكرارا لا مبرر له لأنى قدمت هذه القائمة فى الكتب التى أخرجتها للحكيم الترمذى قبل ذلك ٠

والله يتولانا برعايته وتوفيقه ٠٠٠

جمادى الآخرة سنة ١٤٠٠ هـ
ابريل سنة ١٩٨٠ م

د ٠ محمد ابراهيم الجيوشى


المسائل المكنونة
تأليف
أبي عبد الله محمد بن علي الترمذي الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ــ جهــد النفس وجهد القلب

قال أبو عبد الله محمد بن على الحكيم (الترمذى رحمة الله عليه)[١] :

جهد النفس حجاب المنة ، وجهد القلب هتك حجاب المنة .

قال له قائل : وكيف تحجب المنة جهد النفس ؟

قال : لأن النفس تتبجح بجهدها ، وتتزين للخالق به ، وتباهى الأشكال من العمال ، والقلب يجأر الى الله بجهده مستغيثا ، ويرمى الى الله ذاته ، ويلتمس وليجة عنده ، لتصير تلك الوليجة له مأمنا من آفات النفس : من الاعجاب ، والفرح ، والاتكال على الجهد ، فمخاوفه منها[٢] وأحزانه ، وقطعه عقاب الخواطر هتك الحجب الى منة المنان . حتى يشرق فى قلبه[٣] نور اسمه المنان ، وهو نور الرأفة ، فهناك قد انهتكت الحجب عن قلبه ، (وولج[٤] حجاب) الرأفة الى الرؤوف المنان ، وأى حجاب أكثف من حجاب الجهد اذا مدت النفس عينها الى جهدها ، وأى حجاب أورد بالغفلة عن الله على صاحبها من حجاب العجب . فمتى يسلم من كان لحاظا الى جهد نفسه حتى لا تفرح[٥] به وتستكثر من الجهد ، وتنظر اليه بعين الاعجاب حتى يصير مدلا على الله[٦] بعمله .

أولا : يعتبر بحديث ذلك العابد الذى عبد الله على رأس ذلك

---

(١) ما بين القوسين ساقط من نسخة الاسكندرية .

(٢) كلمة « منها » ساقطة من نسخة الاسكندرية .

(٣) نسخة ليبزج « فى صدره » .

(٤) نسخة الاسكندرية « ووجد الرأفة » .

(٥) تفرح ، وتستكثر ، وتنظر جاءت جميعها فى نسخة الاسكندرية بياء المضارعة .

(٦) فى نسخة الاسكندرية « على مولاه » .

الجبل فى وسط(٧) البحر ، فهل يقدر أحد أن يبلغ ذلك الجهد الذى تكلفه ذلك العابد ؟ فانظر ماذا يحل به يوم القيامة ؟

حدثنا بذلك أحمد بن مرة(٨) قال : حدثنا عبد الله بن صالح(٩) كاتب الليث قال : حدثنى سليمان بن هرم(١٠) فى مجلس الليث بن سعد عن محمد بن المنكدر(١١) عن جابر بن عبد الله(١٢) قال : خرج الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : خرج من عندى خليلى جبريل ، (عليه السلام)(١٣) آنفا ، فقال لى : يا محمد ، والذى بعثنى بالحق ، ان لله لعبدا(١٤) من عباده عبد الله خمسمائة على رأس جبل فى البحر عرضه وطوله ثلاثون ذراعا فى ثلاثين ذراعا ، والبحر محيط به أربعة آلاف فرسخ من كل ناحية ، أخرج الله له عينا عذبة بعرض الاصبع تبض بماء عذب فيستنقع(١٥) فى أسفل ذلك الجبل ، وشجرة رمانة ، تخرج له كل ليلة رمانة فتغذيه يوما فاذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء ، وأخذ تلك الرمانة فأكلها ، ثم قام لصلاته ، فسأل ربه عند وقت الأجل أن يقبضه ساجدا ، وأن لا يجعل للأرض ولا لشىء عليه سبيلا حتى يبعثه الله ساجدا ففعل ، فنحن نمر به اذا هبطنا ، واذا عرجنا ،

(٧) نسخة الاسكندرية « على جانب البحر » .

(٨) لم أهتد الى ترجمة له فيما بين يدى من مراجع .

(٩) هو عبد الله بن صالح بن محمد بن مسلم الجهنى مولاهم أبو صالح المصرى كاتب الليث ، واختلف فى مكانته فى الحديث فبعضهم يوثقه وبعضهم يوهنه وتوفى سنة ٢٢٢ هـ تهذيب جـ ٥ ص ٢٥٦ ـ ٢٦١ .

(١٠) قال عنه الأزدى : لا يصح حديثه ، وقال العقيلى : انه مجهول تفرد بحديث العابد والرمانة . راجع لسان الميزان جـ ٣ ص ١٠٨ ، ١٠٩ ـ المغنى جـ ١ ص ٢٨٤ .

(١١) الزاهد الحافظ القانت محمد بن المنكدر التيمى المدنى كان ثقة ورعا حجة عابدا يكثر الاسناد عن جابر اختلف فى وفاته بين ١٣٠ / ١٣١ هـ عن ست وسبعين سنة . تهذيب جـ ٩ ص ٣٧٣ ـ ٣٧٥ . العبر جـ ١ ص ١٧٠.

(١٢) جابر بن عبد الله الأنصارى ، كان كثير العلم ، صاحب رسول الله من أهل بيعة الرضوان عاش أربعا وتسعين سنة ، وهو آخر من مات من أهل العقبة توفى سنة ٧٨ هـ ـ العبر جـ ١ ص ٨٩ ـ أسد الغابة جـ ١ ص ٣٠٧

(١٣) ما بين القوسين ساقط من نسخة الاسكندرية .

(١٤) فى النسختين « لعبد » .

(١٥) فى نسخة الاسكندرية « فتستنقع » .

ونجده فى العلم أنه يبعث يوم القيامة ، فيوقف بين يدى الله تبارك اسمه فيقول له الرب : أدخلوا عبدى الجنة برحمتى ، فيقول : بل بعملى ، يا رب ، فيقول للملائكة قايسوا عبدى بنعمتى عليه وبعمله ، فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة[١٦] خمسمائة سنة ، وبقيت نعم الجسد فضلا عليه ، فيقول : أدخلوا عبدى النار ، فينادى : يارب برحمتك أدخلنى الجنة ، فيقول : ردوه ، فيوقف بين يديه ، فيقول : يا عبدى ، من خلقك ولم تك شيئا ؟ فيقول : أنت يا رب ، فيقول : أفكان ذلك من قبلك أم برحمتى ؟ فيقول : بل برحمتك . فيقول : من قواك لعبادة خمسمائة سنة ؟ فيقول : أنت يا رب ، فيقول : من أنزلك فى جبل وسط اللجة ، وأخرج لك الماء العذب من الماء المالح ، وأخرج لك كل ليلة رمانة ، وانما تخرج الشجرة فى السنة مرة ، وسألتنى أن أقبضك ساجدا ، ففعلت ذلك بك ؟ فيقول : أنت يا رب .

فيقول : فذلك برحمتى ، وبرحمتى أدخلك الجنة ، أدخلوا عبدى الجنة برحمتى ، فنعم العبد كنت يا عبدى ، وانما الأشياء برحمة الله[١٧] .

فنظره بمد العين الى عمله أداه الى هذا الحال حتى سقط عند الله من درجة المقربين حتى أمر به الى النار ، ثم بعد الاعتراف فى الموقف عاد عليه بفضله[١٨] ، ورحمته ، فبرحمته نجا ، وبفضله نال داره .

حدثنا أبى رحمه الله تعالى[١٩] (عن قبيصة[٢٠] عن سفيان[٢١])[٢٢]

---

(١٦) فى نسخة الاسكندرية « بعبادته » .

(١٧) جاء فى ميزان الاعتدال هذا الحديث فى ترجمة سليمان بن هرم وقال : انه لا يصح جـ ١ ص ٤٢٥

(١٨) فى نسخة الاسكندرية « عاد عليه بفضله وجوده » .

(١٩) زيادة من نسخة الاسكندرية .

(٢٠) قبيصة بن عقبة السوائى الكوفى العابد أحد الحفاظ ، كان يقال له زاهد أهل الكوفة ، كان ثقة صدوقا كثير الحديث توفى سنة ٢١٥ هـ العبر فى خبر من غبر جـ ١ ص ٣٦٨ — تهذيب التهذيب جـ ٨ ص ٣٤٧ — ٣٤٩ .

(٢١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى شيخ الاسلام ، سيد الحفاظ سيد أهل زمانه علما وعملا كان ثقة مأمونا عابدا ثبتا ولد بالكوفة سنة ٩٧ مات بالبصرة سنة ١٦١ هـ — تهذيب التهذيب جـ ٤ ص ١١١ — ١١٥ — العبر فى خبر من غبر جـ ١ ص ٢٣٥ — تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٩١ .

(٢٢) ما بين القوسين ساقط من نسخة الاسكندرية .

عن رجل من(٢٣) أهل صنعاء عن وهب بن منبه(٢٤) قال : مر رجل على راهب فقال : يا راهب ، كيف ذكرك للموت ؟

قال : ما أرفع قدما ولا أضع أخرى الا ذابت •

قال : فكيف دأب نشاطك ؟

قال : ما كنت أرى أن أحدا يذكر الجنة والنار يأتى عليه ساعة لا يصلى فيها •

فقال الرجل : انى لأبكى فى سجودى حتى ينبت البقل من دموعى •

فقال له الراهب : انك ان تضحك وأنت معترف لله بخطيئتك خير لك من أن تبكى ، وأنت مدل بعملك ، ان صلاة المدل لا تصعد فوقـــه •

فقال له الرجل : أوصنى •

قال : ازهد فى الدنيا لا تنازعها أهلها ، وكن فيها كالنحلة ان أكلت أكلت طيبا ، وان وضعت وضعت طيبا ، وان وقعت على عود لم تكسره ، ولم تضره ، وانصح لله كنصح الكلب لأهله ، فانهم يضربونه ويطردونه ويجيعونه ، ويأبى الا أن يحيط بهم نصحا •

وان جهد النفس صاحبه فى لذة ونزهة ، تلك نزهة الصدق ، فاذا ترك الجهد ، وقعد خاليا صارت النفس كأنها مسجونة ، لأنها كانت ترتع فى نسيم أعمال البر ، فلما قعد صاحبها عن جميع أعمال البر سوى الفرائض واجتناب المحارم ، وقال للنفس : ما ســوى الفرائض واجتناب المحارم فانه لا سبيل لك أيتها النفس اليهــا ، فقعد مراقبــا لخواطر النفس على القلب لئلا تخدعه ، فتلقيه فى المحارم ، فقعوده مراقبا حارسا للنفس سجن لها ، فهى تدعوك الى النوافل لتفرح بالتقلب فيها ، وتشارك القلب فى ذلك حتى تدس فيها

---

(٢٣) فى نسخة الاسكندرية زيادة « عن رجل » •

(٢٤) أبو عبد الله وهب بن منبه العلامة الصنعانى كان شديد العناية بكتب الأولين وأخبار الأمم وقصصهم ، وكان يشبه كعب الأحبار فى زمانه ، تابعى ثقة ، كان على قضاء صنعاء وأصل أبيه من خراسان من أهل هراة ، أخرجه كسرى الى اليمن ، توفى وهب بن منبه سنة ١١٠ أو ١١٤ هـ — العبر جـ ١ ص ١٤٣ — تهذيب التهذيب جـ ١١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ •

شهواتها وهواها ، وقد كمنت لافتراصها لعلها بمشاركتها اياه فى أعمال البر تجد فرصة فتأخذ بعنقه ، وتسبى قلبه فتذهب به الى شهوة قد كمنتها فى ذاتها .

فالبصير قد عرف هذا منها ومكرها ودواهيها ، فقال : انى أريد أن أصدق الله فى العبودة.فأكون له عبدا قد أسلمت نفسى له صدقا . فالفرائض وان شاركتنى فيها بالشهوة والهوى فلا سبيل الى تركها ، فأما النوافل فقد شاركتنى فيهـــا بالهوى والشهوة وهى أشياء لم أقتض ولم أطالب بها ، انما طولبت بالصدق والوفاء لله فى العبودة ، فلا أحب أن يرفع لى الى الله شىء لم يكتب على مع التخليط والهوى ونصيب النفس ، فتحيرت النفس ولم يبق لها حجة ، فصار هذا سجنا لها أن قعدت معطلة عن تنسم طلبتها وتلذذها بأعمال البر من النوافل ، فمن تلكأ فى هذا الأمر ، ومال الى الجهد فى مسيره الى الله ، فانما تهرب نفسه من السجن ، وأحزانها وضنكها لا تجد فرجة تنفرج بها ، والأحزان والضنك يؤديانه الى الله ان لو عقل ، لأن ذلك مما يميت النفس ، وبموت النفس يصل الى الله ان لو عقلت لأنها هى التى حجبتك عن الله ، وأقصتك عن قربه بأدناسها ، وخدائعها واعراضها عن الله ، ولهوها ولعبها وجمعها حتى أسقطت جاهك عن الله ، وأخلقت وجهك عنده .

قال له قائل : فاذا قعد هكذا ، فما عمله ؟

قال : عمله تبديل الأخلاق السيئة أخلاقا حسنة . وترك مشيئاته لمشيئة الله حتى ينقاد لحكم الله تذللا وعبودة ، ويموت منه الكبر ، فتلك رياضة النفس وتأديبها حتى تصلح لاقبال الله عليه أديبا أريبا ، عالمـــا بالله ، عالمـــا بتدبيره ، فعندها يفتح له من علومه ما ينال به ملك الدين .

قال له قائل : وما ملك الدين ؟

قال : اذا وصل هذا القلب الى الله ، وصار الى المراتب وتبين مجنسه من مجالس النجوى فاذا رجع من عنده رجع بعهد الولاية فهو أمير الدين وله ملك الدين ، وآخر نحوله(٢٥) يكون لواؤه .

* * *

---

(٢٥) نحوله : يعنى عطاياه .

٢ ـ أصحاب الفقه وأهل الحديث

قال له قائل : نرى صنفين فى هذا الدين : صنف[1] ينتحلون الفقه وعلم الرأى ، وصنف ينتحلون الحـديث ، ونلاحظهما فنرى أصحاب الرأى أكثر تهافتا وزللا ، وأقسى قلبا ، وأخشن جانبا ، وأكثر تناطحا وتحاسدا من أهل الحديث ، فمن أين هذا ؟

قال : ان هذه الشهوات فى النفوس عاملة ، وللقلوب عن الله شاغلة ، وللأرواح مثقلة ، فهى محتاجة الى الوعظ ، وان[2] أصحاب الرأى من لدن أن بدأ أحدهم فى تعلمه الى أن يفارق الدنيا انما يجرى على سمعه خدائع الناس ومخاتلاتهم ، وجناياتهم بعض على بعض ، فهم الشهر والدهر فى ذكر تلك الأشياء ، كيف يردونها الى الأصول التى فى أيديهم من عدل الله وحكمه ، فانظر فى علمهم الذى قيدوه فى كتبهم من علوم الأحكام أحسبه يقع فى أكثر من ألف جلد لأبى حنيفة رحمه الله وأمالى أبى يوسف ، وكتب زفر وأسد واللؤلؤى ومحمد ابن الحسن ، فهل ترى فى شىء منها ذكر المعاد وصفة الجنة والنار وصفة الموت والبرزخ ، وما فيه من الأهوال وصفة القيامة وأهوال الموقف وشدة الحساب وقطع مسافة النار على دقة الصراط ، ووزن الأعمال ، وصفة خوف الخائفين وشوق المشتاقين وخشية العلمـاء بالله ، وصفة المتقين والورعين وصفة الزاهدين والراغبين ومنـازل الدين ومكايد النفس والعدو والهوى ، وصفة الأكياس والمغترين ، وحكمة القرآن ولطائفه وبواطنه وعجائبه ، ومحاسن أخلاق الكرام فى الدين وأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسـلم وشمائله وأخلاق أصحابه ، وسيرتهم من بعده وجدهم واجتهادهم وصدقهم ووفائهم وبذلهم نفوسهم لله ، وأخبـار الأمم السـالفة ، وما أعطيت الأمم وما فضلت به هذه الأمة ، وذكر منن الله واحسانه والنظر فى تدبير الله وعجائبه وغرور الدنيا وزينتها ، وأخبار بنى اسرائيل ، وعجائب كتبهم المنزلة عليهم ، وعقبى أمورهم كيف عاملوا وكيف عوملوا ، وبماذا حبينا من الكرامات .

---

(١) ساقط من نسخة « ليبزج » .

(٢) ساقط من نسخة « ليبزج » .

فأهل الرأى خلو من هذا العلم كله ، انما استماعهم بالآذان ، وفكرهم بالقلوب فى خصومات النفوس وشرهم ومكرهم وخـداعهم وأحداثهم ، وخياناتهم ، ما يوجب الحكم عليهم فى ذلك وما يحل لهم وما يحرم عليهم ، فاذا علموا هذا نظروا الى حاجة الناس اليهم فى ذلك . واضطرارهم اليهم ليلا ونهارا خضوعا لهم وانقيـادا لأمرهم وتعظيما لهم ، ولم يجر على أسماعهم ما يجرى على أسـماع أهل الحديث مما ذكرنا من هذه العلوم .

فرحت نفوسهم بما أوتوا من العلم ، وبطرت بما نالت من العلو والتعظيم فتلظت شهوات نفوسهم كالحريق فى أجوافهم ، وانتفـخ الكبر فى صدورهم ، حتى صير أحدهم عند نفسه كجبل شامخ ذاهبا بنفسه ، وهاج الحرص والحسد ، فتنافسوا وتناطحوا على العـز والرياسة شحا وأسفا على فوتها حتى أداهم ذلك الى مشاركة الملوك فى ملكهم ، فصدقوهم بكذبهم ، وأعانوهم على ظلمهم ، وزينوا لهم سوء فعالهم ، وهدوهم من الشر الى[٣] مالم يهتدوا اليه ، وفيهم نزلت : « **واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للنـاس ، ولا تكتمونه** »[٤] ، روى ابن المبارك[٥] عن أفلح بن سعيد[٦] قال : سمعت محمد بن كعب القرظى[٧] يقول : « ان ملوك بنى اسرائيل لما بدلوا حكم الله خافوا الرعية أن تغير عليهم ، فابتغوا من يجمل أمورهم عند العامة ، فدعوا علماءهم فأكرموهم وأعطوهم ، فقبلت العامة منهم ، فأنزل الله هذه يعظهم بها ، قوله : « **واذ أخـذ الله ميثـاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للنـاس ولا تكتمونه ، فنبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا ، فبئس ما يشترون** »[٤] . أى كتموا الحق ،

---

(٣) ساقط من نسخة الاسكندرية .　　(٤) آل عمران : ١٨٧

(٥) الامام الحافظ العلامة شيخ الاسلام كان له تجارة واسعة ينفق منها على الفقراء وكان يغزو سنة ويحج سنة ، كان رأسا فى الذكاء والشجاعة والجهاد والكرم أخبار علمه وزهده مشهورة ، توفى فى رمضان سنة ١٨١ هـ العبر جـ ١ ص ٢٨٠ ـ تذكرة جـ ١ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٧ .

(٦) أفلح بن سعيد الأنصارى المدنى ، أخذ عنه ابن المبارك شيخ صالح ثقة توفى سنة ١٥٦ هـ راجع تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ ـ وفى العبر أنه توفى سنة ١٥٨ وسماه أفلح بن حميد جـ ١ ص ٢٢٨ وهو شخص آخر .

(٧) تابعى من أهل المدينة كان ثقة ورعا عالمـا بتأويل القرآن وكان يقص . اختلف فى وفاته بين ١١٧ و ١٢٠ هـ ـ تهذيب جـ ٩ ص ٤٢٠ ـ ٤٢٢ .

وقبلوا من الملوك ، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فوعدهم العذاب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه : « يأتى على الناس زمان لا يبقى من القرآن الا رسمه ولا من الاسلام الا اسمه ، قلوبهم خربة من الهدى ، ومساجدهم عامرة من أبدانهم شر من تظل السماء يومئذ علماؤهم منهم تخرج الفتنة وعليهم تعود »[٨] .

فنظرنا الى هؤلاء المتفقهة تكلفا فوجدناهم انما أوتوا من أن الأسماع خلت عن أن يجرى عليها ذكر المعاد وذكر ماله خلقوا ، والأشياء التى ذكرنا بديا من علم عظمة الله وربوبيته وعلم التدبير والمنن والاحسان ، وعلم دواهى النفس ومكايد العدو وعلم الصدق والصفاء والاخلاص عبودة .

وخلت القلوب من الفكر فيها حتى تشتمل عليها أحزان العقبى فتذهل النفس عن دواهيها والعدو عن مكايدها فاستبدلت القلوب بذلك فرحا والنفوس بطرا والأركان بطالة وشبقا تتلمس أفراحها ، وتذوق طعمها ، وشيكا يعود عليه عويلها ومرارتها اذا رماها عزرائيل بسهم مسموم من سهام المنايا فلم يخطه فقطع وتينه ورمى بجثته الى أطباق التراب وجنادل الأرض وهوام اللحود .

وأهل الحديث كثر تردد هذه الأخبار على أسماعهم فخلصت الى النفوس منهم شاءت أو أبت ، فذللتها وقمعتها وان لم يتصدوا لها غرئى أثر ذلك وبركته عليهم .



(٨) أخرجه الامام أحمد فى مسنده ، وعبد الرزاق فى مصنفه وابن حميد فى مسنده عن أبى يعلى رضى الله عنه بسنده عن أبى بكرة رضى الله عنه .

٣ ـ الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة

قوله (عز وجل)[1] : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** »[2] .. فالدعاء بالحكمة أن يدعوهم بلا علاقة ، والعلاقة أن يدعوهم مقتدرا على أن يقبلوه ، فالله بعث الرسل ليبلغوا وليبشروا وينذروا ويهدوا الطريق الى الله ، ولم يسلطهم على قلوبهم حتى يقبلوا ، وانما أمروا بالبلاغ والهداية قولا ، والقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء . فمن اهتدى بتبليغ الرسل فبهدى الله اهتدى ، ومن لم يهتد فبضلالته ، والله يهـدى من يشاء ويضل من يشاء ، وقال فى تنزيله : « **أن تحرص على هداهم فان الله لا يهدى من يضل** »[3] ، وروى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بعثت داعيا ومعلما وليس الى من الهدى شىء وخلق ابليس مزينا وليس له من الضلالة شىء »[4] . حدثنا بذلك عيسى بن أحمد العسقلانى[5] قال : حدثنا اسحاق بن الفرات المصرى[6] ، قال : أخبرنا خالد بن عبد الرحمن أبو الهيثم[7] عن سماك بن حرب[8] عن طارق بن شهاب[9] عن عمر

---

(١) ما بين القوسين ساقط من ليبزج .

(٢) النحل : ١٢٥ (٣) النحل : ٣٧

(٤) رمز اليه السيوطى بالضعف ، وقال : ان العقيلى رواه فى الضعفاء وابن عدى فى الكامل ـ الجامع الصغير جـ ١ ص ٣١٥ .

(٥) بغدادى نزل عسقلان كان ثقة كبيرا فى العلماء ولد ببغداد سنة ١٨٠ هـ توفى بعسقلان سنة ٢٦٨ هـ ـ العبر جـ ٢ ص ٣٨ ، تهذيب جـ ٨ ص ٢٠٥ .

(٦) قاضى ديار مصر ، صاحب مالك لقى أبا يوسف وأخذ عنه وكان يتميز فى الأحكام أثنى عليه الشافعى ولد سنة ١٣٥ هـ وتوفى سنة ٢٠٤ هـ ـ العبر جـ ١ ص ٣٤٤ ، تهذيب جـ ١ ص ٢٤٦ .

(٧) العبدى العطار الكوفى ، وصفوه بالضعف ولم يذكر صاحب التهذيب وفاته ـ تهذيب جـ ٣ ص ١٠٤ .

(٨) روى عن كثير من الصحابة من كبار تابعى أهل الكوفة وهو صدوق لا بأس به كان فصيحا عالمـا بالشعر وأيام الناس توفى سنة ١٢٣ تهذيب جـ ٤ ص ٢٣٣ .

(٩) رأى النبى صلى الله عليه وسلم وروى عنه مرسلا ، من أصحاب عبد الله وهو ثقة مات سنة ٨٢ أو ٨٣ هـ أو ٨٤ هـ تهذيب جـ ٥ ص ٤ .

ابن الخطاب[١٠] (رضى الله عنه)[١١] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم • فهذا هدى الربوبية وضلالة الربوبية ليس واحد منهما يملكه الا الله فأما الهدى والضلالة التى هى من الخلق ، وبأيديهم فهو هدى القول والاشارات ، وضلالة القول والاشارات بالحق عن الطريق •

فالدعاء بالحكمة أن يدعو الخلق الى سبيل الله ، وهو ناظر الى ربه أين يمكن قوله وأين يضع من القلوب المستمعة ويسلم ذلك كله الى الله ولا يقدر • وان ربنا يعطى العباد ما يعطى ويمنع ما يمنع بالحكمة لا بالجزاف فكما كان ذلك منه كذلك ، فكذلك يقتضى الرسول أن يدعو بالحكمة فينظر الى حكمة ربه هل يعطى العبد التوفيق والاذن فيما أتى به الرسول أم لا •

وأما الموعظة الحسنة ، فالوعظ الاثارة ، وذلك أن للعبد جسدا[١٢] قد ركب فيه الروح والذهن والعقل والعلم والحفظ والكيس ، فهذه جنود الروح ، فاذا ذكر المذكر كانت تذكرته اثارة ، لهذه الأشياء ، لأن هذه الاشياء كلها كانت حية بحياة القلب ، وللموحد بحياة المعرفة ، فاذا تداولتها الشهوات واستعملتها صارت مواتا ، فكلما امتهنتها شهوة ولذة ذبل كل واحد من هذه الأشياء على حياله واسترخى وضعف ، وصار كجمرة علاها الرماد فذهبت انارتها وتلظيها ، فاذا خلص الذكر اليها كان بمنزلة الكير ينفخ على هذا الجمر حتى يطير عنه الرماد • فيتوقد ويضىء البيت ، فكذلك القلب والصدر يثير هذا المذكر بتذكرته هذه الأشياء التى صارت فيه نياما أو مواتا ، فاستيقظت عن[١٣] منامها وحييت بعد موتها • فانما قيل وعظ ، أى أثار تلك الأشياء عن نومها حتى تنبهت وقويت واشتدت ، والنعظ هو ثوران الشهوة من النفس حتى تنتشر معناها[١٤] ، والوعظ ثوران هذه الأشياء التى وصفنا •

* * *

(١٠) أمير المؤمنين أبو حفص الخليفة الثانى قال عنه النبى : « ضرب الحق على لسان عمر ، وان يكن فى أمتى محدثون فعمر » • مات شهيدا قتله أبو لؤلؤة المجوسى وهو يصلى بالناس فى الفجر سنة ٢٣ هـ ، العبر جـ ١ ص ٢٧ •

(١١) ما بين القوسين ساقط من نسخة الاسكندرية •

(١٢) فى النسختين « جسد » بالرفع وهو خطأ ولعله سهو من الناسخ •

(١٣) هكذا جاءت « عن » فى الموضعين ولعل الصواب « من » •

(١٤) جاءت هذه الكلمة فى النسختين وهى زائدة لا معنى لها هنا •

٤ — كل نفس بما كسبت رهينة

قوله : « **كل نفس بما كسبت رهينة** »[١] ثم استثنى فقال : « **الا أصحاب اليمين** »[٢] ، فهذا كسب النفس ، فتصير النفس رهينة عند الحق لأنها خلقت للعبودة بالحق ، فارتهنها الحق بكسبها حتى تأتى بما يفكها ، وفكها اتيانها بالمعرفة وشهادة أن لا اله الا الله ، ثم من بعد ذلك تحاسب على الوفاء فيناله ما يناله من الشدة ، وفى آخر الأمر ينجو من الحساب وتأخذه الرحمة التى منها خرجت له المعرفة والشهادة بالتوحيد ، وقد افتكت نفسه من الحق بما أفاده من المعرفة وان قصر فى العمل والوفاء .

وقوله : « **كل امرىء بما كسب رهين** » (**الا أصحاب اليمين**)[٣] . فليس هاهنا استثناء[٤] ، فهذا كسب المرء ، وهذا للجميع من ولد آدم ، لأن ولد آدم وضعت المعرفة عندهم أمانة ، فصاروا كلهم رهين الأمانة فلا يفكهم الا جوده .

* * *

(١) المدثر : ٣٨ (٢) المدثر : ٣٩

(٣) ما بين القوسين ساقط من نسخة الاسكندرية ، وكتب فى الهامش فى نسخة ليبزج : وليس هذا جزءا من الآية هنا وانما هو جزء من الآية السابقة فى سورة الطور .. « **كل نفس بما كسبت رهينة . الا أصحاب اليمين** » والآية المثبتة هنا « **كل امرىء بما كسب رهين** » من سورة الطور : ٢١ .

(٤) فى نسخة ليبزج « استثنى » وفى نسخة الاسكندرية « استثنا » .

٥ ـ سبح اسم ربك

قوله : **« سبح أسم ربك »**[١] ، أمره أن يسبح ذلك الاسم الذى للرب . وهو الاسم المكنون المخزون ، فالتسبيح لذلك الاسم الذى به خلق الجنة ، كنه فى الظاهرية[٢] ، وخزنه عن الخلق ، أن يحتظوا منه كسائر الأسماء ، وانما حظهم منه الملاحظة لمن مشى فى الهوى ، ولمن دونه علم الحروف لتقضى به الحوائج .

وأما قوله : **« اقرأ باسم ربك »**[٣] فهذا افتتاح النبوة ، وأول شىء نزل ، فأمر أن يقرأ بذلك الاســـم الذى هو الرب ، والرب هو « البادشاه » بالأعجمية ، وبذلك الاسم خلق الخلق ، وهو قوله : **« الذى خلق »**[٣] ثم قال : **« خلق الانسان من علق »**[٤] ، فنسب الخلق الى ذلك الاســـم المكنون ، وهو قوله : **« باســـم ربك الذى خلق »** أى بذلك الاسم ، ولذلك قال على[٥] (رضى الله عنه)[٦] فى دعائه : وأسألك بعزتك التى اشتققتها من اسمك المخزون الذى لم تطلع[٧] عليه حجابك فخلقت به خلقك . وحجابه ملك الرحمة وملك العظمة وملك الجلال ، وملك الجمال ، وملك البهاء ، وملك البهجة ، وملك السلطان ، فهؤلاء الحجاب .

* * *

---

(١) الأعلى : ١

(٢) هكذا فى الأصل والكلمة غير واضحة المعنى هنا .

(٣) العلق : ١ (٤) العلق : ٢

(٥) أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه رابع الخلفاء الراشدين تولى الخلافة بعد مقتل عثمان رضى الله عنه وقتله عبد الرحمن ابن ملجم غيلة وهو ذاهب لصلاة الفجر يوم ١٧ رمضان سنة ٣٩ هـ .

(٦) ما بين القوسين ساقط من نسخة الاسكندرية .

(٧) هكذا فى نسخة الاسكندرية وفى نسخة ليبزج « يطلع » .

٦ ــ الخشية والخوف(*)

الخشية من العلم بالله ، والخوف من المشاهدة ، فالخشية ممزوجة والمشاهدة منصوصة ، وذلك أن المشاهدة لقا(١) العظمة •

فالخوف كل الخوف من العظمة ، والعلم بالله يؤديك الى السلطان ، وكما يؤديك الى السلطان يؤديك الى الرحمة ، ويؤديك الى الجلال ، وكما يؤديك الى الجلال يؤديك الى الجمال ، ويؤديك الى العز والكبرياء • وكما يؤديك الى الكبرياء يؤديك الى الكرم ويؤديك الى الخطر العظيم من مكره والى هول المشيئة ، وكما يؤديك الى ذلك يؤديك الى الجود ، ويؤديك الى الهيبة ، وكما يؤديك اليها يؤديك الى المحبة والأنس ، فلذلك قلنا ان الخشية ممزوجة لأن الخشية من العلم بالله • وكذلك قال فى تنزيله « **انما يخشى الله من عباده العلماء** »(٢) ثم قال على اثره : « **ان الله عزيز غفور** »(٢) ، يعلمك أن العلماء بالله يخشون الله لعلمهم بالله أنه جليل فيخشون جلاله ثم يمازج الخشية علمهم بالله أنه عزيز غفور ، وذلك أن العزيز يأنف أن يخيب من يأمله ، أو يرد سائله ، أو يؤيس راجيه ، والعزيز يعطى ولا يبالى من العطية ، ويعطى من يستحق ومن لا يستحق ، وكذلك تجد فى عبيده أوفرهم حظا من العز أجودهم يدا بالعطية ، وأقلهم مبالاة بما يعطى لعزه وعلوه وارتفاع قدره ويأنف من الشىء التافه أن يعطى ، ولذلك قال : « يا موسى ان ثوابى على قدر عظمتى » فقال (فى تنزيله)(٣) فى تلك الآية ان الخشية للعلماء ثم قال : ان الله عزيز غفور ، أى ان العلماء بى اذا لاحظوا جلالى خشونى ، فاذا لاحظوا عزى وفخرى ومجدى ورأفتى ورحمتى وسعة مغفرتى ، وفسيح رجائى وعفوى دخلت الخشية ممازجة علمهم بهذه الأشياء فخفت الخشية •

وأما الخوف فمن المشاهدة ، فاذا شاهدوا العظمة ذهبت هذه العلوم ووقعوا فى بحر العظمة ، فمثلهم كمثل رجل كان فى أنهار فقطع

(*) جاءت هذه المسألة أيضا فى ولى الدين ورقة ٢١ •

(١) هكذا فى النسختين « ولعلها من لقاء » •

(٢) فاطر : ٢٨

(٣) ما بين القوسين ساقط من نسخة الاسكندرية •

تلك الأنهار الى البحر ، فهو فى تلك الأنهار على اختلاف الأحوال من الأنس والوحشة ، فاذا وقع فى مشقة البحر ذهب علم الأنهار وأخذه هول البحر فالأنهار شعب البحر ، فراكب الأنهار كلما تجللته وحشة من شعبة من هذه الأنهار آنسته أخرى ، فاذا صار الى البحر طم هول البحر على الجميع ، وذهب الأنس والوحشة وصارت كلها أهوالا ، لأن الانهار نهر منها لين ساكن ، ونهر خرار ينصب من الصخور والأحجار ، (فتراه يستن)[٥] ويجرى (وثبانا واستنانا)[٦] فصاحبه فى وحشة منه وخوف ، فاذا وقع فى نهر لين ساكن اطمأن وسكن وأنس به ، فاذا صار الى البحر هاله ، وأخذ بمجامع قلبه ، وصار معلق القلب ، فكذلك صاحب الخوف معلق القلب بمشيئته لأنه فى بحر العظمة وهول المشيئة ماذا يخرج من عظمته ، وماذا يبرز من مشيئته فصاحب الخشية منبسط متجمل ، وصاحب الخوف منقبض وسط الخوف ، فالخشية تحول بينه وبين المعاصى ، وحركاتها فى الباطن قائمة ، وتطلع برؤوسها[٧] ، أعنى تلك الشهوات والخوف ييبس رطوبة الشهوات ، وحياة النفس فى الباطن ، فبيبس الشهوات تصير النفس خاشعة كأنها لبدة خلقة ملقاة لا تكاد تفيق •

فالخوف للرسل والأنبياء ، والخشية للصديقين ، ومثل العامة المستورين فى الخشية كمثل رجل دخل مرجا له طول وعرض على شاطىء واد ، فقد علم يقينا أن فيه أسدا ، فهو يسير فى ذلك المرج عرضا وطولا مع الأمن وربما اعتراه خوف قليل اذا ذكر أنه منه بعيد ، واذا وجد خبر البعد اطمأنت النفس ، فتخطى فى المرج يمينا وشمالا فى حوائجه على طمأنينة النفس وأنسه بتلك الحوائج ، فاذا وقع على أثر طرى من آثار مخالبه فى ذلك المرج ، هاجت منه خشية تحول بينه وبين التخطى يمينا وشمالا ، ولكنه يعود الى طريق[٨] العام المسلوك ، فاذا عاود الطريق أمن وخفت تلك الخشية لعلمه بأنه لا يخرج الى الطريق العام الا القليل وأنه أكثر ما يكون فى مواطنه المعلومة ، وقلما يخرج الى الطريق ، واذا خرج الى الطريق قلما يؤذى الا أن

---

(٥) ما بين القوسين جاء هكذا فى النسختين •

(٦) فى ليبزج زيادة « به » •

(٧) فى نسخة الاسكندرية « رؤوسها » •

(٨) هكذا فى النسختين ولعل الصواب « الطريق » •

يتعرض له ، فهذا لما رأى أثره الطرى هاجت منه الخشية فترك الجولان هنالك وعاود الطريق فلزمه سلوكا واطمأنت نفسه ، فاذا سلك السبيل فاستقبله الأسد ووقف له فقد جاءت المشاهدة ، فهذا الخوف كائن هاهنا لأنه وقفَ على طريقه ، فمثل صاحب الخشية كمن رأى مخالب الأسد على الطريق ، ومثل الخائف كمن شاهد الأسد ولقيه واقفا له على الطريق وهو قوله تعالى : « **ان ربك لبالمرصاد** »(٩) .

* * *

٧ — الاعتبار بالمقابر

نظر الى المقابر يوما فقال : طوبى لكم قدمتم على الله بلا اله الا الله طاب مقدمكم ، وفاز قدحكم ، وحصنتم شهادتكم ، وأحرزتم حظوظكم وأمنتم عدوكم ووصلتم الى معبودكم ، ثم قال : طوبى لنا ونحن على جديد هذه الأرض ننطق بلا اله الا الله ، فألسنتنا به مطلقة لم يحل بيننا وبينها ، وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون ، فأهل لا اله الا الله أهل كرامات وكفارات ان تعبوا فى أعمال البر فالجنان لهم قائمة ثوابا لأعمالهم ، وان تعبوا فى البلايا والرزايا محصوا وهذبوا من الذنوب والخطايا حتى الشوكة يشاك ، والنكبة ينكب ، والروعة يراع ، قال الله تبارك اسمه : « **ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما** »(١) ، وقال : « **فمن(٢) يعمل مثقال ذرة خيرا يره** »(٣) ، أى يراه مقبولا .. « **ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** »(٣) أى يراه مغفورا له مكفرا عنه سيئاته ، ومن يعمل مثقال ذرة من الكافر يراه غير مقبول ، ومثقال ذرة شرا يراه غير مغفور له ولا مكفرا عنه سيئاته ، « **كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم** »(٤) .

* * *

---

(٩) الفجر : ١٤

(١) النساء : ٤٠

(٢) فى الأصل « من » .

(٣) الزلزلة : ٧ ، ٨

(٤) البقرة : ١٦٧

٨ — الروح منكمن فى الجسد(*)

وجدت الروح منكمنا فى جميع الجسد من القرن الى القدم الى الظفر . فأين ما أصابت الجسد علة من وجع وتغير وانتقاص اشتغل الروح بذلك ، لأنه ضاق عليه ذلك المكان ، لأنه متفش(١) فى جميع الجسد فاذا نكب الجسد فى موضع ظاهرا كان أو باطنا ضاق على الروح تمكنه من(٢) ذلك المكان فاشتغل ، فاذا وجدت النفس ألم تلك النكبه شغلت النفس القلب . فالقلب والروح يدعوان الى الطاعة ، والنفس تدعو الى الشهوات ، فاذا اشغل القلب والروح عن النظر الى العقل ماذا يومى والى أين يشير وعلى أى شىء يدل ، وماذا يزين ويبصر ويعرف بقى العقل معطلا فيحتاج العبد الى الحب ، فان للحب حلاوة . وللحلاوة فرح ، فاذا خلص الى القلب والروح هذا الشغل تخلص من ذلك الشغل بحلاوة الفرح ، لأن بالفرح ينبسط له القلب وينقوى وينبعث وينتشط ، وبالترح يضعف ويذبل وينقبض ، والحلاوة(٣) تذهب مرارة الألم من النفس .

والحب مخرجه من معرفة العبد ربه وعلمه به ، فاذا علمه وعرفه استنار العلم بها فى قلبه من الحب له ، وذلك حب الايمان حتى يأتيه المدد من الله تعالى من حَبه الذى أعده لأوليائه وأحبابه ، فيمد ذلك الحب من(٤) حبه حتى يتصل به ، فاذا نكب العبد نكبة فخلص اليه ألمها وشغله . فرجع الى معرفته فعلم أن ذلك كان فى علمه السابق ومشيئته التى سبقت خلقه فلن يسكن هذا العلم من هيجه وألمه شيئا . لأن معرفته بعلمه ومشيئته هى معرفة تؤدى الى العظمة ، والعظمة تقهر ، فاذا قهرت الروح والقلب ذبلا واختضعا ، وفى النفس مرارات . وفى الروح شغل ، فاذا نال حبه صار على ما وصفنا فاستراح . فأيد الله الأنبياء والأولياء بهذا الحب حتى صفت لهم العبودة . وجروا فى ميدان المشيئة على الجود والسماحة وبذل النفس وهشاشة الروح وبشاشة القلب .

* * *

(*) ذكرت هذه المسألة فى ولى الدين ورقة ٢٢ .

(١) الذى فى الأصل « منفش » بالنون ويمكن أن تكون متفشيا بالتاء .

(٢) فى نسخة الاسكندرية « فى » . (٣) فى نسخة ليبزج « وبالحلاوة » .

(٤) فى نسخة الاسكندرية « فى حبه » .

٩ ــ الآدمى أمير على الدنيا(*)

قال : جعل الله هذا الآدمى أميرا على الدنيا بما فيها ليغذو بدنه بها ؛ وجعل قلبه أميرا على جوارحه ؛ وجعل معرفته أميرا على قلبه ؛ فكأنه قال : هذه الدنيا كلها بما فيها لك ، وجوارحك كلها لك ، وقلبك لى . فان حفظت قلبك لى اغتنمت الدنيـــا كلها وجوارحك فصارت لك غنما ؛ وان أهملت قلبك ، ولم تحفظه حتى يكون لى خسرت الدنيا وخسرت نفسك .

وقال فى تنزيله يخاطب به الآدمى : « **خلق لكم ما فى الأرض جميعــا** »[1] « **وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منـــه** »[2] ، وصير جوارحك تبعا لقلبك ؛ فلاتعمل عملا الا بأمره ؛ وجعل الدنيا تبعا لجوارحك تأخذ منها ولا تأخذ هى منها .

فمن أمر فعــدل فى امارته فله ثمرة الولاية ، وثمرة الولاية الملكة فى دار ملكه ، لأنه صلح لدار المملكة ، ومن جار فى امارته عزل عن الامارة وخاب عن دار المملكة .

والجور يؤدى الى الخروج حتى يصير خارجيا من الخوارج .

* * *

(*) ذكرت هذه المسألة أيضا فى ولى الدين ورقة ٢٣ .

(١) البقرة : ٢٩ وأولها : « **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا** » .

(٢) الجاثية : ١٣

١٠ — القلب أمير على الجوارح

قال رحمه الله : خلق الله هذا الآدمى ، وخلق فى جوفه بضعة من لحم سماه قلبا لتقلبه ، وجعله أميرا على الجوارح ، ووضع فى القلب معرفته والعلم به ، ووكل القلب بحفظ الجوارح ، وتوكل للعبد بحفظه وامساكه ، ولم يكله الى أحد ، وهو مقلب القلوب على مشيئاته ، ووكل به العقل ، ووضع فى العقل المعرفة والعلم بالله ، وجعل بطنه معدن الشهوات ، ووضع فيه الشهوة للأشياء ، ووكل بها الهوى ، ووضع فى الهوى ظلمة الجهل بالله .

فالعقل بما فيه من المعرفة لله والعلم بالله يسوق قلبك الى الله ، والهوى يدعو نفسك الى الشهوات الفانية ، وانما هما روحان فى كل منهما حياة : احداهما سماوية والأخرى أرضية ، واسم احداهما الروح ، والأخرى النفس ، ومسكن الروح فى الرأس ثم هو(١) دنفش فى جميع الجسد ، وسكن النفس فى البطن ثم هى منفشة فى جميع الجسد ، فاذا نام خرجت النفس فعرجت الى الله ، وبقى الروح فى القلب ، وأصل النفس موثق بالروح ، فهى تغط ولا تقدر أن تخرج أصلا حتى لا يبقى شىء فغطيط النائم من أجل ذلك ، فاذا بعدت مسافتها ، وعلت سكن الغطيط ، وذهبت الحركات وهدأت الجوارح كأنه مات ، وذلك لقلة ما بقى من النفس فى الجسد ، ولم يبق الا الوثاق وخرجت عامتها وذلك قوله : ((**الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها**))(٢) .

فأعلم العباد أن هذا القلب أميرى ، وكنوزى فيه ، وعهدى عنده ، وجنودى حوله ، وأعطيته من بين جميع الأحشاء ، عينين على فؤاده فى صدره ، وجعلت صدره مجلس التدبير والقضاء والحكم وفصل ما بين الحق والباطل من الأمور ، وجعلت له سمعا يعى عنى كلامى الذى خاطبته ، وبصرا فى عينيه تصير باطن الأمور له معاينة ، وغائب الأوقات مشاهدة ، وفى ذلك البصر نورى ، وفى ذلك السمع

---

(١) هكذا فى المخطوطتين ولعل الصواب ((هى)) .

(٢) الزمر : ٤٢

نور حياتى ، وجعلت له هما يهم ، فهمه أن يهيم على وجهه فى طلبى حتى يجدنى فاذا وجدنى كان لى وكنت له ، فاذا نال هذه الخطة قوى على الامرة وأدب الرعية ، وأقام فيهم حدودى من الأمر والنهى ، ووضع كل شىء من خلقى وأمرى وتدبيرى موضعه وضبط المملكة والرعاية لهذا الغنم ، فالغنى كل الغنى له ، والسرور كل السرور له يوم يقدم على ، والفرح كل الفرح له يوم يلقانى ، والشفا كل الشفا له يوم يرانى •

ومن جعل هم قلبه همين ، فمرة يهيم الى ومرة يهيم الى نفسه ، ثم من نفسه تتشعب هموم لا تحصى ، وكل هم من تلك الهموم له حلاوة وشهوة ولذة ، فقد ذهب عنى وسبته حلاوة الهموم ، فالهم من الهيمان أن يهيم هكذا وهكذا ، وانما هو هام وهم ادغم الأنف فى الميم فشدده فهيمان القلب بوجهه الى ربه ، والقلب بضعة من لحم بمكانها لا تبرح ، ولكن وضع فيه نور المعرفة ونور العلم ونور العقل ، ونور الحياة بالله ، فبنور الحياة بالله عملت هذه الأنوار الثلاثة ، فصارت هذه الأنوار فى جوف الحفظ وسبب الحفظ الاذن من (ولى الواضع)(٣) لهذا وهو الله ، فاذا أذن أبرز الحفظ من وعائه هذه الأنوار التى قد تضمنها فاذا أبرزها ذكر العبد ، فها هنا فى هذا الموضع ذكر العبد لربه ، فذلك الذكر سير القلب الى ربه بنور العقل والعلم والمعرفة ، ونور الحياة مركب هذا الذكر الى أن يصل ذلك الى الله ، فكل ذكر قوته على قدر حظه من نور الحياة ، فأوفرهم حظا من ذلك النور أقواهم سيرا وترقيا الى الله فى الدرجات ، وأقربهم وسيلة ، فذاكر يصعد ذكره الى السماء ثم يعجز فيبقى هناك ، وذاكر يصعد ذكره الى عليين ثم يعجز ، وذاكر يصعد ذكره الى العرش ثم يعجز ، وذاكر يصعد ذكره الى الحجب ثم يعجز ، وذاكر يصعد ذكره فيلج الباب فيسيح فى نور الحجب ملكا ملكا حتى يصير الى المرعى بين يدى الله ، فهذا كله بنور الحيـاة الذى أعطاه ربه من (الحيية)(٤) فهذا سير القلب الى الله ، فأما البضعة بمكانها فى الجوف والذى فيها من هذه الأنوار منسوب اليه فسمى كله قلبا كما سمى

---

(٣) ما بين القوسين جاء هكذا فى النسختين والمقصود به غير واضح ، ولعل المقصود الولى •

(٤) هكذا فى النسختين ولعل الصواب « الحياة » •

الانسان انسانا بالأنسة التى فيه . وسمى الآدمى آدميا للأدمة التى فيه ، وهى الوصلة فانه خلقه بيده ، ومنه سمى الادام فى الطعام اداما لأنه ضمه الى طعامه حتى حلاه به وطيبه فسمى اداما ، وكما سمى حيا بحياة النفس والروح ، وحياة الروح غير حياة النفس .

والقلب سمى قلبا لتقلبه ، وانما يقلبه مقلبه هكذا وهكذا من أجل الخدمة لأن الخدمة ألوان . وسائر الأشياء سخرة ، فالسخرة راسخة لا تزول . ومن خلقه للخدمة صيره ذا تقلب لأنه خلقه لمشيئة نفسه شعب مشيئته فيه ألوانا ، فانما يقلبه بمشيئاته لينظر هل يمضى هذا العبد مع مشيئاته مسرعا من السرور كأنه يكاد يبادر ارادته حبا له وشغوفا به فاذا بدا له مشيئة فى أمر نسى الأمر لحلاوة حب مشيئته ، ونسى نفسه ، فهو يسعى مع مشيئته فى ذلك الأمر ركضا وطيرانا يتلمظ حلاوته بالشفتين . وان كانت نفسه تنقطع فيه ، وحياته تذهب وعمره يفنى ، أو لا يمضى فيتردد ويتثاقل ويعمله على عبوس وتردد واسترخاء الشفة(٥) فى ذلك الأمر ، وينظر الى حكم العزيز الماجد نظرا شزرا كالبعير النافر الذى لم يألف مالكه ، فخلقنا خلقا عجبا لا يشبهنا أحد لأنه خلقنا لحبه لنا ، وفرحه بنا ، ومن خلق لهذا اقتضى الخدمة والكون بين يديه لاختلاف المشيئات التى يخالفها عليك . ويخزنها لك ، لا يشبه بعضها بعضا ، فلما خلقك من بين الخلق كذلك ، خلقك للأبد وسائر الخلق يعودون الى الأصول التى منها خلقوا ، فمن خلق من التراب عاد ترابا مثل البهائم والطيور ، ومن(٦) خلق من النار مثل الشمس والقمر عادا الى النار التى منها خلقا ، ويبقى الآدمى فى أبديته ، فمن خدمه فهم خير البرية لهم جنات عدن خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ومن أبق من الخدمة فهم شر البرية فى جهنم خالدين فيها(٧) أنبأ الله ذلك فى تنزيله فوفارة الخدمة وتمامها حسب طاقة الآدمى أن يمضى قلبه مع مشيئات الله فى جميع الأمور والأحوال فى كل الاوقات راضيا(٨)

---

(٥) هكذا فى المخطوطتين ولعلها كناية عن عدم الرغبة .

(٦) هكذا فى المخطوطتين والأصح « وما » .

(٧) يشير هنا الى معنى الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ من سورة البينة .

(٨) فى نسخة ليبزج « ماضيا » .

عن الله تعالى لا يشاء الا ما يشاء ربه ؛ وقد افتقد مشيئة نفسه لمشيئة الله ؛ لأنه كان للعبد مشيئة شهوانية حلوة ؛ فلما جاءت مشيئة الله وجد فى قلبه حبا لمولاه قد شغف وأخذ بمجامع قلبه حلاوة ذلك الحب ؛ ولم تجد حلاوة مشيئة النفس مساغا فى القلب ، لأن حلاوة مشيئة الله قد أخذت(٩) بقلبه فملأته ؛ فلم تبق(١٠) لحلاوة حب الشهوة موضعا . فتلاشت فى جنب حلاوة الحب ؛ فنحن محبوبو الله ، وسائر الخلق مجبور والله جبرهم للتسخير لنا ولا مشيئة فيهم ، خلقنا لحبه ، وخلق سائر الخلق لجبره ، فقاموا كلهم فى جبره لا يزولون ، وخلقنا فقمنا فى حبه فصار الحب قائمنا ، وفى الحب الفرح والحلاوة والحياة ، هذه الأشياء حشو الحب ، وكان من تدبيره فينا أن خلق النار ، وخلق بباب النار زينة وأفراحا ، وتلك الحياة فيها ، وهى من السلطان ، والسلطان خلق منه الموت ؛ فلذلك صارت هذه الأمور التى فى الشهوات تميت القلب اذا كان صاحبها فى غفلة عن الله ، فوضع فى الآدمى من تلك الزينة والأفراح التى حفت النار بها ، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حفت النار بالشهوات »(١١) فوجدنا أجسادنا موضوعة بين حبين وفرحين ، فرح بالله وحب له وفرح بالنفس وحب لها ، ومعدن هذا الفرح بالله والحب له فى القلب ؛ ومعدن الفرح بالنفس وشهواتها والفرح لها فى الجوف ، وكلاهما حبه والفرح به ، الا أن هذا الفرح بالله والحب له أصله من الله فى دار السلام ، والفرح الآخر والحب أصله من الله بباب النار لينظر أيهما يستعمل العبد ويميل اليه ، الى الحب لله والفرح به فيعمل لدار السلام بطاعة الله فى أمره ونهيه ، وقطع علائقه ، أو يميل الى الفرح الذى بباب النار من الأفراح والزينة فيعمل لنفسه حتى يغلب ذلك على قلبه فيتعدى الحدود ويضيع الفرائض ويعمل بالهوى ؛ فهاهنا وقعت المجاهدة بين النفس والقلب ، فالقلب مائل الى أفراح الله والحب له ، والنفس مائلة الى أفراح الشهوات والحب لها ، فالعقل والعلم والمعرفة والفهم والكياسة ، والفطنة والذهن من جنود القلب ، والهوى بالشهوات والأفراح والزينة جنود النفس ؛ فمن ترك المجاهدة ذهبت النفس بالقلب وأسرته ، فلا

---

(٩) فى نسخة ليبزج « أمدت » . (١٠) فى نسخة ليبزج « يبق » .

(١١) قال فى كشف الخفاء : ان الحديث متفق عليه ورواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

له أمر ولا نهى ، وصار جوفه بلدة من بلاد العدو ، ومن جاهد بقلبه حتى أسر النفس صار الأمر والنهى للقلب ، وبرزت جنوده وظهر سلطانه ، وصفت امرته ، فاذا بلغ هذا المبلغ من الدين بقيت العلائق والأدناس ، وقد خرج من الأوساخ والأدران وهى المعاصى ، وقد كان خرج قبل ذلك من الأرجاس والأنجاس ، وهو الشرك والكفر ، فبقيت الادناس ، ثم اذا قطع العلائق ذهبت الأدناس وبقيت الغيوم الحاجبة له عن الله ، فهو الآن يسارق الله بقلبه ، فتلك الغيوم من المسارقة ، فالآدمى من قبل أن يؤمن بالله بعيد من الله ، لأنه مع هذه الأشياء فاذا آمن وتبرأ من الشرك خرج من الأنجاس والأرجاس ثم من بعد ذلك اذا انتهى عن المعاصى خرج من الأوساخ والأدران ، ثم اذا قطع العلائق خرج من الأدناس وبقيت الغيوم •

قال له قائل : وما الغيوم التى ذكرت أنها تحجبه عن الله ؟ قال : الالتفات الى النفس فى عطية الله اياه ، والمشيئات التى يلاحظ بها مشيئة الله غفلة وبعدا منه ، وأنى لعبد مشيئة ، وهو يعلم أن مشيئته ناسخة لجميع المشيئات ، وأن المشيئات كلها تتعطل وتصير هدرا لما برزت مشيئة الله التى شاء ثم قدر ثم شاء أمضاه ، فتلك المشيئات التى تتردد فيه فيلاحظها بعين قلبه ثم يترك الخطرات التى تتردد حتى تصير فكرة ثم تصير الفكرة حلاوة فى العروق ، وتتشرب العروق مشيئة النفس والهوى ، فتلك غيوم وحجب للقلب ، فهذه مسارقة يسرق قلبه من الله لأن شرط الله مع الآدمى يكون قلبه له ، وسائر الجوارح للقلب ، وأن يكون القلب لحبه ، فان أحب غيره فيحبه بحبه لأنه خلقه وصنعه وفعله حتى يكون مرجع ذلك الى حبه وفرحه ، فاذا ذهب بقلبه الى الله معتقا له عن رق النفس بعظيم المجاهدة ، ثم يذهب فيسارقه ، فهذا هزو ولعب ، فاذا حصن القلب حتى يترك المسارقة •

قال له قائل : وما حصن القلب ؟ قال : أضرب لذلك مثلا : أليس خلق الله شهوة النساء وحبهن وزينتهن فيك وأعلمك ذلك فى تنزيله حيث يقول : ((**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب** ••))[١٢] قال : نعم • قال :

---

(١٢) آل عمران : ١٤ ، ولم يذكر الآية كاملة فى النص وانما اقتصر على ذكر صدرها حتى : ((**••• حب الشهوات**)) • ثم قال : الآية •

أفليس قد أدبك كيف تأتى هذه الشهوة ، وبأى مقدار ومتى ، فما كان بأدبه فهو النكـــاح ، ومـــا كان بغير أدب فهو زنا ، فاذا ترك الأدب أليس قد أمر بأن يرجم ويقتل بالحجارة ؟ ، قال : نعم ، قال : أليس يجب هذا عليه اذا كان محصنا ؟ قال : نعم . قال : فمتى يحصن الرجل ؟ . قال : اذا وجد حرة مسلمة فقد صار محصنا ، قد حصن شهوته بوفارة ما وجد لأن الأمة فيها نقص ، وفى غير المسلمة نقص ، فاذ اجتمعت الحرية والاسلام توفر وكمل فلم يبق لك حجة ، فهنالك اذ تركت الأدب فزنيت ، فتلك جعامة ، فأمرك بأن تقتل رجما بالحجارة ، فكذلك هاهنا ما دمت فى حب الطاعة وحب الزهادة وحب التقوى وحب العطايا ، فانما تحب هذا كله من أجل الله ، ولكن حبك لله ذو شعب ، ولكل حب علاقة ، ولم يصل بعد الى أصل الحب الذى منه انشعب هذه الشعب ، فاذا وصلت اليه فقد حصن قلبك وعف وتركت المسارقة لأن قلبك هناك قد امتلأ بحبه ، وفاض الى الصدر والعروق ، ووصلت وسكنت وهدأ قلبك وهدأت نفسك بما أصابت من الحلاوة ، فلذلك قال : « ولست أسكن البيوت وأى بيت يسعنى ، من طلبنى فانى فى قلب العفيف الوادع اللين ، فالعفيف الذى صار قلبه محصنا قد عف عن جعامة الحلاوات لـــا وجـــد من وفارة حب الله وامتلأ منه ، والوادع التارك الساكن عن الشهوات التارك لها ، واللين الذى قد لان قلبه بالرحمة التى غمس فيها ورطب فى ذاته ، فهو لين متين كالكرم لين رطب منقاد ، وكغصن بعض هذه الأشجار اللينة شبه الخيزران وأشباهها ان أثنيتها انثنت ولم تنكسر ولم تنقطع وانما لان القلب للعفة ، لأن الشهوة حارة تيبس القلب فيصير كزا ، فاذا عف وانغمس فعندهـــا صار القلب لله ، يمسكه صاحبه لله ، فأظهر ربنا وجوده على العرش ، وأظهر وجوده هاهنا فى مثل هذا القلب ، لأن لهذا القلب ســبيلا الى العـــرش الى المرعى بين يديه ، فاذا كان هاهنـــا وجوده فهو الذى يســـتعمله ، وهو قول رســـول الله صلى الله عليه وســـلم فيما يروى عن ربه تعالى : « فاذا أحببت عبدى كنت سمعه وبصره ويده ورجله وفؤاده ، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يعقل وبى يمشى » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان أسرق السراق من يسرق من صلاته »(١٣) ، فاذا كان أسرق السراق من يسرق من صلاته ،

---

(١٣) راجع الحديث فى كشف الخفاء جـ ١ ص ٢٢٥ وله رواية أخرى : =

فما ظنك بمن يسرق قلبه من الله ، فليس من موحد الا قلبه مع الله ، وذلك وقت ايمانه ، ثم يسرق قلبه قليلا قليلا من الله حتى يذهب بعامة قلبه منه حتى يبقى القلب كالمعلق بشعرة ، فان انقطع ذهب ، ولذلك قال : « يا موسى ان انقطع حبلك منى لم يصل بحبل غيرى ، وذلك قوله « **(فمن) يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** »[١٤] • أى لا انقطاع لها من الله ، فهذا العبد حين آمن بالله تعلق به حبا ، واستمسك بالعروة الوثقى ، ثم لا يزال يسرق قلبه[١٥] ويوهن عقدة العروة حتى يكاد ينحل وينقطع من ضعفه ورقته ، فجهد العباد الآن فى ترك كل مشيئة تهيج منهم فى أمر اتهموا تلك المشيئة لأنها خرجت من نفس خائنة وقلب مائل ، فهذه رياضة الصادقين فى سيرهم الى الله ، فان ذهب يصلى ويصوم ويعمل أعمال البر ويزعم (أنى أسير بهذا اليه)[١٦] فقد ضل الطريق وأخطأ ، ليس يوصل اليه بالصلاة والصوم[١٧] ، انما يوصل اليه ببذل النفس وتسليمها اليه فى ترك المشيئات واحتمال المكروهات ، فانك اذا تركت مشيئتك فى الأمور فانما تترك الشهوات فاذا فعلت ذلك جاءتك المكاره وضقت بها ذرعا والتوت النفس وترددت حتى اذا بلغت المنتهى وذابت عنك المشيئات وهانت عليك المكاره فعندها فأبشر وتوقع اقبال الله عليك بالكرامة فانه كريم رحيم ودود •

* * *

= « ان أسوأ الناس سرقة من يسرق من صلاته قال : لا يتم ركوعها ولا سجودها » رواه أحمد والدارمى عن أبى قتادة مرفوعا ، وصححه ابن خزيمة والحاكم •

(١٤) البقرة : ٢٥٦ وقد جاءت الكلمة الأولى من غير « ف » فزدنا الفاء « فمن » ووضعنا الكلمة بين قوسين •

(١٥) فى ليبزج « قلبك » •

(١٦) هكذا فى الأصل بتضمين يزعم معنى •• يقول •

(١٧) قد يقول قائل هنا : ان الحكيم الترمذى يهون من أمر الصلاة والصيام ويراهما سبيلا غير موصلة الى الله ، والذى يحدوه سوء الظن بالمؤلف قد يجد هذه الفرصة لأن ظاهر التعبير يوهمها الا أن الذى يعرف منهج الحكيم يرى أن الرجل لا يهمل الجانب التطبيقى ولا يهون من شأنه وانما يرى أن الحركات والركوع والسجود اذا لم تنبعث عن قلب خاشع ونفس مستسلمة فقد تكون مانعا تحجب صاحبها عن الوصول الى الله اذا كان يتراءى له عمله ، لأن عمل المرء لا يدخله الجنة ، انما فضل الله ورحمته كما جاء فى الحديث الشريف •

١١ ــ العقــل والهوى

قال : وجدنا الهوى مهيج الشهوات ، والعقل مهيج العلوم والمعرفة ، فالحب يسد مجارى الهوى مثل قشارة الأبا التى يســد بها شقوق السفينة وشئونها حتى لا ينز المــاء فيها ، فتغرق السفينة فاذا سد مجارى الهوى كانت الشهوات هيجانها لاحقا بالمعرفة ، وحلاوتها بحلاوة الحب مختلطة[١] •

* * *

١٢ ــ مسألة أخرى « جند المعرفة »

قال : الحمد لله الذى وضع فيك من الأشياء التى اختارها ووقعت خيرته عليها مثل العقل والعلم والحفظ والذهن والفهم ، والفطنة ، فجعلها جند المعرفة فى قلبك الذى أمره على جوارحك ثم أذن لتلك الأشياء فى اخراج منافعها الى قلبك ليخرج العبد من جوارحه محاسن أفعال وأقوال يزدان[٢] عند خلقه من سمائه وأرضه وبره وبحره وأهل سمائه وأرضه ، ويثيبه غدا على تلك المحاسن « **جنــات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب انه كان وعده مأتيا** »[٣] •

* * *

١٣ــ مسألة

المهيمن ينفى المحــدودية والكيفية عن قلوب الموحــدين ويطرد وساوسهما •

* * *

---

(١) فى الأصلين : مختلط ، فزدنا التاء •
(٢) هكذا فى الأصلين ولعلها « تزدان » •
(٣) مريم : ٦١

١٤ ـ مسألة أخرى « ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم »

قوله تعالى : « **ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول** •• »(١) ينبيك أن الساقط عن الله يحتاج الى من يشفع له ويتكفل له عن الحق بين يدى الله حتى يرده الى مقامه فصار ذا تهمة ؛ فهو وان تاب لم يترك العود الى مكان القربة حتى يتكفل له ملى وفى ويشفع له وجيه ، ألا ترى أنه قال فى الآية : « **جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول** »(١) • فعند ذلك يجد الله فاذا وجده وجده توابا رحيما ••



١٥ ـ مسألة أخرى « شأن الصديقين فى الأمور »

قال : انما تعظم الأمور عند أهلها بمعرفتهم بأقدارها ، وانما يعرف أقدارها من عرف جواهرها ، وانما يعرف جواهرهـا من خلص الى أصولها التى منهـا ابتديت ، فعلى حسب ذلك يعامل الله بها ، وهذا شأن الصديقين فى الأمور والأصفياء أهل النبا واليقظة •



(١) النساء : ٦٤

١٦ ــ مسألة أخرى « الميراث »(*)

قال : الميراث على تقدير مفعال مأخوذ من الرثة ، وهى ما ضمها البيت وجمعها بعد تفرقها ، ولذلك سمى الوارث وارثا فهذا (ترك) ملكه وتعطل عن جميع تركته ؛ فقام آخر فضم الى تركته ملكه فسمى وارثا ؛ والله وارث الخلائق قسم من ملكه بين عباده ففرقه عليهم وضمه الله فى آخر يوم من أيام الدنيا ، فهو وارث الخلق وهو خير الوارثين ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انا لا نورث ما تركنا صدقة »[1] لأن الأنبياء خزان الله ليس لهم من المـــال الذى بأيديهم الا الخزانة يمسكونه لنوائب الحق ، لا لنوائب النفس ، وما كان لله فهو غير متفرق ؛ وانما المتفرق ما كان للشهوات وللنفس ؛ وما كان لله فهو مجتمع بيد الخازن ، فاذا مات لم يكن لأحد أن يأخذ ذلك فيضمه الى نفسه لحق الله ؛ لأنه لم يكن للميت أن يأخذه لنفسه انما كان يأخذه لحق الله ؛ فكل من ضم شيئًا من تركة ميت الى نفسه فقد ورثه ، دنيا أو دينا ؛ ألا ترى الى قوله : **« وورث سليمان داوود »**[2] فانما ورث منه الملك والعلم والنبوة فجمع فيه الدين والدنيا ، والى قول زكريا[3] حيث قال : **« فهب لى من لدنك وليا • يرثنى ويرث من آل يعقوب »**[4] • فانما ورث من آل يعقوب النبوة ، فكل شىء ضمه الى نفسه من ملك آخر دينا أو دنيا فهو ميراثه ، وقوله : « لا نورث ما تركناه صدقة » أى لا نورث كما يرث الناس بعضهم بعضا لأنا لا نملك الأشياء كما يملكون انما يملكه الله وليس للنفس فيه دعوى •

* * *

(*) ذكرت هذه المسألة فى ولى الدين ورقة ٢٧

(١) جاء الحديث فى البخارى ومسلم فى المغازى ، راجع ذخائر المواريث جـ ٢ ص ١٤٧

(٢) النمل : ١٦

(٣) زكريا النبى عليه السلام ورد ذكره فى القرآن مرات •

(٤) مريم : ٥ ، ٦ ، وقد جاءت : « فهب » بدون فاء فأكملناها •

١٧ ـ مسألة أخرى : مظهر القلوب ومجمعها(*)

مظهر القلوب ومجمعها عند اسمه الله ، ثم صدروا من عند المجمع بشهوات النفس ، فأما الموحدون فأغاثهم بنور المعرفة حتى وحدوه ، وهو نور التوحيد من الأحدية أعطاهم ، فلم تنقطع قلوبهم من ذلك النور ، وذهبت شهوة الشرك ، لأنه(١) أعطاهم نور المحبة فمرر عليهم الشرك ، لأن للحب حلاوة تمرر عليهم ذلك ، وهو قوله : **« حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم »**(٢) •

فأما المشركون فلم ينالوا ذلك ففعلت شهوات النفس فيهم وغلبت فدعتهم الى الشرك والى عبـــودة من يعاينوه وانقطعوا منه قلبـــا ونفســـا •

وأما الموحدون فأوصلهم الى نفسه بالتوحيد فاتصلوا به قلبـــا ونفسا • وأما المخلطون فاتصلوا به قلبا وانقطعوا منه نفسا ، وذلك أنه أوثقهم بتوحيده ومحبته ، فتعلقت قلوبهم به ، وأوثق نفوسهم بالشهوات كى يحلوها بالمجاهدة ، ويصيروا الى الله ، فمن هاهنا وقعت مجاهدة النفس ، فالسائرون الى الله بقلوبهم يحلون عقـــد نفوسهم شهوة شهوة حتى يصيروا الى الله ، فعند ذلك لا تبقى للقلب علاقة ، لأن علاقة القلب هى النفس بشهواتها •

وأما المجذوبون فانه جذب قلوبهم فأخذها من نفوسهم ثم حال بين قلوبهم وبين نفوسهم لأن القلوب فى القبضة فلا تقدر النفس أن تعمل شيئا ، ثم لا يزال يؤدبه ربه ويميت من نفسه تلك الشهوات حتى تستقر النفس وينقاد القلب •



(*) ذكرت هذه المسألة فى مجموع ولى الدين ورقة ٣٢ •

(١) فى ليبزج « لأنها » خ . (٢) الحجرات : ٧

١٨ ـ مسألة أخرى .. خصال الصابر

قال : وجدت للصابر ست خصال فى كل أمر يجد عليه صبرا :

أولها : محبة الله ، قال الله : « **والله يحب الصابرين** »(١) .

والثانية : نال محاب الله من الأشياء ، لأنه روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خلق الله العقل ثم قال : وعزتى ما خلقت شيئا أحب الى منك »(٢) وما أكرمتك بشيء أفضل من الصبر .

والثالثة : كرامة الله له لأنه وفى بالاسلام فسلم اليه أمره فى ذلك الوقت بنفسه وماله .

والرابعة : صلوات الرب .

والخامسة : رحمة الرب .

والسادسة : بشرى بأنه من المهتدين ، وذلك قوله : « **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** »(٣) .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٦ وقد جاء فى المخطوطتين ((ان الله)) والصحيح ما أثبتناه .

(٢) حديث العقل جاء بروايات مختلفة منها ما ذكرت ها هنا ومنها : (ان الله لما خلق العقل ...) وقد تناول العلماء هذا الحديث فبعضهم حكم بوضعه وبعضهم حكم بضعفه ، وبعضهم قال : انه مرسل جيد الاسناد راجع كشف الخفاء ج ١ ص ٢٣٦ ، ٣٦٣ .

(٣) البقرة : ١٥٧

١٩ ـــ مسألة أخرى « أهل اليقظة »

قال (رحمة الله عليه)[١] العبد خرج من اسمه الله ، وانما أخرجه للعبودة واذا قال : بسم الله تفرغ من الأشـــياء ورجع الى ألوهيته يتحصن بها من آفة النفس •

فأهل اليقظة على صنفين : صنف يقومون على أداء الفرائض وحفظ الجوارح السبع ، فاذا أمسوا حاسبوا • فكل جارحة ثلمت سدوا ثلمتهـــا ، وكل فريضة انتقصت من التقصير الذى كان منهم وفروه بالتطوع • وصنف آخر قد أحكموا هذا الأمر وجاوزوه فهم فى ابتغاء ازدياد العلم بالله ، فاذا أمسوا حاسبوا أنفسهم ، فنظروا هل ازدادوا بالله علما يقربهم اليه ، وذلك لأن العلم بالله قربة الى الله ، لأنه يحقق الايمان ويؤكده ويخلص النفس من هناتها ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان يوما لا أزداد فيه علما يقربنى من الله لا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم »[٢] •



(١) ساقط من نسخة الاسكندرية •

(٢) انظر تخريج العراقى للحـديث فى أحاديث الاحيـاء باب العـلم. جـ ١ ص ١٢

٢٠ ـ رسالة الى محمد بن الفضل(١)

كتب الامام أبو عبد الله رحمة الله عليه الى محمد بن الفضل جواب كتابه : فأما ما ذكرت أكرمك الله من المصائب . فمصائب النفس كائنة ، ولكنها تهون فى جنب مصائب القلوب . وان من أعظم مصائب القلوب حجبها عن الله ورضاها بحيث حلت واقتصرت عليه ، فمن حلت به هذه المصيبة فقد تلاشت المصائب فى جنبها ، والسكارى لا يصل اليهم فجعة المصيبة الا عند الافاقة ، فاذا أفاقوا من سكرهم خلص الى قلوبهم الألم وقلقوا ولم يطمئنوا الى شىء فعيشهم منغص ، فهم(٢) كأنهم فى البرزخ موتى عن حق الله حتى ينالهم عطف الله فيحيى تلك القلوب .

ودعوت الله فى كتابك يا أخى أن يجبر مصائبنا فى الجنة ، فمن كان محجوبا عن الله فمصيبته لا تنجبر أبدا لا فى دنيا ولا فى آخرة ، فهو وان دخل الجنة أعطى الرضى وبقى الرضوان الأكبر ، وكيف تنجبر مصيبة عبد جعل الله له فى الفردوس حظا وهى سرة الجنة ، والدرجة العليا متصلة بدار الرحمن فلها عن الله حتى انحط عنهـا وورثها عنه من أقبل على الله ، قال الله تبـارك اسمه فى تنزيله : « **قد أفلح المؤمنون** »(٣) فأوجب لهم الفلاح ، ثم وصف خصالهم فقال : الذين . والذين ، والذين ثم قال : « **أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس** »(٤) فالميراث لا يكون الا عن الموتى ، فمن مات عن توحيد الله ورثه الموحدون ، ومن مات عن الله ورثه المقربون الذين حيوا بالله حظه من الفردوس لأنه لم يوجد فى الصلاة خاشعا ولا عن اللغو معرضا ولا للزكاة فاعلا ولا للفرج حافظا ولا للأمانة والعهد راعيا ولا على الصلوات محافظا استقام بأركانه ولم يستقم باقباله فتخشع ولم يخشع ، وجانب اللغو ولم يعرض وأعطى الزكاة ولم

---

(١) محمد بن الفضل البلخى أبو عبد الله أصله من بلخ ، ولكنه سكن سمرقند ، وقد صحب أحمد بن خضرويه ، وهو من أجلة مشايخ خراسان توفى سنة ٣١٩ بسمرقند ، طبقات الصوفية ، للسلمى ص ٢١٢ طبقات الأولياء لابن الملقن تحقيق نور الدين شريبة ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .

(٢) فى ليبزج : فهو .

(٣) المؤمنون : ١

(٤) المؤمنون : ١٠ ، ١١ .

يفعل وصان الفرج وحصنه ولم يحافظ ، ورعى الأمانة والعهد ولم يراع حتى خالطته الخيانة ونسيان العهد وصلى ولم يحافظ فانحط عن درجة الفردوس فورثه من استقام فى اقباله بهذه الخصال •

فمصيبة المنحطين لا تنجبر ولكنهم يعطون الرضا حتى لا يستبين عندهم رزء المصيبة • فالرضا لأهل الدرجات رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك أهل الخشية ليدخلنهم مدخلا يرضونه ، والرضوان لأهل الفردوس ، قال الله تبارك وتعالى فى تنزيله : « **ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر** »[٥] وصل أهل الرضوان الى كبرياء الله ، وسائر أهل الدرجات الى الكبرياء ، وروى لنا عن جعفر بن سليمان الضبعى[٦] عن أبى عمران الجونى[٧] عن أنس بن مالك[٨] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء فى جنة عدن »[٩] حدثنا بذلك عبد الله بن أبى زياد[١٠] عن سيار[١١] عن جعفر •

---

(٥) التوبة : ٧٢

(٦) كان من ثقات الشيعة وزهادهم توفى سنة ١٧٨ هـ ، راجع تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٢٢ ، العبر فى خبر من غبر جـ ١ ص ٢٧١

(٧) اسمه عبد الملك بن حبيب الأزدى ، ويقال الكندى البصرى ، أثنى عليه العلماء ، واختلف فى وفاته بين سنة ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ هـ راجع تهذيب التهذيب جـ ٦ ص ٣٨٩ •

(٨) خادم رسول الله وصاحبه أبو حمزة ، له صحبة طويلة ، فقد لازم النبى صلى الله عليه وسلم منذ أن هاجر الى أن لحق بالرفيق الأعلى ، وكان عمره عشر سنين عام الهجرة ، وكان آخر الصحابة موتا توفى سنة ٩٠ أو ٩٢ أو ٩٣ هـ ، العبر جـ ١ ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، تذكرة جـ ١ ص ٤٤ أسد الغابة جـ ١ ص ١٥١ •

(٩) روى الحديث الطبرانى فى المعجم الكبير جـ ٣ وابن حميد فى مسنده جـ ٢ عن أنس •

(١٠) القطوانى الكوفى الدهقان ، ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال ابن أبى حاتم : صدوق توفى سنة ٢٥٥ هـ ، تهذيب جـ ٥ ص ٢٢٢ ، الجرح جـ ٢ قسم ٢ ص ٣٨ •

(١١) سيار بن حاتم العنزى البصرى صاحب الرقائق والقصص ، وثقه ابن حبان توفى سنة ١٩٩ هـ ، العبر جـ ١ ص ٣٣١ ، تهذيب جـ ٤ ص ٢٩٠

وحدثنا الحسن بن حيان العسقلانى[١٢] قال حدثنا بذلك عبد العزيز ابن عبد الصمد[١٣] العمى عن أبى هارون العبدى[١٤] عن أبى سعيد الخدرى[١٥] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثله •

وحدثنى[١٦] أبى رحمه الله قال : حدثنا أحمد بن يونس[١٧] ، قال : حدثنا أبو شهاب[١٨] قال : أخبرنى خالد بن دينار[١٩] النيلى عن

---

(١٢) زيادة من ليبزج •

(١٣) البصرى الحافظ الثقة أثنى عليه العلماء توفى سنة ١٨٧ أو ١٨٨ أو ١٨٩ هـ ، تهذيب جـ ٦ ص ٣٤٦ •

(١٤) عمارة بن جوين رموه بالضعف والكذب ، وهو بصرى شيعى ، تهذيب جـ ٧ ص ٤١٢ ، المغنى جـ ٢ ص ٤٦٠ •

(١٥) سعد بن مالك بن سنان الأنصارى الخزرجى المدنى ، استصغر يوم أحد ، وشهد ما بعدها ، كان من علماء الصحابة ، وممن شهد بيعة الشجرة ، ولما تنازع أصحاب على ومعاوية فى امامة الحج عام ٣٩ هـ مشى فى الصلح على أن يكون امام الموسم شيبة بن عثمان الجمحى ، توفى سنة ٧٤ هـ ، تذكرة جـ ١ ص ٤١ ، تهذيب جـ ٣ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، الحلية جـ ١ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، العبر جـ ١ ص ٨٤ ، ابن عساكر جـ ٦ ص ١٠٨ ـ ١١٣ •

(١٦) على بن الحسن الترمذى كان من علماء الحديث رحل الى بغداد وذكره الخطيب فى الجزء العاشر من تاريخه •

(١٧) هو أحمد بن عبد الله بن يونس بن عبد الله بن قيس التميمى اليربوعى الكوفى كان ينسب الى جده ، كان ثقة متقنا صاحب سنة وجماعة صدوقا من صالحى أهل الكوفة مأمونا ثبتا ولد سنة ١٣٤ وتوفى سنة ٢٢٧ ، راجع تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٥٠

(١٨) هو عبد ربه بن نافع الكنانى أبو شهاب الخياط الكوفى نزيل المدائن ، وهو أبو شهاب الأصغر فانه الذى روى عنه أحمد بن يونس ، كان ثقة صالحا كثير الحديث الا أنه لم يكن حافظا ، فهم وان اتفقوا على ثقته وصلاحه الا أنهم لم يقبلوا حفظه ولهذا لم يكن عندهم بالقوى توفى سنة ١٧١ ، ١٧٢ هـ ، تهذيب التهذيب جـ ٦ ص ١٢٨ ، ١٢٩ •

(١٩) خالد بن دينار النيلى أبو الوليد الشيبانى بصرى الأصل يسكن النيل مدينة بين واسط والكوفة شيخ ثقة يكتب حديثه ذكره ابن حبان فى الثقات ، تهذيب التهذيب جـ ٣ ص ٨٨ ، ٨٩ •

حماد بن جعفر[٢٠] عن ابن عمر[٢١] رفعه قال : اذا بلغ النعيم من أهل الجنان كل مبلغ ، وظنوا أن لا نعيم أفضل منه تجلى لهم الرب ، فنظروا الى وجه الرحمن فيقول : يا أهل الجنة هللونى فيتجاوبون بالتهليل ، فيقول : قم يا داود فمجدنى كما كنت تمجدنى فى دار الدنيا . فيقوم داود فيمجد ربه » .

فقد ورثت عصابة من هذه الأمة ذلك التمجيد عنه ، أولئك قوم صدقوا الله فى الاجابة ، دعاهم فلبوه بأجمعهم ، وقصدوه فعارضتهم النفس والهوى ، فتركوا التلبية ، ووقفوا على النفس والهوى ، فربطهم الهوى عن النفس ، فبقوا فى وثاق الهوى مكبين على النفس .

وأولئك لم يقطعوا التلبية ، فما زالت قلوبهم محرمة تقول : لبيك لبيك عدد الأنفاس ، فلا ينقطع احرامنا حتى نصل الى حظوظنا منك ، كما لا ينقطع تلبية المحرمين حتى يطوفوا بالبيت العتيق .

قد تستروا بالثياب من الحر والبرد والعرى ولم يلبسوا وهجروا أفراح مخالطة الأزواج حتى يطوفوا ويلوذوا ، وهؤلاء قد تستروا بالأعمال ولم يلبسوا وتمتعوا بالأزواج وهجروا الافراح ، وتناولوا الأسباب وتوقوا العلائق لا يعرجون على شىء من درجات الأعمال لما علموا أنه دعاهم ليعطيهم حظوظهم التى قسم لهم من نفسه ليصيروا بتلك الحظوظ أحرارا من رق النفوس ، فهم فى نصب الأعمال وكدها وتعبها أجسادا ، وبالقلوب براة سالمون لا يلتفتون اليها ولا يمتصون حلاوة أفراحها ، فالمغتر لها عن حظه من ربه وأقبل على حظه من الجنان ليتنعم فيها فعمل لها ، والكيس لها عن حظه منهما فى جنب حظه من ربه فما زال يسعى بقلبه دءوبا حتى وصل الى الحظ

---

(٢٠) حماد بن جعفر بن زيد العبدى البصرى اختلف الحكم عليه بين الثقة والضعف ، تهذيب جـ ٣ ص ٥ .

(٢١) عبد الله بن عمر أسلم مع أبيه بمكة وهو صغير ، وشهد المشاهد ورد يوم بدر لصغر سنه ، وهو من أهل بيعة الرضوان ، أحد فقهاء الصحابة الأعلام فى العلم والعمل توفى سنة ٧٤ هـ ، تذكرة جـ ١ ص ٣٥ ـ ٣٧ ، تهذيب جـ ٥ ص ٣٢٨ ـ ٣٣٠ ، الحلية جـ ١ ص ٢٩٢ ـ ٣١٤ ، البدء والتاريخ جـ ٥ ص ٩١ .

فاستقر بين يديه فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ولاحظ ملك مليكه ، ولاحظ اقتدار المقتدر بين مجالس نجواه فتخطاه رتبة رتبة فى العلا ، ويصدر عنها بأنوار المراتب الى النفس فانقادت النفس واستقامت فى تلك الخصال التى عددها الله فى تنزيله ، فأوجب الله له الفلاح واسم الايمان بالكلام والتنزيل ، تكلم به ثم أنزله فهو موسوم بسمة الله حتى يلقاه يوم الموقف بتلك السمات فنظر اليه الملائكة ، وينظر اليه الرسول والرسل صلوات الله عليهم ، ثم يبعث به الى الجنـان ويرقيه منها الى الفردوس فينال منها بحظه من الله ويرث عن الباقين حصصهم لأن أولئك قد ماتوا عن الله ، وهذا لقى الله حيا له .

حدثنـا عمر بن أبى عمر(٢٢) العبدى قال : حدثنـا سليمان ابن شرحبيل الدمشقى(٢٣) قال : حدثنا يزيد بن يحيى الصباغ(٢٤) قال : حدثنـا ثور بن يزيد(٢٥) عن خالد بن معدان(٢٦) ، عن جبير ابن نفير(٢٧) عن معاذ بن جبل(٢٨) رضى الله عنه قال : قال رسـول

---

(٢٢) أبو حفص البصرى الضرير مولى عبد الله بن طاوس متروك الحديث متهم ، تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ٤٤٧ .

(٢٣) لم نعثر له على ترجمة فيما بين أيدينا من مراجع .

(٢٤) ذكره فى التاريخ الكبير جـ ٨ ص ٣٧٠ .

(٢٥) ثور بن يزيد الكلاعى الحمصى الحافظ قالوا عنه : انه صدوق حافظ صحيح الحديث ، قال القطان : ما رأيت شاميا أوثق منه وكان متهما بالقدر توفى سنة ١٥٣ أو ١٥٥ هـ راجع تذكرة جـ ١ ص ١٦٥ ، تهذيب جـ ٢ ص ٣٣ .

(٢٦) الكلاعى الحمصى عالم أهل بلده فى زمانه توفى سنة ١٠٣ أو ١٠٤ أو ١٠٨ هـ ، كان من خير عباد الله ، تذكرة جـ ١ ص ٨٧ ، تهذيب جـ ٣ ص ١١٨ .

(٢٧) الحضرمى الحمصى ثقة من كبار تابعى الشام كان من أجلة العلماء توفى سنة ٨٠ هـ على خلاف فى ذلك راجع تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٤٩ ، التهذيب جـ ٢ ص ٦٤ .

(٢٨) صاحب رسول الله شهد العقبة وبدرا والمشاهد كان اماما ربانيا ، قال له النبى : (يا معاذ والله انى أحبك) ، أسلم وله ثمان عشرة سنة وعاش بضعا وثلاثين سنة بعثه النبى الى اليمن معلما وقال عنه : (أعلم أمتى بالحلال والحرام معاذ) كان من أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا وأسخاهم كفا توفى سنة ١٨ هـ ، راجع تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٢٤ ، العبر جـ ١ ص ٢٢ ، تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٨ .

الله صلى الله عليه وسلم : « انه ليس يتحسر أهل الجنة على شيء الا على ساعة مرت بهم لم يذكروا اسم الله فيها »(٢٩) فانما صارت تلك الساعة حسرة عليهم لأن الله بعث أيام الدنيا ولياليها على هيئتها التى كانت الى الموقف فانتصبت للعرض على الله ، وأيام الجمعة تزهو بين تلك الأيام » . كذلك روى لنا عن أنسْ بن مالك(٣٠) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاذا نظر أحدهم الى ساعة ذكر الله فيها ، وجد تلك الساعة مشحونة بذكر الله له فانظر ما فى ذلك الذكر ، فامتلأ العبد فرحا ، واذا نظر الى ساعة أخرى وجدها خالية عن ذكر الله لأنه لم يذكره فى تلك الساعة فى دار الدنيا تحسر ، وانما صارت حسرة لانكشاف الغطاء عن سر القدر الذى طواه الله عز وجل عن رسله وأنبيائه ، فخرجوا من الدنيا عطاشا عن الهجم عليه ، والعمل له لأنهم عجزوا عن احتماله أيام الدنيـــا من أجل النفوس والهوى والعدو .

جعلنا الله واياك من أهل ذكره ، والسعادة به آمين رب العالمين .



---

(٢٩) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ورمز اليه بالحسن ، وقال : انه خرجه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الايمان ، الجامع الصغير جـ ٢ ص ٢٨٥ .

(٣٠) أنس بن مالك النجارى الخزرجى الأنصارى خادم رســول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ، أسلم وهو صغير ، وخدم النبى منذ كان سنه عشر سنين حتى قبض النبى فرحل الى دمشق ، ومنها الى البصرة حيث توفى هناك سنة ٩٣ هـ ، وهو آخر صحابى توفى بها ، روى له البخارى ومسلم أحاديث كثيرة ، العبر جـ ١ ص ١٠٧ ، تذكرة جـ ١ ص ٤٢ ، تهذيب جـ ١ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٩ ، البدء والتاريخ جـ ٥ ص ١١٧ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٣ ص ١٣٩ ـ ١٥٠ ، الأعلام جـ ١ ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

٢١ ـ مسألة أخرى « لا يغفر الذنوب الا أنت »(*)

قال وجدنا قوله : انه لا يغفر الذنوب الا أنت ، فاذا قالها العبد ضحك الرب كذلك روى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدنا أن[1] المغفرة حجاب من الرأفة بين يدى عظمته نصبها للعباد كى اذا انتهى اليها سيء أفعال العباد حجبت الرأفة ذنوب العباد ولم يترك[2] أن يتجاوز بها الى ملك[3] العظمة[4] ، فعل هذا صيانة لعظمته ورحمة على العبــاد ، ولولا الرأفة لأحرقهــم نور العظمة والسموات والأرض ، وتهافت كل شيء وخرج من العظمة ، فاذا قال العبــد : انه لا يغفر الذنوب الا أنت فهــذا ايمان من العبد بتلك الرأفة فاذا صار ايمان العبد الى الله قبله[5] .

والضحك هو انفتاح الشيء فكأنه يؤدى الى أن ضحكه انفتاح الرأفة حتى يدخل فى متوسطها ، فتغمره الرأفة وتكتنفه ، فعندها صار فى كنف الله ، واذا صار فى كنفه وقع فى المــأمن .



(*) ذكرت هذه المسألة فى ولى الدين ورقة ٣٢ / ألف .

(١) ساقط من ليبزج .

(٢) هكذا جاءت هذه الكلمة فى النسختين ومعناها غير واضح .

(٣) فى ليبزج ((تلك)) والصحيح ما أثبتناه من الاسكندرية .

(٤) بعد هذه الكلمة زيادة فى نسخة الاسكندرية يبدو أنها مكررة وهذه الزيادة هى ((ولم يترك أن يتجاوز بها الى ملك العظمة فعل هذا صيانة لعظمته ورحمة على العبــاد ولولا الرأفة لأحرقهم نور العظمة والسموات والأرض ..)) ومن الواضح أن هذه العبارة تكرار لعبارة سابقة مع وجود تداخل فيها ...

(٥) هذه الكلمة ساقطة من ليبزج .

٢٢ ـ مسألة أخرى .. الحمد كلمة جامعة(*)

وجدنا الحمد كلمة جامعة شاملة يخرج العبد بها الى الله من أثقال عطاياه ومننه اذا كانت الكلمة من العبد وافرة ، فان قابله ربه بتعديد النعم ، فقال : أعطيتك خلق نفسك وصورة وجهك وتسوية بدنك ، فماذا أعطيتنى ؟ قال : الحمد ، فان قال : أعطيتك القوة والصحة والمهلة وهو العمر فبها نلت النعم واستعملتها وتلذذت بهـا فماذا أعطيتنى ؟ قال : الحمد . فان قال : أعطيتك العافية من البلاء والسلامة من الآفات فماذا أعطيتنى ؟ قال : الحمد .

فان قال : أعطيتك الدين والطاعات ، فماذا أعطيتنى ؟ قال : الحمد .

فان قال : أعطيتك يسر الطاعات والتوفيق لها والثبات فيها وعليها فماذا أعطيتنى ؟ قال : الحمد .

فان قال : أعطيتك الكلمة العليا فماذا أعطيتنى ؟ قال : الحمد .

فان قال : أعطيتك المعرفة والعقل والعلم والحفظ فماذا أعطيتنى ؟ قال : الحمـد .

فان قال : أعطيتك الكتاب والحكم ، فماذا أعطيتنى ؟ قال : الحمـد .

فان قال : أعطيتك الستر ، فماذا أعطيتنى ؟ قال : الحمد .

فان قال : وقفتك بين يدى فغفرت لك السيئات وقبلت منـك الحسنات ، فماذا أعطيتنى ؟ قال : الحمد .

فان قال : جزت بك الصراط ، فماذا تعطينى ؟ قال : الحمد .

فان قال : جدت عليك برفع الحساب فلم أنصب لك ميزانا ولم أنشر لك ديوانا ، فماذا تعطينى ؟ قال : الحمد .

فان قال : أسكنتك جنانى وأعطيتك ملكها ونعيمهـا ، فمـاذا تعطينى ؟ قال : الحمد .

فان قال : أعطيتك الخلد الأبدى فماذا تعطينى ؟ قال : الحمد .

فان قال : أعطيتك الدرجات العلى ، فماذا تعطينى ؟ قال : الحمد .

(*) قد استوحى النفرى فكرة كتابه « المواقف والمخاطبات » من منهج الحكيم فى هذه الرسالة .

فان قال : أعطيتك زيارتى ومجالستى ، وكلامى فى دارى ، فماذا تعطينى ؟ قال : الحمد .

فان قال : أعطيتك النظر الى فماذا تعطينى ؟ قال : الحمد .

فاذن ليس للعبد أن يعطى ربه شيئا فى جميع عطاياه فى العاجل والآجل غير هذه الكلمة ، فخرج بهذه الكلمة من أثقال جميع عطاياه ، فأية كلمة أجمع وأشمل من هذه الكلمة[1] ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله تملأ الميزان كله »[2] ، وقال : « لو أن الدنيا كلها صارت لقمة واحدة فأكلها العبد ثم قال الحمد لله لكان قد أعطى ربه أكثر مما أخذ منه ... »[3] .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحمد لله رأس الشكر ، وما شكر الله عبد لا يحمده »[4] .

فالشكر فعل الجوارح بطاعة الله ، والحمد كلمة ألف الله للعباد حروفها من خزائن القدرة ، وتلك خزائن الخزائن ، فجعلها معرفة ، فقالها العباد على أقدار علمهم بها ، ومعرفتهم بها ، وحظوظهم من الكنز الذى تضمنته الكلمة .

فان قال الرب تبارك اسمه : يا عبدى ، كلما عددت عليك من نعمة عاجل أو آجل فجعلت ثمنها الحمد ، فقد حططت عنك بهذه الكلمة ، فمن أعطاك هذه الكلمة المؤلفة حروفها المحتشية بكنوزها ، المشتملة على جوهرها ؟

قال : أنت يا رب .

---

(١) ساقطة من نسخة الاسكندرية .

(٢) تمام الحديث : (سبحان الله نصف الميزان والحمد لله تملا الميزان والله أكبر تملا ما بين السماء والأرض والطهور نصف الايمان ، والصوم نصف الصبر) رمز له السيوطى بالصحة ونسبه الى أحمد والبيهقى ، راجع الجامع الصغير جـ ٢ ص ٦ .

(٣) لم أر هذا الحديث بهذه الصيغة عند أحد من المحدثين غير الحكيم الترمذى ، وقد أورد فى الجامع الصغير صيغة قريبة من هذه ورمز اليها بالضعف ونسبها الى ابن عساكر عن أنس راجع الجامع الصغير جـ ٢ ص ٢٥٨ .

جـ ١ ص ٣٨٠ .

(٤) أورد الحديث فى الجامع الصغير ورمز اليه بالحسن وقال : انه أخرجه عبد الرزاق ، والبيهقى فى شعب الايمان ، راجع الجامع الصغير

قال : فما أعطيتنى على عطيتى اياك هذه الكلمة ؟

قال : حمدك الذى حمدت نفسك به رحمة على ليقر حمدى فى حمدك ، فقد علمت أنى اذا أوقفتنى على هذا الحمد وسألتنى شكر هذا الحمد وجدتنى عاجزا مقصرا ، فحمدت نفسك ، فصار حمدك بين يدى عظمتك عش حمد أوليائك وأحبابك ، ثم جعلت لأعين أفئدتهم طريقا الى ذلك العش ليحمدوك فيه ، فيقر حمدهم وحمدك ، فهذا منتهاه .

* * *

٢٣ ــ مسألة أخرى .. اعطاء المعرفة للآدميين

قال (رحمة الله عليه)(١) : أعطى الله الآدميين معرفته فقبلوها ، ثم اعترضهم فعرضوا عليه القبول ، فقبل قبول الموحدين ، ولم يقبل قبول من سواهم ، فوجد الموحدون الثبات بقبولهم اياه فثبتوا ، ولم يجد الآخرون الثبــات فاستهوتهم الشياطين بأهوائهم ، أى دعت أهواءهم الى ما وسوست به من الشرك ، فزالوا عن مقام العرض ، ومالوا عن الله الى عدوه ، وذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حدثنا بذلك أبو طالب الهروى(٢) قال : حدثنا يوسف بن عطية(٣) قال : حدثنا قتادة(٤) عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال ربكم : خلقت عبادى حنفاء فأتتهم الشياطين فاحتالتهم عن

---

(١) ما بين القوسين ساقط من نسخة الاسكندرية .

(٢) لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدى من مراجع .

(٣) هو يوسف بن عطية مولى الأنصار الصفار وهو الذى يروى عن قتــادة ، مجمع على ضعفه ، قال النسائى : متروك . وقال الفلاس : ما علمت كان يكذب . توفى سنة ١٨٧ هـ راجع تهذيب ج ١١ ص ٤١٧ ، ٤١٨ ، المغنى ج ٢ ص ٧٦٣ .

(٤) قتادة بن دعامة الحافظ العلامة كان آية فى الحفظ وكان أعمى ، وكان يرى القدر توفى سنة ١١٧ أو ١١٨ هـ ، تذكرة ج ١ ص ١١٥ ، تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٣٥١ ــ ٣٥٦ .

دينهم . وأمرتهم أن يشركوا بى »[٥] حدثنا الجارود[٦] قال : حدثنا عبده[٧] قال : حدثنا قتادة ، عن مطرف بن عبد الله[٨] ، أو غيره عن عياض بن حماد[٩] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه .

فانما قبل من تلك الفرقة قبولهم للمعرفة لأنه أعطاهم معرفة فى حشوها محبته ، فقبلوها مع الحب له ، فلما اعترضتهم قبل قبولهم لها مع حبه ، ووجد قبول الآخرين خاليا[١٠] عن هذه المحبة المثبتة فلم يقع قبولهم فى قبوله فلم يجدوا الثبات حتى استفزهم الشيطان بصوته ، ودعائه ، وأولئك الفرقة قوم استخلصهم لنفسه فأعطاهم حبه ، وذلك قوله : « **الا عبادك منهم المخلصين** »[١١] .

عرف العدو ما أعطاهم فأيس منهم فاستثناهم فى مقالته ، وقد قال له الرب : « **ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغـاوين** »[١٢] فالغاوون الذين قلوبهم خالية من تلك المحبة ، فلذلك اتبعوه بصوته ودعائه ، وقدر على استفزازهم .

* * *

---

(٥) هذا جزء من حديث طويل أورده مسلم فى أهل الجنة وأهل النار وعلاماتهم فى الدنيا راجع مختصر صحيح مسلم جـ ٢ ص ٢٨٣ ، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى جـ ١ ص ٥٢٢ .

(٦) الجارود بن معاذ السلمى أبو داوود الترمذى وثقه علماء الجرح والتعديل توفى سنة ٢٤٤ هـ ، تهذيب جـ ٢ ص ٥٣ .

(٧) لم نجـد فيمن روى عن قتادة شخصا تحت اسـم عبدة ولعله تحريف عن قرة .

(٨) مطرف بن عبد الله بن الشخير العامرى البصرى الفقيه العابد المجاب الدعوة توفى سنة ٩٥ هـ ، تهذيب جـ ١ ص ١٧٣ .

(٩) الصحيح عياض بن حمار بالراء ، سكن البصرة عاش الى حدود الخمسين ، تهذيب جـ ٨ ص ٢٠٠ .

(١٠) فى ليبزج : ((خال)) .

(١١) الحجر : ٤٠

(١٢) الحجر : ٤٢

٢٤ — رسالة الى بعض اخوانه

وأجاب أبو عبد الله (رحمة الله عليه)(١) بعض اخوانه عن كتاب كتبه اليه : أما ما ذكرت من منة الله علينا بهذا العلم الذى وسعه علينا ، فان للعلم شرة وفترة ، فمن وجد نفسه فى وقت الفترة مع الله كان فى وقت شرته معصوما عن شراهة النفس فيه ، ومن وجد نفسه فى تلك الفترة مع العلم كان فى وقت شرته مفتونا بذلك العلم مخذولا عن شراهة النفس فيها فيصير العلم حجابا ، وفى أس الأمر ان العلم انما ألقى الى العباد ليؤديهم العلم الى الله فاذا صار العلم بهيئة يحجبهم عنه ، فهذا جهل مسمى بغير اسمه ، فنسأل الله الذى رحمنا بديا فظهرت علينا آثار رحمته أن لا يقطع عنا مدد الرحمة •

ولم يزل الاخوان يتواصون بما يرجون به حياة القلوب واتقاد الجمرات فأحسن الله جزاءك فيما وعظت وذكرت وأشفقت وتقبله منـك •

وأما ما ذكرت من الرواية التى رويت أن الله تبارك اسمه قال لداود عليـه السـلام : اذا كنت لى مطيعا فاحذرنى كى لا أصرعك صرعة تكون نكالا بين الأنبياء • فهذه مقالة هائلة تميد منها الأرواح وتزعزع منها القلوب ، ويخمد منها فوران حب الأحباب ، ولعل هذه المقالة لغير داود صلى الله عليـه وسـلم ، فان قلبى نفر من هذا لا من المقالة ، ولكن من ذكر داود ، لأن داود سبقت له من الله تبـارك اسمه من بين الرسل سابقة بارزة بالمحبة الفاضلة • فكان بلغ من غلبة ذلك عليه أنه كان يغار لربه ويقول فى دعائه : رب لا تغفر للخطائين من شدة الغيرة ، ولذلك أعطى من الكتب الزبور ، وهو كله ثنـاء فكان يعمل فى الأحكام بالتوراة وكتابه فى خاصة نفسه الزبور ، وان الله تبارك اسمه صير قسمة المحبين من أموره الثناء ، فالثناء على ألسنتهم أحلى ، وانها لحلاوة الحب وبهائه ، وهم الذين توضع لهم يوم القيامة منابر من نور بين يدى الله حتى يثنوا عليه فيباهى بهم الملائكة ويقول : هؤلاء كانوا فى أدانى المملكة وأنتم فى أعاليها ، وهؤلاء كانوا مع الشهوات والعدو يجرى منهم مجرى الدم ، وأنتم تنظرون الى حجبى ، وهؤلاء أصل خلقتهم من التراب والطين وأصل

---

(١) ما بين القوسين زيادة من نسخة ليبزج •

خلقتكم من النور ، فاليوم لم يأخذهم من هول رؤيتى وانكشاف الغطاء ما يقطع ألسنتهم عن الثناء على ، فهل هذا الا لعظيم علمهم بى ومعرفتهم اياى ، فهم الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان لله عبادا يغبطهم النبيون والشهداء بمكانهم من الله »(٢) ٠ فداود صلى الله عليه رأس المثنين على الله بعد انصراف محمد صلى الله عليه وسلم من المقام المحمود ، قال الله لداود : يا داود مجدنى بذلك الصوت الحسن الرخيم ، فيقول : يا رب كيف وقد سلبتنيه ؟ فيقول : فانى سأرده عليك ، فيقوم داود عند ساق العرش فيندفع بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان ، كذلك حدثنا عبد الله بن أبى زياد قال حدثنا سيار(٣) عن جعفر(٤) عن مالك بن دينار(٥) ، وانما سلبه أيام الحياة حين واقع الخطيئة بح صوته وذهب صفاؤه فرده عليه يومئذ ، فداود صلى الله عليه هذا محله ، فليس بحقيق أن تكون هذه المقالة لمثله فان هذه المقالة تحير قلوب المحبين ، وعليهم من الله رأفة لا يجبهون بمثل هذا ، ومثل هذه الحكايات الدارسة من الزمن الأول قد تداولتها رواة الأمم ، وهذه الامة أخذتها من هؤلاء الرهابنة أصحاب الصوامع أولئك لا يعرفون داود وقدره ، وانما يعرف داود من عرفه يوم الميثاق حيث عرضت الذرية على آدم صلى الله عليهما ، فرأى نورا ساطعا على سائر الأنوار ، فقال : من هذا يا رب ؟ قال : هذا ابنك داود ، فأعجب به اعجابا ، سأل عن عمره فقيل : أربعون(٦)

---

(٢) هذا جزء من حديث مشهور أخرجه أبو داوود فى سننه عن عمر ابن الخطاب ، وأخرجه الطبرانى فى معجمه الوسيط باسناد حسن عن أبى الدرداء رضى الله عنه ٠

(٣) هو سيار بن حاتم العنزى البصرى راوية جعفر بن سليمان ، صاحب القصص والرقائق ، وثقه ابن حبان ، توفى سنة ١٩٩ هـ أو ٢٠٠ هـ ، راجع العبر جـ ١ ص ٣٣١ ، تهذيب التهذيب جـ ٤ ص ٢٩٠ ٠

(٤) هو جعفر بن سليمان الضبعى البصرى ، كان من ثقات الشيعة وزهادها ، توفى سنة ٢٧٨ هـ ، راجع تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٢٢ ، والعبر فى خبر من غبر جـ ١ ص ٢٧١ ٠

(٥) مالك بن دينار السامى الناجى أبو يحيى البصرى الزاهد ، كان يكتب المصاحف بالأجرة ويتقوت بأجرته ، وكان لا يأكل شيئا من الطيبات ٠

قال النسائى : ثقة ، وذكره ابن حبان فى الثقاة ، اختلف فى وفاته : سنة ١٢٧ ، ١٢٣ ، ١٣٠ هـ ، راجع تهذيب التهذيب جـ ١٠ ص ١٤ ، ١٥ ٠

(٦) فى النسختين (أربعين) ٠

سنة فوهب له من عمره ستين سنة ، فاعتبر بهذا ما رأى آدم فى ذلك النور الساطع حتى فرح به فرحا وهب له من عمره ، وذلك النور كان نور المحبة التى فيه حتى جاد بعمره عليه ، ومتى سمعت أن أحدا جاد بعمره فلم يضن به الا آدم عليه السلام ، فذاك لما هاج منه من الحب ، وكذلك عادة المحبين أوفرهم حظا من الحب أظهرهم جودا .

* * *

٢٥ ــ مسألة أخرى « لا تدركه الأبصار »

قوله : « **لا تدركه الأبصار** »(١) فانما ذكر الأبصار ولم يذكر سائر الأعضاء كقوله : لا تامسه الأيدى ولا تشمه الانف ولا تحس به الأسماع لأن البصر فيه حياة الروح ، وبصر الروح فى بصر العين متصل به فهو أحد وأقوى من سائر الأعضاء ، فاذا كان البصر لا يدركه فى حدته وقوته فالأيدى أعجز ، ثم قال : « **وهو يدرك الأبصار** »(١) أى يدرك الحياة التى فى البصر ، ومن احتج بهذه الآية فى شأن الرؤية ودفع الرؤية وأنكرها فليست له هاهنا حجة ، لأن الرؤية هى(٢) انفراج الشىء ، يقال رأى(٣) ورها ، فالهاء بدل الهمزة ، ورها أى انفرج ، وهو قوله : « **واترك البحر رهوا ..** » (٤) أى منفرجا ، وذلك أنه لما ضرب البحر بالعصا انفلق ، فكان كل فرق كالطود العظيم(٥) فمشت بنو اسرائيل فى المنفلق وهو المنفرج بين الطودين ، فذاك الرهو ، فيقال : رها ورأى الهمزة بدل من الهاء ، فانما سأل موسى صلى الله عليه وسلم فقال : « **أرنى ..** »(٦) أى افرج لى الحجاب

---

(١) الأنعام : ١٠٣ (٢) فى النسختين : ((هو)) .

(٣) فى النسختين ((را)) على تسهيل الهمزة وكتابة الياء ألفا .

(٤) الدخان : ٢٤

(٥) يشير الى الآيات التى تحكى انفلاق البحر لموسى : « **فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم** » (الشعراء : ٦٣)

(٦) تمام الآية : « **رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين** » (الأعراف : ١٤٣)

أنظر اليك والنظر هو فعل للعين ينظر جلاله وعظمته وبهاءه ، من غير أن يأخذه يقال : نظر ونضر ، فالنضرة زهرة الوجه والنظرة زهرة العين ، فسأل الرؤية وهو انفراج الحجاب لزهرة العين الى جلاله وعظمته •

وأما الادراك فهو الأخذ ، وهو « الأندرياب » بالاعجمية وبالعربية الادراك الاشتمال ، فأهل الجنة ينظرون اليه ولا تشتمل أبصارهم على ما يرون منه من الظاهرية ، فأما الباطنية فلا قوام لأحد على النظر اليه ولا سبيل اليه ، وهو « افى حكرنكى » بالأعجمية وبالعربية بلا كيفية •

فأما قوله : لا تدركه ، فان نفس الكلمة لا يدرك ، والهاء هو الهوية فانما ينظر العباد الى الصفات فأما هو فلا يدرك فى الدنيا ولا فى الآخرة •

* * *

٢٦ — مسألة أخرى « الوقوف بباب الجنة والوقوف بباب الله »

قال : (رحمه الله)(١) ، الوقوف بباب الجنة لعمال الله والوقوف ببابه الله لقبول مشيئات الله ، فالعمال ينتظرون ما يخرج من العمل حتى يعملوا لهـا ، والعاكفون بباب الله ينتظرون ما يخرج من حكم الله فى الأحوال حتى ينقادوا له عبودة ، أولئك قوم أذن لهم فى دخول الباب وقطع الحجب الى مجالس النجوى ليرجعوا بأنوار تلك المجالس الى القلوب والنفوس ليقووا على قبول حكم الله منقادين مهتشين سرورا وطيب نفس به •

قال أبو عبد الله رحمة الله عليه : تسبيح نبينا صلى الله عليه وسلم : سبحان الله فقط ، وتسبيح سائر الأنبياء عليهم السلام مداخل فى الأشياء •

قال : نظرت ، ما الذى وجد المؤمنون من ربهم حتى استقرته قلوبهم ، فذلك الاستقرار ايمانهم به ، فوجدت العظمة قد ملأت قلوبهم فاستقرت والتوحيد من العظمة والعلو وجدوه ، وبالحياة أحستـه القلوب بالعظمة حتى ملأت القلوب ، وذلك قوله : **« أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس »**(٢) فبدأ فأحيا القلوب بنور

---

(١) ما بين القوسين ساقط من نسخة الاسكندرية •

(٢) الأنعام : ١٢٢

الحياة ثم أبدى لهم من عظمته حتى ملأت القلوب فاستقرت ، ثم قيدها بالحب ، وقيد النفس بحلاوة الحب ، وبها العقل حتى ثبتت .

* * *

٢٧ ــ مسألة أخرى

قوله من وافق من أخيه المسلم شهوة غفر له لأن الشهوة تشغله عن الله : ففزع قلبه هذا الذى جاء بها ، فاستوجب المغفرة ، فالشأن فى هذا الآخر هل صير نفسه فارغا حين انقضت الحاجة .

* * *

٢٨ ــ مسألة أخرى « ولو أنهم آمنوا واتقوا .. »

« ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون »(١) فهؤلاء السحرة شروا أنفسهم بالسحر فحرمهم الله الآخرة ، **« ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق »**(٢) أى نصيب ، فانما قال : علموا لأنهم تركوا الايمان عيانا ، وهم يعلمون أنهم يكفرون بهذا ، فجعامة النفوس فى طلب المنى حملهم على الخروج من الايمان الى الكفر عيانا ، فهؤلاء كفرهم من هذا الطريق وكفر المشركين من طريق آخر ، وذلك أنهم أحبوا أن يروا معبودهم ، فلما أيسوا من ذلك التجأوا الى الأوثان فى المضار والمنافع تقربا الى الله ، وذلك قوله : **« ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى »**(٣) ، وقوله : **« أم اتخذوا من دون الله شفعاء »**(٤) ثم قال : **« ولبئس ما شروا به أنفسهم »**(٥) أى أن نفوسهم طلبت قضاء المنى أن تسير فى ليلة واحدة فتطوى له الأرض حتى يبلغ نيته ، ويعمل أعمالا على مناه ، فأعطى على مناه حيث باع نفسه بالسحر والكفر ، ثم قال : **« ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون »**(١) أى أن صاحب التقوى له مثوبة عند الله أن يطوى له المسافة حتى يبلغ فى ليلة واحدة وفى ساعة واحدة بلدانا كثيرة ويبلغ منيته أن يمشى على الماء وأن تتحول الأشياء له ذهبا وفضة ، فأهل التقوى لهم هذه الأشياء مثوبة بتقواهم لأنهم شروا أنفسهم بالتقوى ، فتبرؤوا من نفوسهم ورفعوا

---

(١) البقرة : ١٠٣ (٢) البقرة : ١٠٢ (٣) الزمر : ٣

(٤) الزمر : ٤٣ (٥) البقرة : ١٠٢

البال منها ، فنالوا المنى ، وأولئك السحرة شروا نفوسهم بالسحر فنالوا المنى .

* * *

٢٩ — مسألة أخرى ((مقاصد سورة البقرة))

سورة البقرة فى أولها نعت المؤمنين ثم نعت المنافقين ، ثم نعت الكافرين ، ثم قصة بنى اسرائيل ونقضهم العهد وما حل بهم ، ثم بعد ذلك أحكام هذه الأمة ، وفرائض دينهم ، فلما انتهى الى آخرها اقتضاهم القيام بظاهر ما فيها وباطنها ، وامتحنهم بقوله : ((**وأن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله**))(١) فضجوا وضاقوا بذلك ذرعا لما فى الباطن من العجائب ، وعلموا أنهم يعجزون عن القيام بالباطن فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتسليم والانقياد لله وطلب العفو ليكونوا منقادين للعبودية جادين فى القيام مفتقرين اليه فى طلب العفو ، فلما فعلوا ذلك نزلت الرخصة والعفو فى أمر الباطن ، ولقنوا الدعاء بالخصال التى دعوا بها فاستجيب لهم ، فخصت هذه الأمة بهاتين الآيتين وبالحاجات التى بعدها ، لأن الامم عرضت ذلك عليهم فأبوا قبولها ، وقالوا : لا نقدر على ذلك ، وهذه الأمة قبلت وسلمت نفسها وطلبت العفو فأجيبت الى ذلك وأكرمت ، ولذلك ما روى أن ((خاتمة سورة البقرة من كنز تحت العرش))(٢) . حدثنا عمر بن أبى عمر ، قال حدثنا على بن المدينى(٣) عن يزيد بن هارون(٤) عن الوليد بن جميل الكندى(٥) أنه حدثهم عن القاسم

---

(١) البقرة : ٢٨٤

(٢) جزء من حديث سيذكره بتمامه بعد .

(٣) هو على بن عبد الله بن جعفر بن تجيح السعدى أبو الحسن ابن المدينى صاحب التصانيف كان من أعلم الناس بالحديث وكان له موقف من محنة خلق القرآن جعل الناس يحجمون عنه وكان يعتذر عن نفسه بالخوف من التعذيب على الرغم من اعتقاده بخطأ القول بخلق القرآن وتوفى سنة ٢٣٤ أو ٢٣٥ هـ ، راجع التهذيب جـ ٧ ص ٣٤٩ وما بعدها ، وتاريخ بغداد جـ ١١ ص ٤٥٨ ـ ٤٧٣ .

(٤) يزيد بن هارون بن وادى أحد الأعلام الحفاظ المشهورين كان ثبتا صدوقا متعبدا حسن الصلاة ولد سنة ١١٨ وتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، راجع التهذيب جـ ١١ ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٥) الوليد بن جميل بن قيس القرشى أو الكندى قالوا عنه : لين الحديث ، راجع التهذيب جـ ١١ ص ١٣٢ .

أبى عبد الرحمن(٦) عن أبى أمامة(٧) عن رســول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أربع نزلن من كنز من تحت العرش لم ينزل منه شىء غيرهن : أم الكتاب فان الله تعالى يقول : « **وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم** » ، وآية الكرسى وخاتمة سورة البقرة والكوثر »(٨) •

قال أبو عبد الله (رحمة الله عليه)(٩) يدل أن هذا كله لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته دون الأنبياء والأمم ، فانما كنز ذلك فى اللوح تحت العرش وخزنه عن الرسل والأمم وكنزه ، والكنز هو شىء مستور مغطى حتى لا يطمع فيه أحد ، فكأنه دل أن القرآن نزل كله جملة ليلة أربع وعشرين من شهر رمضان فوضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا ، فكانت تنزل من(١٠) الآية والآيتين نجوما ، وهذه الأربع كانت مكنوزة تحت العرش •

قوله : « **وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم** »(١١) معناه فيما فهمنا أن القرآن كله فى أم الكتاب لأنه قال : « **انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقــلون** »(١٢) أى بالعربية وهو لسانكم ، ثم قال : « **وانه فى أم الكتاب** » أى ن هذا القرآن فى أم الكتاب ، وأم الكتاب سورة الحمــد(١٣) •

وما فهمنا فى هذا الحديث الذى رواه يزيد بن هارون(١٤) ، ومن ذهب الى أن أم الكتاب هو الذكر فهو كذلك أيضا هو فى الذكر أولا ثم هاهنا •

* * *

---

(٦) القاسم بن عبد الرحمن الشامى توفى سـنة ١١٢ هـ ، راجع التهذيب جـ ٨ ص ٣٢٢ وما بعدها •

(٧) هناك اثنان من الأنصار يسميان أبا أمامة ، راجع تهذيب التهذيب جـ ١٢ ص ١٣ ، ١٤ •

(٨) أورد السيوطى الحديث ورمز اليه بالصحة ونسبه الى الطبرانى راجع الجامع الصغير جـ ١ ص ٩٢ •

(٩) فى نسخة الاسكندرية (رحمه الله) •

(١٠) لفظ (من) ساقط من نسخة ليبزج •

(١١) الزخرف : ٤ (١٢) الزخرف : ٣

(١٣) يقصد بسورة الحمد •• سورة الفاتحة •

(١٤) سبقت ترجمته فى الصفحة السابقة •

٣٠ ـ مسألة أخرى « من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه »

قوله : « **من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه** »(١) فلم يقل من ذاك فيكون دليلا على البعد ، ولكن قال : من ذا يشير الى القرب ولو أن رجلا قرع بابا لقلت : من ذا ولم تقل : من ذاك ، فاذا ناداك من غير قرع قلت : من ذاك ، ألا ترى أنه قال « **يشفع عنده** » فعنـد هو البيرامون بالأعجمية ، وبالعربية حول ولذلك قال : يا موسى اذا تضرع عبادى وخشخشوا حولى أنزلت عليهم الغفران ، وقوله : يشفع أى يسأل حاجته حتى يكون مع قضائها شفعا فانه جاءنى وترا ويريد أن يرجع شفعا ، فالوتر الواحد الذى قد برىء من المزاوجة ، فهو وتر (واشتقاق الوتر ، وتر القوس منه طرفا القوس زوج ، وهذا الوتر وتر على مقدمه لزوج)(٢) ، فكذلك الداعى يجىء وترا يريد أن يرجع شفعا بحاجته فهذه مرتبة الدعاء حين قال : من ذا يعلمك أن صاحب الدعاء يحتاج الى أن يصل الى الباب فيقرعه ليدعو من قرب •

* * *

٣١ ـ مسألة « الروح بدء الأشياء »

قوله : سبحان من تنفس كل حى بروحه ، فالروح بدء الأشياء ، وأول الخلق ، وأول شىء حى ، وكل من يتنفس فانما يتنفس بذلك الروح لأنه أصل الخلق ، قوله : سبحان من حياة كل شىء بتسبيحه ، لأن الحياة منها بدت الحركات ، والله منزه عن الحركات فلما ظهرت حركة الخلق ظهرت المعاصى والجرأة ، فدعا جميع الخلق الى تسبيحه ، فقـال : « **وان من شىء الا يسبح بحمده** »(٣) لينزهوا ولى الحركات عن جميع الحركات لتدوم لهم الحياة التى أبرزها لهم على صـورة الفرس لأن من الحركات ظهرت المعـاصى والاستخفاف بحقه وترك تعظيمه فصارت الحياة التى تبقى على الخلق تدوم وتدر من الحيـاة عليهم حتى يحيوا بتلك الحياة التى أبرزها لهم من الحى الدائم ، ولولا التسبيح لانقطع در الحياة فصارت الأشياء كلها مواتا فاذا نزهوه بالتسبيح دام الادرار على الخلق فحيوا •

---

(١) البقرة : ٢٥٥

(٢) ما بين القوسين غير واضح •

(٣) الاسراء : ٤٤

سبحان من بقاء كل شيء بتقديسه ، فالخلق خرجوا من عند القدوس مقدسين فتدنسوا بالآفات فاذا قدسوه بقيت الزينة التى من القدس بالوفاء منهم مع الأدناس ، ولولا ذلك لتهافتت الزينة عنهم وذهبت زينة الأشياء وحسنها •

* * *

٣٢ — مسألة

« **انك كادح الى ربك كدحا** »[١] فالكدح كالقدح ، يقدح الزند بقداحته حتى يورى الزند ناره المنكمنة فيه ، والآدمى قداحته قلبه ، وزنده نفسه يقدح بمعرفته حتى يورى نور الطاعة فيرفع الى ربه ، وكذلك المعصية يقدح قلبه نفسه حتى يورى ظلمة المعرفة •

* * *

٣٣ — مسألة

قوله : « **خلقنا الانسان فى كبد** »[٢] فقال المفسرون : منتصبا ، وكل شيء من الحيوان فهو منكس فى الرحم غير الآدمى فانه منتصب لأنه خلق للخدمة ، وهؤلاء سخرة ، فالخادم منتصب بين يدى من يخدمه ، وانما قيل : كبد لأن القوة فى الدم الذى فى العروق وبه يقوى الجسد ، ومجمع الدم فى الكبد منه ينقسم فى الجسد ، فالكبادة من الانسان أن يكابد الأشياء بفضل القوة حتى يغلب ويملك ويقهر •

* * *

٣٤ — مسألة أخرى

قوله تعالى : « **أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه** »[٣] أى لا يرجعون الى الله حتى يستحوا من أجل ما قالوا ان له ولدا[٤] تعالى الله ، وافتروا لأنه من رجع الى الله بقلبه فانتهى قلبه الى عظمته استحيا من قوله : لله ولد ، لأن هذا شنع من قوله • ويسألونه المغفرة أى الستر حتى يستر عليهم هذا الذى قالوا بستر الرأفة ، ثم أملهم فقال : « **والله غفور رحيم** »[٥] •

---

(١) الانشقاق : ٦

(٢) البلد : ٤

(٣) المائدة : ٧٤

(٤) جاء فى النسختين بغير ألف •

(٥) المائدة : ٧٤

٣٥ — مسألة أخرى

قوله : « **واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا** »(١) آمنوا بالآيات التى فيها الوعيد ففزعوا منها ، فصيروا الرسول مفزعا فزعوا اليه من وعيد الله الذى آمنوا به فى الآيات ، « **فقل سلام عليكم** »(١) ، أى سعة ربكم وطيبه ونزاهته وانبساطه عليكم . فان القوم أذنبوا فأخذهم وعيده ففزعوا الى الرسول واتخذوه فيما بينهم وبين ربهم وسيلة وشفيعا ، فأمره أن يستقبلهم بسلامه لأنهم جاءوه من غيبة ، وكل من أذنب وترك مركزه بين يدى الله ثم رجع اليه فكأنه جاء من غيبة فأمره أن يقرئهم السلام ثم يبشرهم بعد اقراء السلام ، فقال : « **كتب ربكم على نفسه الرحمة** »(٢) والكتب النظم أى نظم على نفسه وهى ذاته الرحمة ، وهى مائة رحمة التى خلقها للعباد خرجت من الرحمن .. « **أنه من عمل منكم سوءا بجهالة** »(٣) أى بجهالة فى معرفة الرب ، وهو متعمد لذلك ولكنه جاهل بربه ، وكل من افتقد(٤) بقلبه شيئا من صفات الرب فهو جاهل ، ألا ترى الى قوله لمحمد صلى الله عليه وسلم : « **فلا تكونن من الجاهلين** »(٥) وقوله لنوح : « **انى أعظك أن تكون من الجاهلين** »(٦) حيث سأل ما ليس له به علم ، وقوله : « **ثم تاب من بعده وأصلح** »(٧) أى أصلح ما أفسد « **فأنه غفور رحيم** » أى فعول للمغفرة .

* * *

---

(١) الأنعام : ٥٤ (٢) الأنعام : ٥٤
(٣) الأنعام : ٥٤ وكلمة (من) ساقطة من ليبزج .
(٤) كلمة (افتقد) ساقطة من الاسكندرية .
(٥) الأنعام : ٣٥ (٦) هود : ٤٦
(٧) الأنعام : ٥٤ ، وجاء فى الأصل (بعد ذلك) وقد صححناه من المصحف .

٣٦ ــ مسألة أخرى « علامة حب الرجل لعبده »(*)

قال : علامة حب الرجل لعبد من عبيده أن يولى كل واحد منهم عملا دن وراء ، ويقول لذلك العبد تول خدمتى حتى تكون بين يدى ؛ فلولا أنه يحبه ما كان ليطلب منه الكون بين يديه ، وما كان ليوليه خدمته فربنا تبارك اسمه أخرج خلقه من القدرة فولاهم عمل السخرة وأخرج الآدميين من باب الحب الى القدرة فولاهم الخدمة ليكونوا بين يديه ووضع فيهم الشهوة ابتلاهم بها لينظر من يميل منهم عن حلاوة المحبة الى حلاوة الشهوة وعن الفرح بولى المحبة الى الفرح بالهوى الذى هو ولى الشهوة والعدو الذى جنده هذا الهوى ، فمن ذهب(١) بالخدمة وهربوا برقابهم صاروا أعداء فأوفرهم حظا من حبه أولاهم بخدمته وأدومهم كونا بقلبه بين يديه أحبهم اليه وأحلاهم عنده ؛ ولذلك سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى المؤمنين أفضل ؟ قال : أكثرهم ذكرا لله ؛ فانما برز الذكر على سائر الأعمال لكون القلب بين يدى مولاه فكل حركات المؤمنين اذا كان لله فهو خدمته فاذا كان لنفسه فقد صار خادم نفسه فاذا كانت حركاته معصية فقد صار خادم عدوه •



---

(١) هكذا فى النسختين والصحيح : (ذهبوا) •

(*) ذكرت هذه المسألة مكررة فى مجموعة دقائق العلوم ليبزج ورقة ١٢٧ ، صائب ورقة ٤٦ •

٣٧ ـ مسألة أخرى « حب النفس وحب الله »

ليس شيء فى الدنيا أحلى من الكام بالأعجمية ، وهى تشبه النفس ، وليس شيء فى الملكوت أحلى من حب الله ، فاذا وجد العبد حلاوة حب الله غرقت حلاوة الكام فى حلاوة الحب ، وتلاشت فعندها لا يريد العبد الا ما يريد ربه ، وذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حبك الشيء يعمى ويصم »(١) فكلما كسر العبد مشيئة من مشيئاته واحتمل أثقـال المكاره والغموم كان ذلك أكسر لمشيئة نفسه وأضعف فكلما انتقص من هاهنا ازداد من حب الله حتى يذهب هذا كله ، ويبقى ذاك كله مستوليا على القلب • وفى احتمال المكاره والغموم طهارة للقلب لأن أفراح النفس تزايلها ، وفى أفراح النفس دنس للقلوب فاذا جاءت الغموم ذهبت الأفراح وطهر القلب وذبلت النفس فى أثقال المكاره ، ولذلك قال داود عليـه السلام فيما روى : يا رب ، أمرتنى أن أطهر بدنى بالصوم والصلاة فبم أطهر قلبى ؟ قال : بالغموم والهـموم يا داود • فاذا ذاقت النفس طعم حلاوة الحب تشبثت بها ولهت عن حلاوة الكام ، واستمرت مع القلب فى صفاء المعرفة فان صفاء المعرفة فى ترك المشيئات والارادات فهو الراضى عن الله **« رضى الله عنهم ورضوا عنه »**(٢) ، وأعد له رضوانه الأكبر فى الفردوس الأعلى •



(١) قال فى كشف الخفا عن المقاصد : رواه أبو داود والعسكرى عن أبى الدرداء مرفوعا وموقوفا ، والوقف أشبه وفى سنده ابن أبى مريم ضعيف ورواه أحمد عن ابن أبى مريم ، راجع كشف الخفا جـ ١ ص ٣٤٣ •

(٢) المـائدة : ١١٩.

٣٨ ــ مسألة أخرى « الفرق بين الهدية والهبة »

نظرت فى الفرق بين الهدية والهبة فوجدت أن الله تبارك اسمه ذكر فى التنزيل هبة الأولاد فقال : « **يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور** »(١) وقال : « **ووهبنا له اسحاق** »(٢) « **ووهبنا لداود سليمان** »(٣) فذكر الولد بالهبة للبر والفاجر والهدية للأحباب ، وتفسير الهبة أنه خلق من المـاء الذى جرى من الزوجين بشرا وصورة بهية ثم جعله قسمة لهذين الأبوين من ملكه كما يهب الملك من مملكته شيئا لعبيده ، وأصل الخلق من كفين منها كف من الجنة وكف خارج من الجنة وضرب بهما ظهر آدم عليه السلام حتى انتشقهما صلبه فانما تخلق ذلك المـاء خلقة بهية فصارت منه هبة لهما فما كان من عظم وعصب وهبهما للأب خلقتهما وما كان من لحم ودم وعرق فمن ماء المرأة وهب تلك الخلقة للأم ، وأما الهدية فهو مده اليه بمشيئته •



(١) الشورى : ٤٩
(٢) الأنعام : ٨٤ • والأنبياء : ٧٢ • والعنكبوت : ٢٧
(٣) سورة ص : ٣٠

٣٩ ـ مسألة أخرى « المعرفة والعلم والعقل والفهم »

المعرفة والعلم والعقل والفهم والذهن والحفظ (هم)(١) أشياء وضعت فى الآدمى فاذا جاء الاذن صارت(٢) كلها عوامل واذا لم يجىء الاذن (بقيت(٣) على هيئاتها)(٤) (فاذا جاء الاذن صارت(٥) عوامل)(٦) فاذا مرت(٧) مع الاذن بذلك المكتوب على القلب من خبر الايمان قوله : أنتم لى عملتم أو لم تعملوا استنارت هذه الأشياء بنور تلك الكلمة المكتوبة على القلب ، وهو قوله : « **أولئك كتب فى قلوبهم الايمان** »(٨) فاذا عمل العبد عملا فانما يعمل بهذه الأشياء فيصعد الى الله عمله وعقله وذهنه وحفظه وفهمه فكذلك الشىء الذى عمله واستعمل هذه الأشياء فى ذلك العمل فذاك الذى يصعد الى الله منه استعماله لهذه الأشياء ، فكلما صعد الى الله شىء فالمدد من الله واصل الى تلك الأشياء التى هناك ، فهذا شأن المؤمن مع الله أبدا هو يمد تلك الأشياء التى وضعها فيه ، والعبد توجه الى الله فى حشو تلك الحركات هذه الأشياء ، فلذلك جرى اسماهما فقيل علم وعمل ، العلم من الله والعمل من العبد ، ووضع فيه الشهوة فيما سفل منه ، والهوى والنفس فى الجوف والشهوة فيها والهوى مزعجها(٩) ، وذلك حظ العدو منه خلقت(١٠) بباب النار وألقيت اليه فاذا استعمل العبد تلك الشهوة بالهوى لا بالله ، فانما يصعد الى الله فى حشو تلك الحركات ما ألقاه الى العدو ، فعل هذا ليبتلى عباده ويميز الخبيث من الطيب . فمن مال عن الشهوات والهوى والعدو الى الله رشد وسعد ، ومن مال عن الله الى الشهوات والهوى والعدو غوى وشقى وخاب .

* * *

---

(١) هكذا فى النسختين ولعل الصواب : هى .
(٢) فى الأصل : صاروا .
(٣ ، ٤) فى الأصل : ((بقوا على هيئاتهم)) ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٥) فى الأصل : صاروا .
(٦) يبدو أن ما بين القوسين مكرر لا يحتاجه المعنى .
(٧) فى الأصل ((مروا)) .
(٨) المجادلة : ٢٢
(٩) هكذا فى الأصل والمراد غير واضح .
(١٠) لعل المقصود هنا الشهوة .

٤٠ ــ مسألة أخرى « أصل خروج الآدمى »

أصل خروج الآدمى من باب الفرح ، ولى خلقه بيده لأنه خلقه على صورته ، ففى وقت ما خلق جاءت عجلة الفرح ، فخلق آدم فى نور العجلة ، وفى البدء كان خروجه من الفرح ، فلما كان أوان الخلقة ظهرت تلك العجلة حيث عجنت الطينة ، ووُلى ذلك بيده ، فبقى ذلك الفرح فى قلب الآدمى فكلما هاج من الآدمى شىء من الفرح رده فى نفسه عند اهتياجه كان أوفر حظا لأنه لا يزال يرده فى نفسه ، فلا يدعه ينتشر حتى يمتلى جسده من الفرح به ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا فرح غض بصره ، ومن ذلك قال : **« لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين »**[1] أى بالدنيـــا لأنه عار على الآدمى أن يكون ربه ومليكه أظهر خلقه من باب الفرح ليفرح العبد بربه ، ويفرح الرب بعبده ، فيدخل هذا العبد فرح دنيا دنية وشهوة ردية فرد فرح الله ، فلذلك سقطت منزلة الفرحين بالدنيا عند الله ؛ وقال : **« قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا »**[2] .

فالمنتبهون صنفان : صنف فرحهم بفضل الله ورحمته ، والصنف الآخر أعلى منه وصلوا الى أصل الأمر ففرحوا به فغاب فرحهم بفضل الله فى فرحهم بالله لأن الفرح الأول مع ذكر النفس ، والفرح الثانى فرح به بلا مزاج وقال فى تنزيله : **« خلق الانسان من عجل سأوريكم آياتى فلا تستعجلون »**[3] فانما خلق فى وقت غلبه الفرح وعجلته ، فعلم من العباد اذا خرجوا الى الدنيا فذكروه بعدما عرفوه أخذهم مالا يملكون فوعـــدهم فقال :**« ســأوريكم آياتى** (أى صـــفاتى) **فلا تستعجلون »**[4] لأنه اذا عرفه أخذه الشوق وضاق صدره فاذا عاين الصفات بعين الفؤاد سكن واطمأن وسكن غليان الشوق ، فان الشهوات التى حفت النار بها هى موضوعة بباب النار هى شعبة من هذا الفرح وضعت هناك بلوى للآدميين ، وجعل ذلك حظ العدو ، ووضع من هذه

---

(١) القصص : ٧٦ (٢) يونس : ٥٨

(٣) الأنبياء : ٣٧ (٤) الأنبياء : ٣٧

الشهوات فى طينة آدم فجرى فى ولده ، فالعدو ذاك حظه فاذا حرك شيئا منه من الآدمى وجاءت رياح الهوى بما بباب النار من ذلك الفرح اهتاج فى الآدمى فأيد العبد هاهنا بالفرح الموضوع فى المعرفة حتى يرد هذا المهتاج من فرح الشهوة الى الله فيريه من فضله ورحمته حتى يسلم من فتنة هذه الشهوة ويقف على حدوده فلا يتعداها ، ويوجه على أثر ذلك الى الله حمدا فهذه حقيقة المعرفة لما هاجت منه الشهوة ذكر الله بما أيده ورد ذلك الفرح الى الفرح الأصلى الذى منه بدا فكان ذلك مالكا غالبا عليه وانخنس الهوى والعدو ، ومن كان محجوبا عينا فرح غير ذلك الفرح ، أخذه هذا الفرح الذى كان فى الطينة ومازجه الهوى بما جاء به من باب النار ، وهو حظ العدو وصارت تلك الشهوة مستعملة فى غفلة عن الله فعندها يظفر به العدو فان وقع فى الحرام فقد وقع فى النار ، وان تماسك بعصمة الله فهو فى غفلة عن الله ، ولم يتعد الى الحرام ، واستعملها فى غفلة ولم يؤجر عليه فالفرح أمر عظيم صاحبه متوكل ، فالأنبياء فى وثاق العصمة لا يستطيع العدو مشاركة فى أفراحهم بشهوات الدنيا ومن دونهم يخاف عليهم • لأن الأنبياء انما يفرحون بالله فى الأشيـاء ، ألا ترى أن يحيى بن زكريا عليهما السلام أحياه وسماه يحيى ثم قال : ((**لم نجعل له من قبل سميا**))(٥) لأن الحى بالله (لا تتركه حياته)(٦) أن يخطىء أو يهم بخطيئة ، فانما خصه من بين الأنبياء بوفارة الحياة حتى لا يخطىء أو يهم بخطيئة ثم قال : ((**وسيدا وحصورا**))(٧) فالفرح بخروجه لأن فى خروج المـاء منه بملاقاة الأنثى فرح غالب فخصه الله بوفارة الحياة حتى لا يهم بقلبه خطيئة (وحصر ماه)(٨) حتى لا يفرح بذلك الفرح الغـالب ، وأكرم الله محمدا صلى الله عليه وسلم من الفرح الغالب بالعصمة والثبات • فهذا أقوى •

* * *

---

(٥) مريم : ٧

(٦) تقرأ هذه الجملة ((لا تتركه حياته)) وتقرأ أيضا ((لا يتركه حياؤه)) والأولى أنسب •

(٧) آل عمران : ٣٩

(٨) ما بين القوسين جاء هكذا فى الأصل والمعنى غير واضح ، ولعله ((وحصر ماءه)) •

٤١ ــ مسألة أخرى

قوله : **« قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون »**(١) فالكلاءة(٢) من الرب ، ولكنه يعطيك من الرحمن ؛ لأنه من العين يحرسك ، ويكلؤك ؛ أي يرد عنك المضـار والآفات ، وتفسير الكلاءة(٢) التأخير ، ألا ترى الى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه نهى عن بيع الكالى بالكالى »(٣) يعنى النسيئة ، والرب يكلأ لأنه الباذ شا بالأعجمية ، والرحمن فى الباد شاى ، ويعطيك الكلاءة من العين التى منها يجرى التدبير والنظر الى الخلق ، وهو قوله : « عين الله ترعاك » •

قوله : **« خلق الانسان من عجل »**(٤) أى من عجلة الفرح وغلبته وغليانه ؛ فوقع مبتدأ خلقه من هناك ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم وآدم قالب له ، فأخرج الانسان من هناك الى شىء بعد شىء حتى انتهى الى الطينة ثم الى اللحم والدم والروح ، ثم قال : **« سأوريكم آياتى فلا تستعجلون »**(٥) أى أريكم علاماتى ، يقول سأريكم ما جرى من ذلك الفرح وانتصب لكم بين قلوبكم لتعبدوه فلا تستعجلون أى لا يغلبكم الفرح فتستعجلوا قبل وقته ، ولا تقدرون احتماله ، وقد فعل موسى صلى الله عليه وسلم ، سأل الرؤية(٦) فلم يقـدر على احتماله(٧) ، وخر صعقا ثم لجأ الى التسبيح والتوبة •

قوله : **« ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون • فسبح بحمد ربك »**(٨) فالتسبيح مقمة الأرض ، أى أن هؤلاء يفترون على ويشركون بى ويزعمون أنى اتخذت ولدا فقد نجست الأرض ، وضاق صدرك بتلك النجاسة ، فاكنس هذه الأرض ونجاستها وقمامتها بالتسبيح حتى تطهر أرضى فلذلك قيل تسبيح تنزيه •

---

(١) الأنبياء : ٤٢ (٢) فى الأصل الكلاية •

(٣) جاء الحديث فى الجامع الصغير ورمز اليه بالصحة وخرجه الحاكم والبيهقى فى السنن ، الجامع الصغير جـ ٢ ص ٤٢٤ •

(٤ ، ٥) الأنبياء : ٣٧

(٦) يشير الى قوله تعالى على لسان موسى : **« رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك »** (الأعراف : ١٤٣) •

(٧) هكذا فى الأصل ولعل الأصح « احتمالها »

(٨) الحجر : ٩٧ ، ٩٨

٤٢ ـ مسألة أخرى

روى فى الحديث : « أنه لا يبقى فى الجنة من القرآن الا سورة طه ويس » معنـــاه عنـــدنا أن عامة أهل الجنـــة هاتين الأمتين ، بنو اسرائيل وأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن قبلهما من المؤمنين الا عدد يسير ، فعامة أهل الجنة هاتان الأمتـــان ، فطه لبنى اسرائيل ، ويس لأمة محمد صلى الله عليه وسلم •

فأعطيت بنو اسرائيل الحرف الذى افتتح به السورة ، وهو طا ، وهى الرحمة ، وافتتح ســـورة الأخرى بالياء وهو الفـــرح فأمة بنى اسرائيل مرحومة ، وهذه الأمة محبوبة(١) •

* * *

---

(١) لست أدرى على أى أساس بنى الحكيم الترمذى حكمه هذا بأن أن عدد المؤمنين من أهل الجنة من غير أتباع الديانتين الاسلامية والموسوية قليل ، مع أن القرآن الكريم يقرر صراحة فى سورة الواقعة أن السابقين المقربين من أهل الجنة كثير منهم من الأولين وقليل من الآخرين ، وهذا نص الآيات : **((والسابقون السابقون • أولئك المقربون • فى جنات النعيم • ثلة من الأولين • وقليل من الآخرين))** (الواقعة : ١٠ ـ ١٤) وعلى هذا فيكون تفسيره للحديث على النحو الذى أشـــار اليه غير مقبول وكذلك توزيعه للحروف ، فهذه كلها أمور تحتاج الى سند دينى • وقد تكون النصوص الدينية غير متفقة مع ما جاء فى هذه المسألة ، ويتبع ذلك حكمه بأن أمة مرحومة وأخرى محبوبة ومدار الرحمة والحب عند الله مبنى على التقوى والعمل الصالح لا دخل للامم والشعوب فيها ، والله يقول : **((لا ينال عهدى الظالمين))** (البقرة : ١٢٤) •

٤٣ — مسألة أخرى

قوله : ((**وأن الى ربك المنتهى**))[١] ، فالرب اسم الملك ، فالى ما هنا منتهى القلوب ، وهو الظاهر ، وليس وراءه مذهب لأنه باطن ، فالصفات فى الملكة ، وللقلوب فى الصفات مذهب الى الرب الملك ، للملك والصفات ، حدثنا أبو بكر بن سابق الأموى[٢] قال : حدثنا اسماعيل ابن حماد[٣] عن الحكم بن ظهير[٤] عن الحسن[٥] ((**وأن الى ربك المنتهى**)) قال : اذا انتهيت اليه فقف يعنى عن الصفة ، حدثنا الفضل بن محمد[٦] قال : حدثنا أيوب بن محمد الرقى[٧] قال : حدثنا على بن عاصم[٨] عن عطاء[٩] عن سعيد بن جبير[١٠] عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

---

(١) النجم : ٤٢ (٢) لم أعثر له على ترجمة ٠

(٣) فى تهذيب التهذيب اثنان تحت اسم اسماعيل بن حماد أولهما ابن أبى سليمان الأشعرى الكوفى ، وثانيهما ابن أبى حنيفة الكوفى القاضى حفيد الامام ، ويبدو أن الأول هو المقصود ، راجع تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٢٩٠ ٠

(٤) الحكم بن ظهير الفزارى الكوفى متهم متروك الحديث توفى فى سنة ١٨٠ هـ ، تهذيب جـ ٢ ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ ٠

(٥) الحسن بن أبى الحسن البصرى امام أهل البصرة وحبر زمانه ، كان جامعا عالما رفيعا فقيها حجة مأمونا عابدا ناسكا كثير العلم فصيحا جميلا وسيما توفى سنة ١١٠ هـ ، العبر جـ ١ ص ١٢٦ ، تهذيب التهذيب جـ ٢ ص ٢٦٣ — ٢٧٠ ٠

(٦) هناك ثلاثة تحت اسم الفضل بن محمد الأول العطار والثانى الأنطاكى والثالث الشعرانى ، وكل منهم متهم ، راجع المغنى جـ ٢ ص ٥١٣

(٧) أيوب بن محمد الرقى لم ير العلماء به بأسا ، ووثقه النسائى توفى سنة ٢٤٩ هـ ، راجع تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٤١١

(٨) على بن عاصم الواسطى لم يكن متهما وانما كان يخطىء ، وأخذ عليه أنه لم يكن يتراجع عن خطئه اذا صحح ، توفى سنة ٢٠١ هـ ، تهذيب جـ ٧ ص ٣٤٤ — ٣٤٨ ٠

(٩) لعله عطاء بن أبى رباح المكى فقيه الحجاز كان ثقة فقيها عالما كثير الحديث كان أبوه نوبيا وكان اسود مفلفل الشعر أثنى العلماء على علمه وحفظه ودينه وفقهه توفى عن سن عالية يقال انه بلغ مائة سنة وكانت وفاته سنة ١١٤ على خلاف فى ذلك ، تهذيب جـ ٧ ص ١٩٩ — ٢٠٣ ، العبر جـ ١ ص ١٤١ ، تذكرة جـ ١ ص ٩٨ ٠

(١٠) سعيد بن جبير الوالبى الكوفى المقرىء الفقيه المفسر كان فقيها عابدا فاضلا ورعا قتله الحجاج سنة ٩٥ هـ ، تهذيب جـ ٤ ص ١١ — ١٤ ، تذكرة جـ ١ ص ٧٦ ، ٧٧ ، العبر جـ ١ ص ١١٢ ٠

« فكروا فى كل شىء ولا تفكروا فى ذات الله » •

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فكروا فى عظمة الله ولا تفكروا فى الله »[١١] •

« وروى عن سفيان بن عيينة[١٢] فى قوله : « **وان الى ربك المنتهى** » قال : لا فكرة فيه »[١٣] •

قوله : « **أولى النهى** »[١٤] واحدها نهية ، والنهية الغدير الذى ينتهى اليه الماء ، ويستنقع فيه ، وانما سمى غديرا لأنه يغادر فيه الماء أى يبقى ، ويترك فيه ، فانما قيل : « **أولى النهى** » لأنه يجتمع فى صدره العقل والعلم والذهن والفهم والفطنة فهذه كلها نهية •

قال : الرشد والغى ضدان ، قال النضر : الرشد كلمة تجمع الخير كله ، والغى كلمة تجمع الشر كله ، قال أبو عبد الله رحمه الله : الرشد حب البدو وفرحه والغى حب زينة العدو وفرحها ، فاذا عمل فى العبد حب زينة العدو وفرحها صار كالخالى من حب البدو وفرحه ، واذا عمل فيه حب البدو وفرحه خلا من حب زينة العدو وفرحها فلذلك قال النضر : هى كلمة تجمع الخير كله وتلك كلمة تجمع الشر كله ، وهو قوله « **لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين** »[١٤] •• ثم استثنى فقال : « **الا عبادك منهم المخلصين** »[١٤] فانما صاروا مخلصين لأن الله من عليهم بالحب الذى شحن به ايمانهم ، وهو قوله : « **حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم** »[١٥] ومن ذلك قيل فى الولد أن كان من نكاح قيل هذا الولد لرشدة ، واذا كان من زنى قيل لغية لأن

---

(١١) وردت عدة أحاديث فى هذا المعنى مع اختلاف فى اللفظ ، راجع الجامع الصغير ج ١ ص ٣٣١ •

(١٢) سفيان بن عيينة الهلالى الحافظ العلامة شيخ الاسلام محدث الحرم كان اماما حافظا حجة واسع العلم كبير القدر ثقة مأمونا أثنى عليه الشافعى ، توفى فى أول رجب سنة ١٩٧ أو ١٩٨ هـ وله من العمر احدى وتسعون سنة ، العبر ج ١ ص ٣٢١ ، تذكرة ج ١ ص ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، تهذيب ج ٤ ص ١١٧ — ١٢٢ ، الخلاصة ص ١٠٣ ، تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٧٤ ، ١٨٤ •

(١٣) ما بين القوسين زيادة من نسخة الاسكندرية •

(١٤) الحجر : ٣٩ ، ٤٠ (١٥) الحجرات : ٧ •

الأبوين التقيا على فرج أحله الله وأحب ذلك • وفى الزنا التقيا على فرج ألقاه الى العدو فتنة للعباد وبلوى . ألا ترى أن الله يغار على ذلك ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا أحد أغير من الله »(١٦) ولذلك حرم الفواحش •

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أحل الله شيئا أحب اليه من النكاح وما أحل شيئا أبغض اليه من الطلاق »(١٧) وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها سئلت عن الزلزلة فقالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا استفاحوا فى الزنا غار الله فى سمائه فقال للأرض تزلزلى عليهم »(١٨) معناه أن هذا الفرج الذى يلتقى عليه الزوجان هو الفرج الذى منه جرى خلق الآدميين ، واذا صرف الآدميون(١٩) ذلك الفرج الى الفرج الذى أعطى العدو الى تلك الزنية غار الله فى سمائه ، ولذلك أمر حكام الله أن يقتلوه رجما(٢٠) بالحجارة قتل الكلاب ، ولذلك قلب مدائن آل لوط ، ومع الانقلاب رماهم بالحجارة ، وذلك قوله : **« والمؤتفكة أهوى • فغشاها ما غشى »**(٢١) أى رجما بالحجارة ، وذلك قوله : **« فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود • مسومة عند ربك »**(٢٢) مسومة أى معلمة كل حجر باسم صاحبه فانما عظمت هذه العقوبة لأنهم فرحوا ، وصرفوا ذلك الفرج الى حظ العدو الذى أعطى لبلوى الآدميين •

* * *

---

(١٦) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الشيخان والترمذى والنسائى عن ابن مسعود رضى الله عنه ، راجع البيان والتعريف جـ ٣ ص ٢٩٠ ، ٢٩١ تحقيق دكتور الحسينى هاشم •

(١٧) الجزء الثانى من الحديث فى الجامع الصغير وخرجه أبو داود والحاكم ورمز اليه بالحسن ، الجامع الصغير جـ ٢ ص ٢٩/٣ •

(١٨) لم نعثر على هذا الحديث عند أحد من المحدثين غير الحكيم •

(١٩) فى ليبزج (الآدميين) وهو خطأ •

(٢٠) فى ليبزج والاسكندرية (رجم) وهو خطأ •

(٢١) النجم : ٥٣ ، ٥٤ (٢٢) هود : ٨٢ ، ٨٣

٤٤ ـ مسألة أخرى « الغيب والشهادة »

قوله : « **عالم الغيب والشهادة** »[1] فالغيب ما بطن فى الذات ، والشهادة ما ظهر من الملك : الجمال والجلال والعظمة والرحمة والبهاء والبهجة والسلطان ، وما أبرز من الرأفة والحب والشفقة أظهر ربوبيته فخلق خلقه ، فظهرت فيهم نجاسة الشرك والمعاصى ، فرمى بأهل النجاسة الى سلطانه ، وخلق الآدميين مسخرين لتسبيحه وتقديسه وتجلى بالرحمة والقدس لخلقه على عرشه لبقاء النعمة عليهم اجتمعت فبالتسبيح تقوم السموات والأرض ومن فيهن من العرش الى الثرى ، وبالتقديس يدوم ذلك لهم لأن سبحاته تنقى الأحداث وتحرقها وقدسه المتجلى لخلقه يغسل أدناس الأشياء التى تدنست من أحداث بنى آدم . فالقائمون بالتسبيح والتقديس من معدن طهارات القلوب هم امام الخلق فى التسبيح والتقديس وبهم تقوم الأرض وتدوم النعم على أهلها .



---

(١) الرعد : ٩ والآية بتمامها : « **عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال** » والمؤمنون : ٩٢ وتمامها : « **عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون** » والسجدة : ٦ « **ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم** » ، والزمر : ٤٦ « **عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون** » والحشر : ٢٢ « **هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم** » ، والجمعة : ٨ « **ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** » ، والتغابن : ١٨ « **عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم** » .

٤٥ ـ مسألة أخرى

قال : القوة فى العروق ، لأن القوة مع الدم وفى الدم لأن الحياة فى الدم وتجرى فى جميع الجسد الحياة وهى لطافة الروح .

قال تلوت هذه الآية : « **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار (رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما)** »(١) فدار فكرى فى قوله : « **ذلك مثلهم فى التوراة** » ، وقوله : « **ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه** » الى آخر السورة ، لماذا وصفنا عند بنى اسرائيل فى التوراة ، وعند قوم عيسى فى الانجيل ، فوجدت كأنه تبارك اسمه فخر بنا معاشر هذه الأمة على بنى اسرائيل بهذه الخصال التى تظهر منا فى وقتها ، فوصفنا عندهم بالشدة على الكفار والرحمة على المؤمنين فالشدة من الحمية والغيرة لله لشدة حبهم لله ، والرحمة لبين ، والوصلة فى البين فوقعت الرحمة على ذلك البين الذى عليه تأتلف القلوب ، وذلك قوله : « **رحماء بينهم** » فوقعت الرحمة على البين خرج مخرج الفتحة ولم يخرج مخرج الاضافة فيكون رحماء بينهم بخفض النون ، كما تقول : داخلو دارهم ورحماء أزواجهم وأولادهم ، وكقوله : باسطو أيديهم ، فالبين يجرى مجرى الاعراب فاعل ومفعول ومخفوض للاضافة فأما المخفوض فهو كقوله « **وأصلحوا ذات بينكم** »(٢) وأما المنصوب فهو قوله : « **رحماء بينهم** »(٣) وأما المرفوع فكقوله : « **لقد تقطع بينكم** »(٤) فالرحمة واقعة على البين فوصفهم بفعل ذلك .

قال له قائل : وما البين الذى نسبته الى الوصلة ؟ قال : ستر الله الذى ستر به كل مؤمن فأسدله عليه ، فبه تواصل المؤمنون ، وبروحه تحابوا ، وتراءفوا فائتلفوا ، وأما الكفار فقد تقطع بينهم

---

(١) الفتح : ٢٩ وما بين القوسين لم يذكره فى الأصل وانما أشار اليه بقوله : الى آخر السورة .

(٢) الأنفال : ١ وقد ذكرها فى الأصل بدون (الفاء) قبل (أصلحوا) .

(٣) جزء من آية سورة الفتح السابقة فى الهامش رقم ١ (٤) الأنعام : ٩٤.

بما خرجوا من ستر الله ، وتعروا فهم عراة (والمؤمنون[٥] فى ستر الله فلذلك لا يشين)[٥] وان تلوث فى الخطايا ، وآخر ما يهتك من ستوره اذا انهمك فى المعاصى ستر الحياء ، واذا خرج من ستر الحياء فغير مأمون أن لا يستحى الله أن يعذبه ، حدثنا سفيان بن وكيع[٦] قال : حدثنا حسن الجعفى[٧] عن زايدة[٨] عن يزيد بن أبى زياد[٩] عن عمرو ابن سلمة[١٠] عن عبد الله[١١] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من مسلمين الا وبينهما ستر من الله ، فاذا قال أحدهما لصاحبه كلمة هجر خرق ستر الله » فذلك الستر هو الذات ، والبين الفرجة التى بين الشخصين ، وهو مشتق من قوله : بان أى انفصل وظهر ، وهو قوله : « **وأصلحوا ذات بينكم** » وكل شخصين فما بينهما ذات ، وكان فى الأصلين ذات فجعلت تاء لأن الذى بينهما تلك الانسة التى من أجلها سمى انسانا .

ثم وصفهم بالركوع والسجود أخرج ذلك على معنى فعل فقال : « **ركعا سجدا** » يخبر أن ذلك قد صار عادة منهم لأن كثيرا منهم أبوا

---

(٥) الجملة بين القوسين غير صحيحة التركيب وكلمة يشين غير متفقة مع المؤمنون .

(٦) هو سفيان بن وكيع بن الجراح الرواس أبو محمد الكوفى ، كان أهل الحديث لا يرضون حديثه توفى سنة ٢٤٧ هـ تهذيب جـ ٤ ص ١٢٣ ، ١٢٤

(٧) هو الحسن بن الحر بن الحكم النخعى ويقال الجعفى الكوفى نزيل دمشق كان ثقة بليغا جوادا توفى بمكة سنة ٢٣٣ هـ ، تهذيب التهذيب جـ ٢ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .

(٨) هو زائدة بن قدامة الثقفى أبو الصلت الكوفى كان لا يحدث قدريا ولا صاحب بدعة ، كان ثقة صدوقا صاحب سنة من أهل العلم توفى سنة ١٦٣ هـ ، راجع تهذيب التهذيب جـ ٣ ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

(٩) يزيد بن أبى زياد القرشى الهاشمى أبو عبد الله مولاهم الكوفى كان من أئمة الشيعة وثقه بعض العلماء ورده آخرون توفى سنة ١٣٧ هـ ، تهذيب التهذيب جـ ١١ ص ٣٢٩ ـ ٣٣١ .

(١٠) عمرو بن سلمة بن الحارث الهمدانى الكوفى ذكره ابن سعد فى الطبقة الأولى من أهل الكوفة وقال : كان ثقة قليل الحديث وهو الذى بعثه الحسن فى الصلح بينه وبين معاوية توفى سنة ٨٥ هـ ، تهذيب جـ ٨ ص ٤٢

(١١) عبد الله بن سلمة المرادى الكوفى أخو عمرو السابق كوفى تابعى ثقة يعد فى الطبقة الأولى من فقهاء الكوفة ، وكان قد كبر فكان يعرف منه وينكر ، راجع تهذيب جـ ٥ ص ٢٤١ ـ ٢٤٣ .

الركوع فقالوا : لا نحني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا خير في دين لا تحنية فيه »(١٢) ونزلت : « **وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ، ويل يومئذ للمكذبين** »(١٣) وقال آخرون : لا نركع ولا نسجد لا يعلونا أستاهنا ، فأمر الله أهل هذا الدين بالركوع والسجود فقال : « **يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون)** »(١٤) فوعدهم الفلاح على ذلك ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قبض حين خرج الى الصلاة : « أما الركوع فعظموا فيه الرب وأما السجود فقمن أن يستجاب لكم »(١٥) فندبهم الى الدعاء في السجود لأنه في مقام القربة ، ألا ترى الى قوله : « **واسجد واقترب** »(١٦) ثم وصفهم بأنهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا لأنهم وصلوا الى موضع الفضل ، ولاحظوا الرضوان فصارت هذه الخصال عندهم مفروح الله بها ، والفضل من المغفرة وهي الرأفة ثم قال : « **سيماهم في وجوههم من أثر السجود** »(١٧) فمن السجود نالوا نور القربة فصارت سمات ملك الأنوار على وجوههم ، فوصفهم عند قوم موسى بهذه الخصال يفخر بهم عليهم ، ووصفهم عند أهل الانجيل بصفة أخرى يفخر بهم عليهم بتلك الصفة ، وذلك أن عيسى صلى الله عليه وسلم لم يؤازر ولم يعزر على ما جاء به ، وأراهم من آيات القدرة ما لم يكن لرسول قط فيما نعلمه من احياء الموتى وانباء الغيب وابراء الأكمه والأبرص وكانوا لا يزدادون بما يرون منه الا حيرة ونفورا حتى أحاطوا به يريدون قتله فرفع الى السماء ، ومن تابعه كان بينهم في أذى حتى لعنوا على لسانه ، فصاروا خنازير ، ونبينا صلى الله عليه وسلم آزرته الأمة ونصرته وعزرته وفدوه بأنفسهم وآبائهم وأمهاتهم وأزواجهم وذرياتهم ، وظاهروه كل المظاهرة ، وشهد الله لهم بالصدق في كتابه ، فذكر المهاجرين(١٨) ثم قال « **أولئك هم الصادقون** »(١٩)

---

(١٢) الدارمي وابن عوانة وقال عنه الذهبي : ضعيف جدا ، أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المطالب ص ٢١٩ .

(١٣) المرسلات : ٤٨ ، ٤٩

(١٤) الحج : ٧٧ ، وما بين القوسين لم يرد في الأصل فأكملناه .

(١٥) أخرجه وائل بن حجر ومالك بن الحويرث رواه أبو يعلى عن أبي هريرة ، راجع باب الدعاء في (البشير والنذير) .

(١٦) العلق : ١٩

(١٧) الفتح : ٢٩

(١٨) في ليبزج « والمهاجرون » .

(١٩) الحجرات : ١٥ ، والحشر : ٨

وقال « **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** »(٢٠) فوصفهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه ، والشط تلك الفروخ التى نبتت حوله من أصله فتصير ساقا واحدا . أى قاموا بنصرته حتى كأنهم قلوبهم على قلب واحد ، ثم ذكر اعجـاب الزراع بذلك النبات مثلهم عن اعجابه بهم ، ففخر بهم على أهل الانجيل أى أنكم عاملتم رسولى عيسى بما عاملتم وأولئك يعاملون محمدا رسولى بهذه المعاملة ، ثم ذكر اعجابه بهم ليغيظ بهم الكفار والنصرة التى نصرهم ، ولدولة التى أدالها لهم على الكفار . فمن أقام من هذه الأمة تلك الخصال التى ذكرها الله فى التوراة عند قوم موسى ، ووازر نبيه ونصره من بعده فى أن يقيم الحق الذى جاء به على سننه ، ويميت البدع التى ابتدعت من بعده قولا وفعلا حسب طاقته فهو الداخل فى فخر الله ، وصار ممن فخر به الله على الأمتين أمة موسى وأمة عيسى عليهما السلام ، وخرج الى الله فى الموقف واسمه فى الأولياء ، وهو ممن يباهى الله به فى تلك العرصة ، وانما وصف قوم موسى بتلك الخصال لأن موسى صلى الله عليه وسلم كان فيهم عزيزا ، وأتباعه كثير ، وآزروه واتبعوه ، وعاملوا موسى بخلاف ما عاملوا عيسى ، ومع تلك المعاملة الحسنة المحمودة أنبأهم الله عن هذه الأمة أنكم لستم كأولئك فيكن(٢١) لهم تقديما عليهم وعلى سائر الأمم .

مسألة ٤٥ ـ ا ـ مرضاة الله

قوله : « **ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله ، والله رؤوف بالعباد** »(٢٢) فأمله رأفته والرأفة مقتضية لأعالى الدرجات فى الفردوس الأعلى ، والرأفة مشتملة على الذى يناله حتى تكتنفه من لدن خروج الروح ، ومعاينة الرسل وهول القبر ، وهول السؤال ، وحساب القبر وهول الصيحة وهول النشور وهول الحشر وهول الموقف وهول الميزان وهول الجواز على الصراط الى الوصول الى باب الجنة ، فمن نالته الرأفة فقد صار فى وقاية على جميع الشدائد والأهوال ، وكفى ما أراك الله فى الوالدين بولدهما كيف يشتملان على الولد ويتحننان ويعطفان فى جميع أحوال الولد حتى يدفعا عنه آفات الدنيا وآفات جسده من الأسقام ومن الحر والبرد والجوع والظمأ والعرى وجميع

---

(٢٠) الأحزاب : ٢٣

(٢١) وردت هذه الكلمة فى النسختين هكذا ولعل الصواب (فمكن) .

(٢٢) البقرة : ٢٠٧

الشدائد الا ما يعجزان عنه ؛ ومع العجز لهما بالولد فجعة وحرقات وأحزان ووله وحياطة وتحادب وشفقة ورحمة ، فهذا كله عمل الرأفة التى وضعها ربنا تبارك اسمه فى عبده من سر قوله صلى الله عليه وسلم : « والله الذى لا اله الا هو لله أرأف بعبده المؤمن من هذين بولديهما بل رأفتهما فى جنب رأفة الله على عبده المؤمن كتفلة فى بحر لجى »(٢٣) ؛ وأعظم رأفة به أدام فى قلبه اشراق نوره على لسانه طلاقة لقول لا اله الا الله ؛ وفى صدره علم أسمائه ؛ وهو مع الدماء الحرام وفروج الحرام والأموال الحرام كأنه لا يبالى بأمر الله ، والله تبارك اسمه يبالى به ويغفر له ، واذا غفر له لم يبال بما أتاه به من السيئات ، فوضع الله هذه النفس بينه وبين الآدمى وحشاها بالشهوات واللذات والأفراح ، وسلط عليه الهوى ، وجعل للعدو سبيلا الى تسويل ذلك وامداده بما عنده من تلك الأفراح والشهوات بلوى من الله للعباد ، فمن بذل نفسه لله بالتوحيد وأقر بالعبودة وجبت له الجنة مع الحساب ، ومطالبة الحق اياه حقوقه ، ومن بذل نفسه لله فيما افترضه عليه من الأمر والنهى ، وهى الشريعة وجبت له الجنة مع العرض ، وهو الحساب اليسير الذى ذكره الله فى تنزيله ، ومن بذل نفسه لله فى جميع مشيئاته وأقداره وأقضيته فهو الذى ابتغى مرضاة الله فنال بذلك كمال الرأفة فلم يكن يملك العبد شيئا الا نفسه فاذا بذلها لله فقد بذل جميع ما يملك فينال(٢٤) من الله جميع الرأفة التى صيرها حظا له فى جميع أحواله ، فكلما نقص من البذل شيئا انتقص من الرأفة بقدر ذلك فقال هاهنا : **« من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله »**(٢٥) فهذا قد بذل نفسه أجمع فأمله الله الرأفة فقال : **« والله رؤوف بالعباد »**(٢٦) فانما ذكر الرأفة بعقب « شراه » ليأمل العبد فيحقق أمله ليعلم العبد أنه بالأمل ينال كل هذا اذا كان الأمل على الحقيقة ، فكيف اذا دعا وناداه على الحقيقة ، فكيف اذا دعا وناداه بأسمائه اذا كان ذلك الدعاء وذلك النداء على الحقيقة ؛ وكان عالما بالاسم الذى يناديه به فذكر فى الآية : أنه شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والمبتغون فى أعمالهم أصناف : فعامل يبتغى وجه الله وعامل يبتغى ثواب الله وعامل يبتغى مرضاة الله وعامل يبتغى

---

(٢٣) راجع الحديث فى : الترمذى والنسائى وابن عساكر والبيهقى عن أبى هريرة ، الأسرار المرفوعة ص ١٠٦ .

(٢٤) فى الاسكندرية ((فنال)) .

(٢٥ ، ٢٦) البقرة : ٢٠٧

رضا الله ، وعامل يبتغى رضوان الله وعامل يبتغى الوسيلة الى الله ، وعامل يبتغى فضل الله ، وعامل يبتغى محاب الله ، وعامل يبتغى تعظيم أمر الله ، وعامل يبتغى تعزير دين الله ، وعامل يبتغى نصرة حق الله ، وعامل يبتغى نصرة ذات الله ، وعامل يبتغى احياء دين الله ، وعامل يبتغى عبودة الله ، وعامل يبتغى نجاة « من » عقاب الله ، وعامل يبتغى حسن جزاء الله •

فذكر ابتغاء هذه الأنواع قد نطق به الكتاب ثم الرسول •

قال له قائل : أرأيت أن تشرح لنا هذه الأصناف ؟ قال : هذا مشروح فى كتاب الارادات ، وسنذكر الواحد الذى فى هذه الآية من قوله : « يبتغى مرضاة الله » فالمرضاة هو المحل الذى يرضى العبد بذلك الفعل اذا صار الفعل اليه فوقف بين يديه •

وقالب هذه الكلمة هو على مفعل • والمفعل يتجه على وجهين : وجه منه مصدر كقولك : مملك ومخلق وممجاه ومصلاه ، ووجه منه محل كقولك : مسكن ومربط ومرقاه ومرماة ، فالمرضاة هو الموطن الذى اذا صار الفعل الى ذلك الموطن رضى عنه •

قال له قائل : ذكرت أنه يبتغى ذلك المحل ، ولم تذكر أنه يبتغى الرضا فأيهما أكثر ؟ قال : الرضا نفس المعنى والرضوان أعلى منه والمرضاة المحل • فانما ذكر المحل لأن باطن الرضا الفرح ، فرح الله بالعبد فظهارته الرضا ، وبطانته الفرح ، فانما ابتغى المرضاة لأن فى المرضاة وهو المحل انكشاف الغطاء عن الفرح لأن الرضا فى محله منكشف عن الفرح فاذا حل العبد الى المحل انكشف له الرضا عن الفرح ، واذا لم يصل الى المحل وصل اليه الرضا خبرا : أن الله قد رضى عنك ، ومع الخبر كرامة الرضا فقط ، ولم يصل الى الفرح المكنون فى الرضا فانما ذكر فى هذه الآية ابتغاء المرضاة يعلمنا أن من بذل نفسه لله فشراها حتى قيل(٣٧) انه انما حمله على ذلك أنه تراءى لقلبه محل الرضا وانكشف لقلبه فرح الله بالعبد فهاج من قلبه من مكنون ما فى المعـرفة ما قوى القلب قوة وصلت تلك القوة الى النفس ، فوجدت النفس حلاوة ذلك الفرح ، فرفع البال عن أحواله كلها ، ولها عن نفسه فشرى نفسه لله ليصل الى ذلك الفرح ، فاذا تم الشرى ونفذ رفع الى الله روحه ونفسه ، فلم يكن له مقصر عن ذلك الفرح حتى يوصله

---

(٣٧) جاءت هذه الكلمة فى النسختين « قتل » والصحيح ما أثبتناه •

الى ذلك الفرح فيكون ذلك الفرح لعبده ، وذلك قوله : « **بل أحياء عند ربهم يرزقون** »(٢٨) ثم قال : « **فرحين بما آتاهم الله من فضله** »(٢٩) فبذلك الفرح خرج له من فضله ، فذلك المحل الذى وصفنا فيه فرح الله ، ضحك الله هناك الى عبده ، وروى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يضحك الله الى رجل يقاتل فى الصف فلا يلتفت حتى يقتل ، ان ربك اذا ضحك الى عبد فلا حساب عليه »(٣٠) حدثنا بذلك محمد بن يحيى(٣١) قال : أخبرنا على بن الحسن(٣٢) قال : أخبرنا عبد الله(٣٣) قال : أخبرنا الأوزاعى(٣٤) عن يحيى بن أبى كثير(٣٥) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الشهداء عند الله الذين يلقون فى الصف الأول فلا يلتفتون وجوههم حتى يقتلوا ، أولئك يتلبطون فى الغرف العلى من الجنة يضحك اليهم الرب ، ان ربك اذا ضحك الى قوم فلا حساب عليهم »(٣٦) •

---

(٢٨) آل عمران : ١٦٩ (٢٩) آل عمران : ١٧٠

(٣٠) لم نعثر على تخريج لهذا الحديث •

(٣١) هو محمد بن يحيى بن أيوب بن ابراهيم الثقفى أبو يحيى القصرى المروزى المعلم ، ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال النسائى : ثقة كان يحفظ ، وقال مسلمة : ثقة حافظ • راجع التهذيب جـ ٩ ص ٥٠٧ •

(٣٢) هو على بن الحسن بن شقيق بن دينـار بن مشعب العبدى أبو عبد الرحمن المروزى قدم شقيق من البصرة الى خراسان ، قال أبو داود : لم يكن به بأس الا أنهم تكلموا فيه فى الارجاء ، روى عن ابن المبارك وكان يحفظ كتبه توفى سنة ٢١٥ هـ ، تهذيب جـ ٧ ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ •

(٣٣) الامام العـالم أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبـارك الحنظلى المروزى الفقيه الحافظ الزاهد كان سخيا وكانت له تجارة واسعة ينفق منها على اخوانه وكان كثير الأسفار ، رأسا فى الشجاعة والذكاء والجهـاد توفى سنة ١٨١ هـ ، العبر جـ ١ ص ٢٨٠ ، ٢٨١ ، تذكرة جـ ١ ص ٢٧٤ ــ ٢٧٨ ، تهذيب جـ ٥ ص ٣٨٢ ــ ٣٨٧ •

(٣٤) عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى الفقيه امام الشاميين ، كان رأسا فى العلم والعمل جم المناقب أثنى العلماء على علمه ونسكه وتقواه وصدقه توفى سنة ١٥٧ هـ ، العبر جـ ١ ص ٢٢٧ ، تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٧٨ ــ ١٨٣ ، تهذيب التهذيب جـ ٦ ص ٢٣٨ ــ ٢٤٢

(٣٥) يحيى بن أبى كثير أحد الأعلام كانوا يعدلونه بالزهرى وهو ثقة وعلى الرغم من ذلك فقد قيل عنه انه كان يدلس توفى سنة ١٢٩ هـ راجع العبر جـ ١ ص ١٦٩ ، تذكرة جـ ١ ص ١٢٨ ، تهذيب جـ ١١ ص ٢٦٨ ، التاريخ الكبير جـ ٨ ص ٣٠٢ (٣٦) راجع الحديث فى كنز العمال جـ ٤ ص ٤٠١ •

٤٦ ــ مسألة أخرى «الرسل أعلام الخلق»

الرسل أعلام الخلق ، والخلق كالجند يؤمون العلم ، فمن شذ عن العلم أسره العدو ، لأنه يتخلف عن العسكر والجند ، فجعل الله سليمان صلى الله عليه وسلم[1] علما للأغنياء ، وعيسى صلى الله عليه علما للفقراء ، فاقتضى الأغنياء الشكر فوجده عند سليمان فأثنى عليه فى تنزيله . واقتضى الفقراء الصبر فوجده عند عيسى عليه السلام فأثنى عليه ، فنص أسماءهم فى سورة الأنعام فشهد لهم بالهدى ، وأمر نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بهداهم فقال : « **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** »[2] سوى ما ذكر سليمان فى تنزيله فى غير آية ، وذكر عيسى فقال : « **انا وجدناه صابرا نعم العبد** »[3] وذكر سليمان فقال : « **نعم العبد انه أواب** »[4] وقال : « **هــذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب** »[5] ففتح على سليمان صلى الله عليه باب الرأفة حتى تهنى بالملك لا بالملكة ، وفتح لعيسى طهارة القدس وأدناس الدنيا فكان يعاف الدنيا لأنه روح الله وطهارة القدس معه ، وخلقه فى[6] رحم أمه منزها عن شهوة الآدميين ــ والتقاء الزوجين يجرى المــاءين بالشهوة ــ فكان طاهرا ، وكان اذا لاحظ طهارته وقدسه عافه الدنيا لأنه ينظر الى الأدناس واحتجبت عنه الرأفة فبذلك خرجا من الحالتين محمودين ، وأعين هذا بما فتح له وأعين الآخر بما فتح له .

* * *

---

(١) ساقط من نسخة ليبزج .   (٢) الأنعام : ٩٠

(٣) سورة ص : ٤٤ ، ولكن هذه الآية جاءت تتحدث عن أيوب عليه السلام لا عن عيسى .

(٤) سورة ص : ٣٠   (٥) سورة ص : ٣٩

(٦) فى ليبزج ((من)) بدلا من ((فى)) .

٤٧ ـ مسألة أخرى

قال : من(١) هم الذين أعطوا السراج ؛ والقسط قسطان الدين على قلوبهم فالحق يملكهم ويستعملهم بسلطان الحق ، وبسلطان الحق يأمرون الخلق ؛ فلهم امرة الدين وملوك العلم الذين علموا العلوم الباطنة فلم يملكهم العلم بل هم ملكوا العلم ، والله ملكهم فلم يتركهم مع العلم ، أعطاهم العلم ثم أخذهم من العلم ليكونوا له وخدمة بين يديه •

قوله : التحيات ، فكل شيء من العرش الى الثرى فانه خرج من الحياة فاذا قال : التحيات لله(٢) فقد نسب الأشياء كلها الى تلك الحياة •

قوله : والصلوات ؛ يعنى كل من انتصب لمنصب يستدر منه شيئا ، وكل قائم بين يدى آحد فذاك كله لله لقيوميته قام الخلق له واستقام • والطيبات ، فهن الكلمات الأربع فسبحان الله تطهير للأشياء كلها لأن الحدث الذى أحدثه ابن آدم ، وهو الشرك دنس ونجس الأشياء كلها . فسبحان الله تطهر الأشياء ، والحمـــد لله للنعمة ، وذلك أن الآدميين والخلق كلهم يتناولون النعم مع التبعة ، فالتبعة تمرر عليهم النعمة فاذا قال : الحمد لله تحلو الأشياء ، ولا اله الا الله كلمة تعليق فبها يقطع العلائق كلها • وبتكبيره دق كل كبر فى الدنيا فى أجواف المخلوقين ، وفى كل مكان دق هذا الكبر لكبريائه الذى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم •



---

(١) فى النسختين زيادة ((الذين)) بعد ((من)) وهو تكرار لا مبرر له •
(٢) لفظ الجلالة ساقط من نسخة ليبزج •

٤٨ — « القسمة والهبة »

قال (أبو عبــد الله رحمة الله عليه)[١] : نظـرت فى قوله : **« يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور • أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير »**[٢] وفى قوله : **« نحن قسمـنا بينهم معيشتهم »**[٣] فوجدت الأولاد هبة والأموال قسمة ، فالهبة من الجود والكرم ، والقسمة من الحكمة والعدل ، فحكمه نافذ بعدله على ذلك كله ، أعطى ثم أخذ •

فقلت : أما هذه الأموال فانها كانت قسمة بين العبيد كالعوارى لا كملك الأيدى ، أعطوا قواما ومتاعا ، وللمعطى أن يأخذ ويقبض ويبسط ، فما بال هذا الذى سماه هبة ثم قبضه ، وليس فى الهبة ارتجاع بين العبيد ، ومن ارتجع موهبته فهو مذموم فى دنياه عند أهلها ، وكان الله قادرا أن يؤخر آجال الأولاد حتى يكون نفادها بعد خروج الأبوين من دار الدنيا حتى لا يكون فى الهبة ارتجاع ، فطلبت[٤] : على أى شىء وقعت الهبة من هذا الولد حيث سماه هبة ، أعلى جسده ؟ فجسده مأخوذ منه للبلى والفنا أم على روحه فروحه مقبوض ، أم هاهنا شىء غير هذين فعلى هذا الشىء وقعت الهبة ، فمات الولد وبقى ذلك الشىء مع الوالدين ولم يرتجع الرب تبارك اسمه فى هبته ، فالتمست ذلك الشىء فوجدته الريح •

قال له قائل : ما الريح ؟ قال : ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا بذلك عبيد الله بن يوسف الخبيرى[٥] قال حدثنـا ابن عيينة[٦] عن ابراهيم بن ميسرة[٧] عن ابن أبى سويد[٨] عن عمر

---

(١) ما بين القوسين ساقط من نسخة الاسكندرية •

(٢) الشورى : ٤٩ ، ٥٠ (٣) الزخرف : ٣٢

(٤) طلبت هنا بمعنى سألت •

(٥) توفى بعد سنة ٢٥٠ هـ تهذيب جـ ٧ ص ٥٧ •

(٦) أخو سفيان كان سليما صدوقا لم يكن من أصحاب الحديث توفى سنة ١٩٧ أو ١٩٩ هـ ، تهذيب التهذيب جـ ١ ص ١٤٩ ، ١٥٠ •

(٧) الطائفى نزيل مكة كان من أوثق الناس وأصدقهم مات فى خلافة مروان بن محمد قبيل سنة ١٣٢ هـ ، تهذيب التهذيب جـ ١ ص ١٧٢ •

(٨) هو محمد بن أبى سويد الثقفى الطائفى ، راجع تهذيب التهذيب جـ ٨ ص ٢١١ •

ابن عبد العزيز(٩) قال : زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « خرج وهو محتضن أحد ابنى ابنته ، وهو يقول : انكم لتبخلون وتجبنون وانكم لمن ريحان الله »(١٠) ، قال له قائل : وما ريحان الله ؟ قال : ريح الرأفة وريح الحياة فليس شىء أطيب منهما ، ألا ترى أنه اذا خرجت الحياة من جسد نتن ، فمن طيب الحياة وطيب الجسد ، وأما الرأفة فانما (خصت بالأبوين)(١١) عونا لهما على تربية الولد والعطف عليه واحتمال أذاه ورضاعه وتربيته ، ألا ترى الى قول أبى بكر حيث قال لعمر رضى الله عنهما حيث خاصم امرأته فى ولد بينهما ، وكان قد طلقها فأراد أن يأخذ الولد ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا عمر ريحها ولفاعها خير له منك .

فالأم فضلت بالرأفة على الأب ، فبريح الحياة جرت النطفة حتى حملت ، وخلق منها ، وبريح الرأفة تغذى المولود ، فاذا شما هـذا الولد شماه بريح الحياة وريح الرأفة ، فاذا مات الولد بقيت معهما ريح الرأفة وافتقدا ريح الحياة فبكيا واحترقت أجوافهما ، وتفجعا لأن الرأفة فعلت فيهما فلم يرتجع الرب تبارك اسمه فى الرأفة التى وهبت لهما وكانا أيام الحياة يتلذذان برؤية هذا الولد ويفرحان به بتلك الرأفة التى يشمان منه ألا ترى أنهما لا يجدان لسائر أطفال الناس ذلك الطيب ، ألا ترى أن الولد اذا أدرك مدرك الرجال فأحدث ذنبا انتقصت الرأفة فى نفسها ، فكلما ازداد الولد حدثا فى أمر الله من طريق الذنوب ازدادت الرأفة خمودا حتى لا يبقى الا الرحمة لكثرة الذنوب . فتصيبهما من الولد تلك الرأفة التى وضعت فتلك الموهوبة ، فاذا فقدا حياته وشخصه قادت جمرة الرأفة فأحرقت ودمعت العينان ، وللرأفة سلطان ولها عبرات تخنق وتفتق مجارى الدمع من الرأس ، فالرأفة كائنة فيهما حتى يلقيا الرب ، وغدا يوضع الولد فى ميزانهما ذلك لتعلم

---

(٩) الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز خامس الراشدين كانت ولايته المدينة وخلافته غرة فى تاريخ بنى أمية وتاريخ الاسلام كان يقال له أشج بنى أمية توفى سنة ١٠١ هـ ، العبر جـ ١ ص ١٢٠ ، تذكرة جـ ١ ص ١١٨ كان ثبتا حجة حافظا قانتا لله أواها منيبا .

(١٠) راجع الحديث فى البيهقى وابن حميد قال عنه صاحب الأسرار : رجاله رجال الصحيح وأخرجه الحاكم على شرط البخارى ومسلم .

(١١) فى ليبزج « خصت بها الأبوين » والصحيح ما أثبتناه ويبدو أن ((ها)) زيادة من الناسخ .

أن الرب لم يرتجع فى هبته ، والكافر أشرك به فى ملكه غيره ، وزعم أن هذه الهبة له فيها شريك ، فرد الهبة عليه ، فاستلبها •

قال له قائل : فالكافر لا رأفة له على الولد ؟ قال : لا ولا الرحمة أيضا تلك عادة النفس وألفها وشهوتها اشتهت النفس فأعطيت ولدا ، وألفت بما أعطيت ، فاذا أخذ منها بكت ، قد نزع الله الرأفة من الكفار ، بقى هاهنا شىء من الرحمة أبقاها فيهم ، فقسمها بين الخلق أجمعين من الآدميين والوحوش والدواب والطيور ، ألا ترى الى قول الأقرع ابن حابس[١٢] حيث قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن والحسين رضى الله عنهما ، فقال الأقرع : ان لى عشرة من الأولاد ما قبلت منهم واحدا قط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما يمنعنى اذا كان الله قد نزع من قلبك الرأفة والرحمة ، ومن لا يرحم لا يرحم »[١٣] أو كما قال ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلثم فاهما ويحملهما على عاتقه ، وربما برك لهما وحملهما على ظهره ويدور بهما فى حجرته ، وروى لنا عنه صلى الله عليه وسلم « أنه صلى بالناس احدى صلاتى العشاء فأطال سجوده من صلاته فلما قضى صلاته قال له أصحابه : يا رسول الله ، لقد أطلت السجود حتى خفنا أنك مقبوض ، فقال : « ان ابنى هذا ارتحلنى فكرهت أن أعجله »[١٤] •

قال رحمه الله : أن(*) عطفه على الولد فلرقة النفس وهشاشتها لحب الولد ولعادة النفس والفها ، فأما الرأفة فمنزوعة منه والرأفة مقرونة بالايمان فالمؤمن أعطى الرأفة مع الايمان ثم أعطى الولد مع الرأفة وجعل حظه منه تلك الرأفة فهى الهبة ، والكافر أعطى الولد مع الرأفة هبة فرد لكفره وشركه ، فبقى الولد شخصه ، وروحه عنده وضاعت الهبة فلم يرتجع ربنا فى هبته ، ولكن الشقى ردها •

---

(١٢) الأقرع بن حابس التميمى كان فى وفد بنى تميم لما قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم ، شهد مع النبى فتح مكة وحنينا والطائف وشهد مع خالد فتح العراق والأنبار ، كان شريفا فى الجاهلية والاسلام ، راجع أسد الغابة جـ ١ ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ •

(١٣) راجع الحديث فى أسد الغابة جـ ١ ص ١٣٠ •

(١٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك على شرط البخارى ومسلم وأقره الذهبى فى التلخيص باب فضل آل البيت مناقب الحسين بن على •

(*) لعل « ان » هنا بمعنى « أما » •

فالمؤمن يوضع ولده فى ميزانه محياه ومماته ، فان عبد الله فى حياته كان للوالدين مثل أجر الولد ، وان استغفر لحقهما استغفاره ، وان قدماه وجداه فرطا ورايدا عظيما ، والكافر حرم لك كله بما ضيع من قبول الهبة بشركه •

حدثنا محمد بن صدران السلمى البصرى(١٥) قال حدثنا طالب ابن جحير(١٦) قال : سمعت أبان بن أبى عياش(١٧) يحدث عن أنس ابن مالك(١٨) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تزوجوا فانى بعثت مكاثرا ، ما من رجل يخلف ذرية من بعده يعبدون الله الا جعل الله له مثل أجورهم ما عبد الله منهم عابد حتى تقوم الساعة »(١٩) •

* * *

---

(١٥) هو محمد بن ابراهيم بن صدر بن سليم بن ميسرة الأزدى السليمى أبو جعفر البصرى المؤذن •

قال عنه ابن أبى حاتم عن أبيه : شيخ صدوق •

وقال الآجرى عن أبى داود : ثقة •

وقال النسائى : لا بأس به •

وذكره ابن حبان فى الثقات ، قال ابن أبى عاصم : مات سنة ٢٤٣ هـ وقال فى موضع آخر : مات سنة ٢٤٧ ، راجع تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ١١ ، ١٢

(١٦) هو طالب بن حجير العبدى أبو حجير البصرى ، قال عنه أبو زرعة وأبو حاتم : شيخ ، ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال ابن عبد البر : هو عندهم من الشيوخ ثقة ، وقال ابن القطان : مجهول الحال • راجع التهذيب جـ ٥ ص ٨ •

(١٧) هو أبان بن أبى عياش فيروز أبو اسماعيل مولى عبد القيس البصرى ، قالوا : انه كان رجلا صالحا ولكنه بلى بسوء الحفظ وقد كاد أن يتفق أهل العلم بالحديث على ترك الرواية عنه لضعفه وغلطه توفى سنة ١٣٨ هـ التهذيب جـ ١ ص ٩٧ ، ٩٨ •

(١٨) هو أنس بن مالك بن النضر خادم رسول الله دعا له النبى بكثرة المال والولد ودخول الجنة اختلف فى وفاته ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ هـ عاش مائة سنة أو تزيد ، التهذيب جـ ١ ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ •

(١٩) خرج الحديث الامام أحمد فى مسند ابن عمر جـ ٤ ص ١١٣ ، والترمذى فى السنن عن أبى هريرة تحقيق د • الشيخ أحمد شاكر •

٤٩ ـ مسألة أخرى

نظر الى طائر مثل الموضع على وتد لا ينشط ولا يطرب ، فدام على ذلك شهرا أو نحوه ، وذلك الصبى يمسكه على ذلك الوتد يربيه ويغذيه فلما ألفه أخذ يترنم ترنم العندليب بألوان وألحان ، فاشتعل الصبى نارا من توقد الفرح والاعجاب به ، واحمر وجهه من السرور به .

فقال أبو عبد الله : هذا ترنم الطائر وسرور ممسكه به فكيف بالمؤمن اذا أخذ فى الترنم فى تسبيح السبوح وتقديس القدوس ، ومدائح العزيز المـاجد وثناء المعبود ، كيف يكون فرح مولاه وسروره فى ذلك الوقت ، وفى وقت تلاوة القرآن ، فاذا كان على مثل الهيئة الأولى كيف يهون عليه ويخسر حظه منه ؟!

وأطهرهم قلبا ، وأصفاهم خلقا أحسنهم صوتا وأشهاهم ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الله أشد أذنا الى حسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة بقينته »[1] .

* * *

(١) أخرج الحديث البيهقى وابن معين والدارمى عن أبى هريرة وحسنه الاذرعى فى حجة القراءات .

٥٠ ـــ «ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا»(١)

قوله : « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا »(٢) قال : قال علي بن طلحة(٣) عن ابن عباس رضى الله عنهما : من حرم قتلها الا بحق حيى الناس منه جميعا ، وكذلك من أباح قتلها فقتلها فقد صار الناس جميعا منه مقتولين ، روى فى الخبر أنه قال لداود : يا داود لأن تأتينى بعبد أبق أحب الى من عبادة الثقلين » ، فهذا العبد حيي بالله من دعائك اياه الى الله فاذا صرت أنت بمحل من القربى ، والمقام فى القربة أن يجيبك واحد الى الله حتى تأتيه ، فقد قمت المقام الذى لو دعوت الناس كلهم أجابوك فان لم يجيبوك فعليهم الوبال وصرت أنت معذورا ، واذا لم يجبك واحد حتى تأتى به الله فانك لم تصل بعد الى المحل ، فلذلك لم يجبك فلم تصر عند الله معذورا ، فيقال لك كيف لم تصر الينا من قبل أن تدعوه فان دعوته وأنت هارب عنا فكيف يجيبك الهراب فتحتاج الى أن تحيا أنت أولا ، وتصير اليه حتى يحيا بحياتك ودعوتك من الحياة التى فيك ، والمقام الذى أنت فيه فيجيبك فاذ أجابك واحد فكأنما أجابك الجميع لأنك قمت مقام من يجب على الجميع أن يجيبك فمن تولى بعد ذلك فما أنت بملوم .. وذكر بعد ذلك « فان الذكرى تنفع المؤمنين »(٤) ان لم يجيبوك فى الاتيان الى أجابوك فى الطاعات والبر والتقوى ، ولا تزول عنك اللائمة حتى تصل الى ربك ثم تدعو فاذا دعوت بعد ذلك فأبطأت(٥) نفوسهم فأنت معذور كما عذر الله نبيه .

* * *

(١) لم ترد هذه المسألة على أنها مسألة مستقلة ولكن لما كان موضوعها مستقلا عما قبلها رأينا أن نجعلها موضوعا مستقلا واتخذنا لها الآية التى صدرت بها عنوانا .

(٢) المائدة : ٣٢

(٣) على بن أبى طلحة واسمه سالم بن المخارق الهاشمى يكنى أبا الحسن أصله من الجزيرة وانتقل الى حمص اختلف فيه رأى علماء الرجال بين الانكار والضعف والقبول وذكره ابن حبان فى الثقات توفى سنة ١٤٣ هـ ، راجع تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٤) الذاريات : ٥٥

(٥) فى الأصلين (فبطت) بغير الهمزة .

٥١ ـ مسألة أخرى « الجهاد »

أمر الله تبارك اسمه بالجهاد ، فصار الجهاد على ضربين مجاهدة العدو بالسيف ومجاهدة الهوى والنفس بسيف ترك المشيئة ، ووعد على مجاهدة العدو الجنة وعلى مجاهدة النفس والهوى الوصول اليه ، فاذا جاهد العدو فقتل وجد السبيل الى الجنة فتنعم بالجنة ونعيمها ، فاذا جاهد النفس والهوى حتى ماتا وجد السبيل الى العرش الى مكان القربة ثم الى مجالس النجوى ٠

فقال فى جهاد العدو : « **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون ٠ يبشرهم ربهم برحمة منه (ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم)**[١] »[٢] ٠

وقال فى جهاد النفس : « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (وان الله لمع المحسنين)**[٣] »[٤] ٠



(١) ما بين القوسين لم يذكر فى الأصل وانما أشار اليه بقوله : الى آخر الآية ٠

(٢) التوبة : ٢٠ ، ٢١

(٣) ما بين القوسين لم يذكر فى الأصل وانما ذكرناه اتماما للآية الكريمة ٠

(٤) العنكبوت : ٦٩

٥٢ — مسألة أخرى « جملة العبودة »

قال : جملة العبودة أن الله تعالى خلق أجسادنا قوالب(١) ليضع فيها ما يبرزه العبد بحركاته بتلك الحياة التى فى روحه ونفسه ، والروح سماوى وفيه الحياة ، والنفس أرضية وفيها الحياة فهما يحركان الجوارح .

فوضع فى القلب المعرفة ، وفى الصدر علم المعرفة ، وفى الرأس عقل المعرفة(٢) ، وفى الناصية المقدور . وجعل الذهن والفهم والفطنة من جنود العقل ، ووضع فى النفس الشهوة ، وجعل قائدها وسائقها الهـوى .

واعلم أن هذه الشهوات وضعت فى النفس من الشهوات التى حفت بها النار ، وأعلم فى تنزيله عظيم ضرر الهوى فقال : **« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن »**(٣) .

فهذا الهوى المفسد لهذه الأشياء قد انقسمت من ابن آدم فى جميع حركاته خيرا وشرا وحسنا وسيئا ، فمن عرف هذا فقد أصاب رأس حبله الذى يؤديه الى الله ، وانكشف له الغطاء عن الداء .

فالمؤيد السعيد تبحر فى المعرفة وتفنن فى علم المعرفة وتشبث بالمعرفة وتفرغ بذهنه وفهمه وفطنته فى جميع أموره وتعلق بالله قلبه حتى أتاه اليقين ، وهو الفرح الذى سبق له من الله ، فلم يزل يحشو قلبه وصدره وجوارحه بما أعطى فى قلبه وصدره حتى صار زكيا مرضيا فالزكاوة من الخشية التى اختشى .

* * *

---

(١) فى الأصلين (قوالبا) وهى صيغة فواعل لا تنون للمنع من الصرف .

(٢) الذى يعرف نظرية الحكيم فى المعرفة يرى أنه هنا أعطاها تقسيما لم يكن موجودا من قبل اذ جعـل المعرفة فى القلب وعلمها فى الصـدر ، وعقلها فى الرأس ، وهو توزيع جديد لتلك المعرفة وأماكن قادتها .

(٣) المؤمنون : ٧١

٥٣ ـ مسألة أخرى « علم القالب »

قال : خلق الله على فؤاد الآدمى عينين وأذنين ، ثم من على من شاء منهم بنور الحياة حتى فتح عينيه بذلك النور وسمعت أذناه بذلك النور ، وفتح لهم طريقا الى العرش لينظروا الى عظمته وجلاله ، فمن فتح عينيه فلاحظ عظمته بقى قلبه هناك ، وتصرفت أركانه فى أموره على رضى ربه وحدوده ، وسمعت أذناه كلامه فأخذ بقلبه ما سمع وما أبصر .

ومن ثقلته شهواته والتفتت اليها نفسه صار حجابا عن ملاحظة العظمة وعن سمع الكلام فبقى مع النفس والهوى فليست له حيلة دون مجاهدة النفس حتى تتخلى عن جميع هذه الشهوات حتى تزايله حلاوتها ويزايله الهوى فيطهر القلب ويصفو لربه فعندها يصلح للقربة .

قوله : « **يا أيهـا الذين آمنوا** .. » فعلمت أن اسمك فى قوله يا أيها الانسان ، فالانسان نسبتك ، والذين آمنوا كنيتك كنى عن اسمك فنسبك الى فعلك المحمود وهو ايمانك به ، وهو المـان عليك بذلك وأحاله عليك ودعاك به فهذه كنية ، ثم مدح المؤمنين وبشرهم ورفع مراتبهم فى آيات كثيرة فى التنزيل فدعاك بالكنية فما ظنك بملك عال رفيع وضع نفسه لبعض عبيده حتى دعاه بالكنية .

فهذا شرحنا فى الجليل فأما شرحنا فى الدقيق اللطيف فانه دعا فقال : « يا » فأعلم مافى الياء وما فى الألف ، وأعلمنا مافى الألف من قوله : « أى » وما فى الياءين لأنها مضاعفة ، وأعلمنا ما فى قوله : « ها » ما فى الهاء وما فى الألف ، فالياء فيها السر ، والألف فيها العلو والرفعة ، والياءان(١) سرور فى بهجة ، والهاء مجرى السرور والبهجة ، فالذى اطلع هذه المطالع بسراج الله الأعظم رأى جوهرا لا يقام لثمنه ، ووجد اسمه(٢) منقوشا فى ذلك الجوهر لأنه قالب الذين آمنوا ، وقد علم أن ايمانه منة من الله عليه فأجرى اليه من خزائنه توحيده الذى كان قد قسم له حظا من نفسه يوم المقادير ، فأرى نفسه فى المقادير ، فصار عنده بمنزلة جوهر له(٣) فى كنة ، وهو كالنائم عنه ، فلما فتح رأسها أبصر

---

(١) فى الأصلين : (واليابن) .

(٢) فى ليبزج (باسمه) .

(٣) ساقط من ليبزج .

جوهرا(٤) ورأى نفسه منقوشا عليه ، أعلمه أنى أعددت هذا لك منذ يوم أبرزت هذا الجوهر ، فعامة القرآن على هذا كل آية على حدتها ، تحفة فيهــا جوهر كالسراج تبصر ذلك الجــوهر ، وبالقالب يبصر نقش اسمه فى ذلك الجوهر •

قال له قائل : وما القالب ؟ قال : اذا نظرت الى النقش لم تهتد(٥) له لأنه فى يده يقلبه حتى يختم بها على طينة أو مرمة فاذا ختمت بها أبصرت فى الطينة نقش الاسم على سبيل الكتابة المستوية ، فصاحب هذا قد خلص الى السراج الأعظم ، فبنور ذلك السراج يبصر نقش اسمه فى القالب •

قال له قائل : وما القالب ؟ قال : حسبك علم الأولياء لا تتخطى الى علم الأنبياء وربائب الأنبياء •

قال : ومن ربائب الأنبياء ؟ قال : قوم اختصهم الله واصطفاهم وغذاهم بما غذى به الأنبياء ، فهم الربائب ، فكأنهم تربوا فى حجور الأنبياء ، فعندهم علم القالب •

فمن رأى نفسه فى القالب فانما يرى ذلك بنور الله الأعظم الذى فى الباطنية فبذلك النور رأى نقش اسمه يوم المقادير •

* * *

---

(٤) فى الأصلين (جوهر) •

(٥) فى الأصلين بثبوت الياء بعد الدال وفى ليبزج « يهتد » بياء المضارعة وفى الاسكندرية « تهتد » بالتاء •

وفكرة القالب هنا لم يعرض لها الحكيم فى موضع آخر من بحوثه فى علم المعرفة أو درجات الولاية أو علم الأولياء وعلم الأنبياء ويمكن تلخيص فكرته عن علوم الأولياء والأنبياء بحسب بحثه هنا بأن هناك ثلاثة أنواع من العلم : علم الأولياء ، علم ربائب الأنبياء ــ ولعله يقصد بهم المجتبون ويشملون المحدثين وسادة الأولياء الأقوياء الأمنــاء والصديقين وهو علم القالب ــ ثم علم الأنبياء وهو ما فوق هذا •

٥٤ — مسألة أخرى « المحبة والرأفة والرحمة »

ان الله تبارك اسمه أبرز للعباد محبة ورأفة ورحمة ، ووضعها عنده ليجريها الى العباد ، وخلق العباد من تراب ، فيبوسة التراب ضارة لهم ، وصناعة الجوهر ضارة لهم ومرارة النفس ضارة لهم ، فمن وحده وأقبل اليه وأسلم وجهه لله صدقا أجرى اليه من هذه الثلاث بقدر ما وفى لله من هذه الثلاث .

وللحب حلاوة تذهب مرارة النفس ؛ وللرأفة لطافة تذهب بشاعة النفس وخشونتها ، وللرحمة رطوبة تذهب بيبوسة التراب فانقادت النفس للقلب .

قوله : « **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق** »(١) فمن هاهنا قول علمائنا(٢) : ان المـــاء الجارى اذا وقعت فيه نجاسة فهو على يقين أن تلك النجاسة ممتزجة بالمـــاء ، وهو جزء من أجزائه ، ولكن الأجزاء الطاهرة قد غلبت الجزء النجس .



٥٥ — مسألة أخرى

قال : اذا كانت أشغال الدنيا يأخذك بعضها من بعض ، وقد عاينته فما ظنك بمن يأخذه أشغال الدنيا عن آخرة لم يعاينها ، فاذا كان هذا هكذا ؛ فما ظنك بمن تأخذه أشغال الدنيا عن رب لا يراه ولا يدركه ولا كيفية له . اللهم ارحمنا .

* * *

---

(١) الأنبياء : ١٨

(٢) فى النسختين (علماونا) والصحيح ما أثبتناه .

٥٦ ــ مسألة أخرى « العلم أول العبادة »

قال : أول عبادة الرب العلم ، فاذا علمت عرفت ، فاذا عرفت عبدت ، وجميع العلم فى الحروف ، ولا يظهر الا بالحروف ، فالناطق يظهر الحروف باللسان ، ولذلك سمى منطقا لأنه ينطق المعانى بتلك الحروف ، والصامت يظهره بالتخطيط ، ولذلك سمى كتابا والكتب النظم ، أى ينظم الحروف بعضها يتلو بعضا ، ومنه سميت الكتيبة فى الجيش ، عصبة عصبة يتلو بعضها بعضا ، فالعلم علامة المعانى ، وفى المعانى نفس الأشياء المقصودة بالاظهار ، فالعلم يدل على المعانى الخفية بنور العلم اما نطقا واما تخطيطا .

والمعانى على ضربين ظاهر وباطن ، فالناس فى هذا العلم فى كل لغة على ضربين ، فمنهم من علم الكلمة الدالة على معناها الظاهر ، وخفى عليه معناها الباطن ، لأنه خفى عليه علم الحروف ، ومنهم من جاز علمه الى تأليف الحروف التى صارت كلمة ، فعلم ما فى كل حرف وما فى تأليفه ، فهذا عالم العلماء ، وهو الذى بطن المعنى بما قد علم باطن الباطن . وهو عبد من خاصة أولياء الله اختصه برحمته ، وكان حظه منه مشيئته ، وهو الذى ائتمنه وأطلعه على أسراره التى طواها عن علماء الظاهر (١) .



(١) أشار الحكيم فى هذه المسألة اشارة مجملة الى العلم الظاهر والعلم الباطن والى علم الحروف . وقد تناول هذين الموضوعين بافاضة فى كتبه ورسائله الأخرى مثل : « الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب » بالنسبة للعلم الظاهر والباطن ، وعلم الأولياء بالنسبة لعلم الحروف وكذلك الأعضاء والنفس .

٥٧ ـ « أصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب »

قوله : « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم** »(١) خلق الله الآدمي فمن على أهل رحمته فأحيا قلوبهم ، وجعل لهم نورا وفتح أعين قلوبهم الى نوره حتى ارتووا(٢) به واطمــأنوا اليه وأبرزوا ذلك النور من صدورهم بكلمة ذات حروف فى كل حرف منها معنى وهى كلمة : « لا اله الا الله » فلكل حرف منها (سلطان ونور على ....)(٣) فاذا خرجت من فم العبد فانما تخرج ريح النفس النفاسة بصوت تلج الآذان ، وما سوى ذلك مغيب عن الأبصار فاذا صعدت الى الله فدخلت أبواب السماء انتشرت فى الجو يمينا وشمالا كالبرق ولها شعاع وشعل تقطع جو السموات وجو عليين وتصعد الى سند العرش وتقطع الحجب الربانى حتى تقف بين يدى الرحمن فى الموقف الذى منه من الله به على العبد وأعطاه ، فبه يقبل حسنات العبد وبه يعفو عن سيئاته وبه يستره وبه يدنيه ويقربه ، فأوفرهم حظا من القبول والعفو والستر ، والأدنى أوفرهم حظا من النور الذى فى صدره ، وضع هذا النور فى صدر هذا المؤمن ، والشهوة فى جوفه ، والهوى أسفل منها فى الجنبين ، والعدو على المعدة محيط بالشهوات ، فكلما خطر ببال المؤمن شىء من شهوات الدنيـا ثارت نفسه مع الهوى الذى هو فيها بحرارتها وسلطانها فطارت تلك الحرارة والهوى الى الصدر .

والقلب أمير على الجوارح ، فان قام هذا الأمير وتشمر لرده ان كان ذلك الشىء محظورا عليه وجمع جنوده من العقل والعلم والذهن والحفظ والفهم والفطنة وحارب النفس والهوى فقد نجا ، وان كان ذلك الشىء غير محظور عليه استعمل العقل والعلم وجميع هذه الجنود فى ذلك الشىء حتى يعمله فهو ذو جمال وهيئة حسنة فاذا صعد الى الله قبله ورضى عنه .

---

(١) الأحزاب : ٧٠ ، ٧١ وتمام الثانية : « **ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما** » .

(٢) فى الأصلين (ارتوا) .

(٣) فى الأصلين (سلطانا ونورا) والصحيح ما أثبتناه ، ومكان النقط بياض فى الأصلين .

واذا ثارت تلك الشهوة فبـــدد جنوده ، وألقى بيديه سلما الى النفس جاء الهوى فبذر بذر السيئة(٤) فى محارثة نصيبه من الآخرة ، ولم يبق هذا عليه ، قال الله تبارك وتعالى(٥) اسمه : **« من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وما له فى الآخرة من نصيب »**(٦) فالهوى بذره السيئات ، والعقل بذره الحســنات ، والقلب بين هذين ، والشهوة فى النفس لا محمـــودة ولا مذمومة لأنها وضعت للذة والابتلاء •

فان مال بها الى العقل أفاده حسنة ، وان مال بها الى الهوى أفاده سيئة •

وكلمة لا اله الا الله تطرق لحسناته(٧) الى الله حتى يحبوه بالكرامة كرامة القبول ، ويستر سيئاته ، فهذه كلمة تسدد له الى ربه حتى يقبل الحسنة ويستر السيئة فذلك قوله : **« يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم »**(٨) •

* * *

---

(٤) لم تجىء هذه الكلمة واضحة فى الأصلين فاجتهدنا فى اعطائها هذه الصورة التى هى أقرب الى كتابتها فى المخطوط والى المعنى المراد منها •

(٥) كلمة (تعالى) ساقطة من نسخة الاسكندرية •

(٦) الشورى : ٢٠

(٧) جاءت هذه الكلمة هكذا فى الأصلين ولعل اللام زيادة من الناسخ •

(٨) الأحزاب : ٧١

٥٨ ـ مكر النفس(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ولى الحمد وأهله . أما بعد فانا وجدنا مكر النفس فى الكليتين ، وكياسة المعرفة فى الفؤاد ، فبكياسة المعرفة يعرف مكر النفس وكياسة المعرفة من اسمه الحى ، ومكر النفس من حدة الهوى الذى يصير الى النفس من معدنه ، فتلتقط لطائف الشهوات وعذوبة الأفراح وبهاء الزينة ، فتحملها الى الصدر حتى تشبه على عين الفؤاد ويطغى نور الكياسة ويخمد وقود حياتها فيكون كالحى المسبوت فمن شأن القائم ببرهان ذلك بالعناية والبال العظيم أن يراقب أحوال النفس فى هذا المكر الذى يعامل به فيلقى كل حال وكل شأن بمثلها من الكياسة حتى يردعها عن وجهتها التى قصدت اليها فترجع النفس بمكرها منقمعة خاسئة حسرة بما لقيت من زجرة الكياسة .

فاذا أتته من جهة النعمة تريه سـبوغها عليه وأن الله قد فعل ذلك به وخار له فيه لقيها بالكياسة ، فيقول : سؤاله اياى عنها أخطر على من(١) لذة النعمة ولذة سبوغها ، وذلك أنه يسألنى من أين ؟ والى أين ؟ ولـماذا ؟ من أين جئت به ؟ أمن السبيل التى شرعت لك وأذنت لك فيها ؟ وهى ست : سبيل التجارة والهبة والهدية والميراث والوصية والغنيمة وللفقير زيادة سبيلين ، وهى الصدقة واللقطة ، فمن هذه السبل تناولتها أم من غيرها ، والى أين صرفتها أفى حقوقى أم فى ما دعاك اليه الهوى والنفس ، والتى صرفتها فى حقوقى ماذا أردت بها ابتغاء وجه نفسك التى دعتك اليها ، فهول سؤاله وتحيرى فى الجواب كدر على لذة هذه النعمة ولذة سبوغها .

واذا أتته من قبل المعونة : ان سعة الدنيا معونة على الدين لقيها بالكياسة فيقول : ذاك حجج الله عليك أن تتناولها على ملاحظة المعونة على الدين ثم لا تقوم لاقامة الدين ، فالمستقيم مع استقامته ترجف قدماه الآن بمحاسبة الاستقامة غدا ، فيقال له تناولتها للمعونة فتضاعف عليك المؤونة ، مؤونة اقتضاء الاستقامة ومن لم يبلغ هذه المنزلة أو يرى

(*) جاء فى كتابة الباحثين عن آثار الحكيم والمسجلين لمؤلفاته أن له رسالة تسمى ((مكر النفس)) وأعتقد أنها هذه أدرجت فى المسائل المكنونة .

(١) « من » ساقطة فأضفناها لحاجة التعبير اليها .

ما ذكرنا من السؤال لقيها بالموت المزيل لهذه النعمة المحول عنها الى مالك غيره .

واذا أتته من قبل طيب النفس بالأحوال الملائمة له لقيها بأثقال الشكر المقرونة بكل حال طيب نفسه . فمن أثقال الشكر الحياء من الله يوم يلقاه ، وقد قدم الجفوة ، ومن لم يبلغ هذه المنزلة لقيها بفجائع الدنيا التى لا ينفك منها ومن ثقلها .

واذا أتته من قبل الجاه والقـدر والمنزلة لقيها بأن الجاه جاه الآخرة والقدر والمنزلة حيث ينزلهم(١) غدا فى تلك العرصة من الأحوال .

واذا أتته من قبل النفس ودوام العافية لقيها بأحداث الزمان وتحول العافية حتى يلجأ الى الله ولا يطمئن الى مادونه ولا يركن .

واذا أتته من قبل دول دنياوية(٢) لقيها بأن الدولة دول بين الخلق ، ومتوارث فاذا تمت هذه الدولة فكأن لم تكن ، فولى الدولة يداولها بين عباده .

واذا أتته من قبل جرى الأمور على محابه لقيها بأن المنهوم مستبد ، فان كانت هذه الأمور انمـا تجرى على محابك لأنك أرضيت خالقك فأرضاك بأن أجرى الأمور على محباتك فطوباك ، وان كنت لم ترض خالقك بعد فأجرى الأمور على محباتك امتحانا لينظر أتشكر أم تكفر ، فطالع أمرك وشارف أحوالك فان وجدت نفسك شاكرة فطوباك أيضا ، وعلامة الشكر أن يتشمر لارضائه وعلامة التشمر أن يقصد ويجتهد لصحة الباطن فان الأعمال(٣) الظاهرة كثيرة وصحة الباطن عزيزة ، وان لم تجد نفسك شاكرة ، وأجرى الأمور على محابك فأنت على شرف الهلاك لأنك تجرى فى مكر الله وكيده المتين .

واذا أتته من قبل يسر الطاعات وعصمة المعاصى لقيها بخوف الزوال لقلة الشكر لأن أثقال شكر يسر الطاعة وشكر العصمة أثقل من شكر نعم الدنيا .

---

(١) هكذا ولو كان الضمير عائدا على الجاه والمنزلة والقدر لكان الأصح ((ينزلها)) .

(٢) فى الأصلين ((دنياييه)) .

(٣) فى الأصلين : أعمال بغير « أل » والصحيح ما أثبتناه .

واذا أتته من قبل كثرة أعمال البر وتجنب أعمال البغى فى الظاهر لقيها بأن الأمر ليس بكثرة الأعمال وتجنب السوء • الشأن فى صحة القلب فكم من قليل العمل صحيح القلب فاز وشرف فى الآخرة ، وكم من كثير العمل سقيم القلب خاب وغبن ، وذلك لأن صحيح القلب قلبه مع الله ؛ فان أخطأ أو زل فبالمقدور الذى خرج من المسطور ثم خلاصه من ذلك توبته ، وتوبته أن يزايله بجوارحه •

وصاحب كثرة العمل مع سقم القلب قلبه ساه عن الله لاه راغب فيما زهد الله مقبل على نفسه ، وصادق فى عبادته واستقامته فى الظاهر ، فأما فى الباطن فمحب للدنيا محب للرياسة محب للثناء والمحمدة شهواته متلظية وهواه منتصب مستبد معجب برأيه ، وهو فى ذلك يتقى المحارم فى الظاهر ويكثر العبادة من الصوم والصلاة والصدقة والحج والجهاد وأعمال البر ، فهذا اذا جرى عليه المقدور من الذنوب يحتاج الى مدة حتى يتوب ، وانه ليتوب وشهوة تلك المعصية وحلاوتها باقية فى صدره مترددة فذاك قلب قد سقم بحلاوة المعصية •

والايمان حلو نزه ، والمعصية حلاوتها دنسة نجسة فلذلك سقم القلب لسقم الايمان ؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا سلمان ؛ قل اللهم انى أسألك صحة فى ايمان ، وايمانا فى حسن خلق ، ونجاحا يتبعه فلاح ، ومغفرة منك ورحمة ورضوانا »(١) •

واذا أتته من قبل غزارة العلم وكياسة العمل لقيها بتأكد الحجة فكلما ازداد علما كان العذر أقل والحجة أوكد ، وما أعطى عبد علما الا وهو مسئول عن عبادة عملا •

واذا أتته من قبل صدق الأعمال : أنك صادق متيقنا بالقبول ، فيقول : لا أدرى أيقبل منى أم لا ، لأن الصدق له ظاهر وباطن ، فظاهر الصدق أنك تبتدىء فى العمل لابتغاء مرضاته ثم باطنه الفرح به ، فان كان الفرح بالعمل دون رؤية المنة أداك الى الفخر والكبر والاتكال على العمل ، وان كان الفرح بالعمل مع رؤية المنة أداك الى اقتضاء الثواب والاستكثار والتبجح بنفسه(٢) ، وان كان الفرح بالمنة خالصا

(١) راجع كنز العمال جـ ٢ ص ١٨٤

(٢) كان مقتضى التعبير أن يقول : « بنفسك » •

دون العمل أداك الى الخوف خوف الزوال ، وان كان الفرح بالله فى المنة كان فرحك خالصا صافيا فأداك الى خوف الله محضا ، وهو خوف الجلال والعظمة .

واذا أتته من قبل العطايا لقيها بالعزم ، وذلك أن العطاء هو نفقة ، واذا أسرف فى النفقة لحقه العزم ، واذا أصابه العزم حبس فلا يزال محبوسا حتى يودى العزم ، وذلك أن العبد لما دعى فأجاب سار الى الله بالقلب صدقا فى الأعمال حتى اذا فتح له رمى اليه بالعطاء ، وهو نور التواسى ليكون ذلك النور نفقة القلب والنفس ليسير اليه بلذة ذلك النور ليصلا الى منازل القربة ، فاستقامته فى هذا الطريق أن يسير سيرا لا يلتفت الى شىء سواه ، فكلما عمل عملا من البر سوى الفرائض فالتفت اليه طيب(٤) نفسا بذاك ، وثقل عن السير لأنه ركن اليه واطمأن القلب عن الله الى ذلك العمل فهذا عيب ووقوف عن السير (فاذا وقف عن السير)(٥) على عمل من أعمال البر فذلك العمل ممزوج بالهوى فصار سيره مع الهوى ؛ وانما دعى الى منازل القربة ليكون والها بالله ، ويفارق وله النفس بالهوى فكيف يجوز له السير مع عمل قد شابه الهوى ؛ فلذلك صار بالعمل واقفا عن السير .

ويقال انه رمى اليك العطاء ، وهو ذلك النور ليقوى قلبك ولتخف نفسك عن التثاقل والتلكؤ لأن النفس انما تتلكأ وتتثاقل بلذاتها وشهواتها ؛ ولذة العطاء . فانما أعطى ليقوى القلب ويتربى توحيده فى قلبه ولتجد النفس لذة العطاء فتخف فى السير وترتحل عن لذاتها النفسية الدنياوية(٦) التى مركبها الهوى ، فاذا ذهب يستعمل حلاوة ذلك العطاء فى أعمال البر ، أليس قد شغل قلبه بذلك العمل ؛ وجاءت النفس بحلاوة شهواتها النفسية وبهواها الدنى فمازجت حلاوة العطاء أفليس قد ترك السير ؟ فبقدر ما يقف عن السير اشتغالا بتلذذ تلك الحلاوة التى مازجتها حلاوة هوى النفس تغرم وتحبس ، وغرمه أن يلزم جعلا ؛ وحبسه أن يحبس مدد العطاء عنه فيبقى منكسرا ، قد فقد اللذة والحلاوة وبقى فى أوحال النفس ودواهيها ، وعاد(٧) الى

---

(٤) هكذا فى الأصلين ولعلها ((طيبا)) .

(٥) ما بين القوسين ساقط من نسخة ليبزج .

(٦) فى الأصلين ((الدنيايية)) . (٧) فى ليبزج ((وأعاده)) .

رق النفس ، وجاء التزين والتصنع والمداهنة وأخلاق النفس ، وقويت الشهوات ، وان رحم غرم جعلا ، وجعله أن يلزمه حقوق كثيرة ، وأعمال البر ثقيلة تحتاج الى أن يقوم بها على الجهد حتى يقضى ذلك الجعل الذى ألزم .

ومثل ذلك كمثل رجل دعاه أمير المؤمنين من بين الرعية ليتخذه وليا وخاصة ويكون أمينا من أمنائه ، وأمر أن يعطى نفقة الطريق فسار اليه فلما بلغ نيسابور(٨) أعطى نفقة أسنى من الأولى فتجمل وتزين بزينة أهيأ من الأولى ، ثم لما بلغ الرى(٩) أعطى أسنى منها ليزيد فى التزين والتأهب ، ثم لما بلغ المعسكر أعطى نفقة أسنى وأوسع ليتزين للقواد بالباب ، فما زال بالباب مقيما تجرى عليه النفقة بأضعاف ما كان فى الطريق لأن تلك نفقات أمير المؤمنين يبعثها اليه حتى يتزين له ، حتى اذا كان اليوم الذى أذن له فى لقائه دخل عليه فرضيه وقبله وولاه وخلع عليه خلع الولاية ، وائتمنه على الخزائن ، فلو وقف هذا المدعو على نزهة فى هذا الطريق فقال : أبنى هاهنا قصرا لأمير المؤمنين وأتقرب به اليه يعد ذلك بلاهة وغتامة وانحطت منزلته عنده ، وقال : انما دعوته لأحبوه وأشرفه وأوليه أعمالى حتى يعمر بلادى ويهيىء أمور رعيتى حتى يسكن عنى أصوات الشكاة المغتمة ، فوقف عن السير متشاغلا بما لا حاجة بى اليه ، فأمر بأن يغرم ويلزم جعلا ان لم يمض فبقى المغرور مع أثقال الغرم والجعل ، فان تشمر للجعل وقضى الغــرم واستغاث بأمير المؤمنين كان كائنا أن يرحم فيقضى بعضا ويحط عنه بعض ، ويسامح حتى يصل اليه ، فاذا وصل اليه استحيا من الابطاء ، وان لم يتشمر لقضاء الغرم والخروج من الجعل رد من الطريق الى محله الذى منه خرج(١٠) وأغلق الباب دونه ، وقيل له كن كسائر الرعية عملا ، تؤدى الخراج الموظف عليك فانك لم تصلح للولاية والسياسة ، فلا عهد لك ولا حكما ينفذ ، انما أنت

---

(٨) نيسابور مدينة عظيمة خربهـا الغز والتتر وتعرضت لأهـوال شديدة ، راجع معجم البلدان جـ ٨ ص ٣٥٦ .

(٩) الرى بفتح أوله وتشديد ثانيه مدينة مشهورة من أمهات البـلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات ، معجم البلدان جـ ٤ ص ٣٥٥ .

(١٠) فى الأصلين (أغلق) بغير واو فزدناه لايضاح المعنى .

أجير تعمل فان وفيت العمل متقنا محكما خالصا فلك أجرك ، وان لم توف بطل أجرك ، وحوسبت على النعمة ، وهى نفقات العمر .

فكذلك هذا الذى فتح له فسار وأعطى نورا فكلما قطع(١١) مسافة من هذا أعطى نورا زائدا ، فلا يزال يقطع المسافات بهذه الأنوار حتى يصل الى منازل القربة ثم يتخطى المنازل بالســير حتى ينتهى الى سدرة المنتهى فيلزم الباب حتى يتهيأ ويتزين للملك العزيز ويتأدب ، فتهيئوه بالصفاء ، وتزينه بالطهارة ، وتأدبه بالسكينة والوقار ، فاذا أذن له فى التقدم الى مقام العرض تقدم فى زينته وبهائه وسكينته ووقاره وآدابه — عاريا من الهوى والشهوات — وكياسته فى المعاملة رضى به وقبله وولاه وخلع عليه من أنواره وأعطاه سلطانا من سلطانه ، وأنفذ حكمه ، فهم(١٢) الذين ينجع فى القلوب كلامهم وسياستهم ، وتنفذ أحكامهم فى ملكه ، فهذا ولى الله به يعمر البــلاد ويعز الدين وينصر الحق ، وهو بعين الله يرعاه ويؤيده ، فان أردت أن أشير لك الى من كان من السلف بهذه المنزلة أشرت لك الى أبى بكر وعمر وعلى وعثمان ، ثم فى التابعين نفر منهم لا يزال يخلفهم من بعدهم طبقة على اثر أخرى فى هذه الأمة كلهم صديقون حكماء علماء الله وأمناؤه وخلفاء الأرض بهم تقوم الأرض .



(١١) فى ليبزج ((يقطع)) .
(١٢) هكذا فى الأصلين والأولى ((فهو)) لكنه راعى الجماعة الذين هم بهذه الصفة .

٥٩ ــ مسألة فى « تربية المعرفة »

حدثنا الجارود بن معاذ[١] قال : حدثنا على بن الوليد العبسى[٢] قال : حدثنا بقية بن الوليد[٣] عن الحكيم بن عبد الله[٤] عن الزهرى[٥] عن سعيد بن المسيب[٦] عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان يوما لا أزداد فيه علما يقربنى الى الله لا بورك لى فى طوع شمس ذلك اليوم »[٧] .

قال رحمه الله : فالمعرفة شجرة غرسها الله فى قلوب الموحدين ووكلهم بتربيتها فعلى قدر التربية ينالون من ثمرتها ، فكلما عظمت الشجرة وبسقت وغلظت . كان أقوى لفروعها وأزكى لثمرتها وألذ لطعمها ، فتربية هذه الشجرة بالماء وهو العلم ، والتراب وهو أعمال البر وبالحراسة وهو التقوى حتى ينال الثمرة فحياة شجرتك بالعلم بالله وقوتها بالأعمال وزكاة ثمرتها بالتقوى كما أن حياة الشجرة بالماء وقوتها بالتراب ، ووفارة ثمرتها بأن يحوط عليها ويحرسها من الآفات

---

(١) الجارود بن معاذ السلمى الترمذى ثقة مستقيم الحديث واتهم بالميل الى الارجاء توفى سنة ٢٤٤ ، تهذيب جـ ٢ ص ٥٣ .

(٢) لم أعثر له على ترجمة .

(٣) محدث الشام الامام أبو يحمد بقية بن الوليد الكلاعى الحافظ ولد سنة ١١٠ هـ ، تفقه بالأوزاعى وكان مشهورا بالتدليس توفى سنة ١٩٧ هـ ، تهذيب جـ ١ ص ٤٧٦ ، العبر جـ ١ ص ٣٢٣ .

(٤) لم أعثر له على ترجمة .

(٥) هو محمد بن مسلم بن شهاب أبو بكر الزهرى الحافظ المدنى الامام أحد الأئمة الأعلام وعالم الحجاز والشام كان ثقة كثير الحديث والعلم والرواية فقيها جامعا قوى الحافظة ، يقول عن نفسه : ما استودعت قلبى شيئا قط نسيته ، وكان يقول : ما عبد الله بشىء أفضل من العلم ، وكان جوادا سخيا ، ولد سنة ٥١ هـ وتوفى سنة ١٢٤ هـ ، العبر جـ ١ ص ١٥٨ ، تذكرة جـ ١ ص ١٠٢ ، التهذيب جـ ٩ ص ٤٤٥ .

(٦) الامام شيخ الاسلام فقيه المدينة أبو محمد المخزومى أجل التابعين ، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر ، ولم يكن أحد أعلم بقضاء رسول الله ولا أبى بكر ولا عمر منه توفى سنة ٩٤ هـ ، العبر جـ ١ ص ١١٠ ، تذكرة جـ ١ ص ٥١ ، تهذيب جـ ٤ ص ٨٤ وما بعدها .

(٧) خرج العراقى الحديث فى الاحياء ونسبه الى الطبرانى وأبى نعيم وابن عبد البر وحكم عليه بالضعف ، راجع الاحياء جـ ١ كتاب العلم ص ١١ .

فالتقوى حصن المعرفة ، فاذا اتقيت الأشياء المذمومة بقيت المعرفة على نزاهتها وطهارتها وطيبها وحلاوتها لأن المعرفة قد ضمنت حبة ممزوجة بها ، فنزاهتها وطهارتها من التوحيد ، وطيبها من الحياة ، وحلاوتها من المحبة ، فاذا حصنت حول الصدر بتقواك الأشياء المذمومة بقيت المعرفة على حالها نزهة طاهرة طيبة حلوة ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الايمان حلو نزه فنزهوه »(٨) ، والأعمال قوتها ، لأن العمل اذا صح رفع الى الله تبارك وتعالى فلا يوضع فى الخزائن ولكن يعرض عليه ، فاذا نظر اليه وقعت النظرة على العمل فاشتعل نور العمل وأشرق فصـــار مرجوع ذلك الاشراق الى القلب فأضاء القلب لأن العمل انقطع من الأركان بالفراغ منه ، ولم ينقطع من القلب أصل العمل وهو النية ، لأن من شأن المؤمن أن ينوى العمل ، فاذا عمل وفرغ منه بالأركان فنيته دائمة يعمل فى جميع عمره ذلك العمل وأنه يطيع ربه ويعبده بجميع أعمال البر ، فالأعمال من الأركان منقطعة ينتقل من عمل الى عمل ، وطوعه(٩) لله فذلك العمل دائم ، فذلك الطوع لا ينقطع . ولذلك قيل : « نية المؤمن خير من عمله » لأن الأعمال منقطعة والنية دائمة ، فلما أشرق العمل بنظرة الله اليه فى وقت العرض عليه ، وكانت النية قرارها فى القلب ، وهى متصلة بالعمل بين يدى الله تأدى ذلك الضياء الذى أشرق العمل بين يدى الله الى قلبه . فازدادت المعرفة نورا ، وازداد صاحبها بالله بصيرة ، فاذا أبصر استفاد علمـــا بالله لم يكن علمه ، فانما قل وجود هذا لأن العمال تركوا الطريق فى شأن الأعمال ، فكل عامل قصد بعمله الى أن يكتسب لنفسه ثوابا مما أعد الله له فى الجنة أو يعد لنفسه جنة مما أوعده من عقابه ، فقد اتخذ لنفسه دون الله عدة ومتعلقا فوكل الى ما أعد لنفسه وتعلق به ، ووقع الحساب وتحصيل السرائر ، واقتضى الاخلاص واقتضى الشكر ، فصاحب هذا ان لم يتشمر فى أمره ، ويطلب الصدق من نفسه فى كل حركة ولحظة صار من المعجبين والمتكبرين ، فاعجابه وتكبره أحبط بجماله(١٠) ومنزلته عند الله من أهل الفسوق

---

(٨) لم أعثر على تخريج لهذا الحديث .

(٩) الطوع الانقياد وهو الطاعة وهو اسم مصدر من أطاع .

(١٠) هكذا فى الأصلين ولعل الصحيح ((لجماله)) باللام بدل الباء .

والفجور . فالفسق ظاهر والعجب والتكبر خفى ، تخفى النفس على صاحبها وتأمره بلبس الخلقان والتزهد تخيل اليه أن هذا تواضع ، وهو بذلك ممتلىء كبرا وعجبا بنفسه وبأعماله ، فاذا كان العامل يعمل عامة أعمال البر ، وعينه الىٰ تربية المعرفة التى لها خلق وبها تعبد ، وكان بصيرا ذا كياسة نظر الى كل عمل يعمله ، فاذا فرغ من العمل ماذا يرجع الى قلبه من الزيادة ، فيرى حرارة ذلك ، وفوران الفرح ، ويرى طيب النفس بذلك من أجل ذلك الفرح ، فينبغى له أن يعمق النظر فيه حتى لا تخدعه نفسه فان وجد تلك الحرارة من القلب من التوحيد فذاك تربية للمعرفة ، فعلامته أن يفيده الله علما به بما ازداد القلب نورا .

وان وجد تلك الحرارة من الجوف من قبل النفس فذاك تربية للهوى ، فعلامته أن يزداد نشاطا لذلك العمل ، ويجد قوة الى الازدياد ثم يظهر الفرح وينتشر فى جميع جسده فاذا نظر من أين هذا الفرح وجده فرح ذلك العمل الذى عمله ، ومد عينه الى نوال الثواب والنجاة بذلك . فطابت نفسه فلا يلبث الا يسيرا حتى يلتفت الى نفسه فيجدها مع العجب والكبر ، قد نظر الى النـــاس بعين الازدراء والاحتقار لاعجابه بعمله وافتقد الشكر وعمى قلبه عن الله ، واتخذ من دونه عدة وملجأ .

والأول اذا فرغ من العمل نظر الى قلبه فاذا لم يجد هناك فرح القلب من التوحيـــد علم أنه ترك الطريق لأنه انما خلق ليعرف ربه ويوحده ، واقتضى العمل ليحقق المعرفة والتوحيد بما يبرز من العمل(١١) ،

---

(١١) يلاحظ الدارس هنا أن الحكيم يفصل هنا رأيه فى نتيجة العمل فان كان صادرا عن قلب لا يرى لعمله وزنا ولا قيمة ولا اعتبارا عند الله فاز صاحبه وفتح أمامه الطريق الى الله لأنه لم يحجبه عن الوصول رؤية عمله ، وأما اذا تهيأ له عمله شيئا ذا قيمة وتطلع من أجله أن ينال مكانة كأنه مدل بعمله لم يجد الطريق الى الوصول الى الله وبدا رؤيته عمله كأنه حجاب حال بينه وبين منزلة القربى ، ووجدت النفس سبيلها لتلقى بمكرها وخدعها حتى تزل قدمه .

وروى لنا عن وهب بن منبه(١٢) أنه وجد فى التوراة أنه لما فرغ الله من خلقه أثنى على نفسه ، ثم قال : « ما خلقت الخلق لحاجة كانت بى اليه ، ولكن لأبين قدرتى ولأعرف به الناظرين نفسى ، ولينظر النـاظرون فى مملكتى وتدبير حكمتى ، ولتدين الخلائق كلها لعزتى وليسبح الخلق كله بحمدى ولتعنى الوجوه كلها لوجهى » .

* * *

(١٢) أبو عبد وهب بن منبه الصنعانى الحبر العلامة كان شديد العناية بكتب الأولين وأخبار الأمم وقصصهم وكان يشبه بكعب الأحبار فى زمانه ، تابعى ثقة كان على قضاء صنعاء وأصل أبيه من خراسان من أهل هراة أخرجه كسرى الى اليمن فأسلم فى عهد النبى وحسن اسلامه وسكن ولده باليمن بعده ، وكان وهب يقول بالقدر ثم عاد عنه ، مختلف فى وفاته بين سنة ١١٠ هـ و ١١٤ هـ ، تهذيب جـ ١١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، العبر جـ ١ ص ١٤٣ .

٦٠ — مسألة فى « درجات العرض »

قال : حدثنا عبد الله بن أبى زياد القطوانى[١] قال : حدثنا سيار[٢] عن جعفر بن سليمان[٣] قال : سمعت مالك بن دينار[٤] يقول : تزينوا للعرض على الرحمن رحمكم الله ، وهو قوله : **« وعرضوا على ربك صـــفا »**[٥] ، فأعلم العباد أن للعرض درجات وقال : **« يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية »**[٦] فأعلم العباد أن فى العرض (تفتشا ومطالبة وتحصيلا)[٧] ، وقال : **« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا »**[٨] فأعلم أنه لن تخلو نفس من هذا حتى يحضر خيره هناك بين يديه ، ثم سكت عن ذكر السوء واحضاره ، فقال : **« وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا »**[٩] لأن أحبابه الموحدين لم ينفلتوا من أعمال سوء قد عملوها وتابوا الى الله منها ، فلو ذكر لاشتد عليهم ذلك فى هذه الحيـــاة الدنيا فى كل وقت يتلونها وتتكسر قلوبهم ، وتأخذهم الوحشة ، ويفتقدون الأنس به ، فعلم الله تبارك اسمه أن هذا نازل بهم ، فذكر الخير واحضاره وسكت عن احضار السوء فقال : وما عملت من سوء تود الأمد البعيد منه ، ولم يذكر احضاره لعلمه بأنه يشتد عليهم ذلك أن يروا أعمال السوء بين يديه محضرة ، وهم بين يديه وقوف ، تعرف حرمة أهل اليقين الذين كان يتمثل صورة هذا الاحضار فى صدورهم فيعلوهم الحياء والانكسار ، فأوجب لهم حرمة بأن سكت عن ذكر احضاره ، ثم لمـــا ذكر الأعداء أبرزه ، ولم يوجب لهم حرمة

---

(١) هو أبو عبد الرحمن الكوفى الدهقان ذكره ابن حبان فى الثقات وقال ابن أبى حاتم : صدوق توفى سنة ٢٥٥ هـ ، التهذيب جـ ٥ ص ١٩٠ ، ٢٢٢ ، الجرح جـ ٢ ص ٢٠ ، ٣٨ .

(٢) سيار بن حاتم العنزى البصرى وثقه ابن حبان توفى سنة ١٩٩ أو ٢٠٠ هـ ، العبر جـ ١ ص ٣٣١ ، تهذيب جـ ٤ ص ٢٩٠ .

(٣) جعفر بن سليمان الضبعى البصرى من ثقات الشيعة وزهادهم ، توفى سنة ١٧٨ هـ ، تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٢٢ ، العبر جـ ١ ص ٢٧١ .

(٤) أبو يحيى البصرى الزاهد ، قال النســائى : ثقة وكان يكتب المصاحف بالأجرة ، اختلف فى وفاته سنة ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٣٠ هـ ، تهذيب جـ ١٠ ص ١٤ ، ١٥ .

(٥) الكهف : ٤٨ — (٦) الحاقة : ١٨

(٧) ما بين القوسين جاء بالرفع فى الأصل .

(٨ ، ٩) آل عمران : ٣٠

فقـال : « **ووجدوا ما عملوا حاضرا** »[١٠] فدخل فيه الحسن والسوء ، لأن الأعداء قد كانت لهم أعمـال حسنة فى شركهم ، وان كانت غير مقبولة ، فالمعرض مقام تفاوت العباد فاذا عرض العبد على الله ، فانه لا ينظر الى جمال صورته ولا الى جسمه ولحمه ودمه ، انما ينظر الى ما قد ألبس ، فاذا تقدم العبد الى العرض ، وقد لبس الخطايا والذنوب فقد افتضح ، لأنه لبس ظلمة المعاصى وفواحشها ، واذا تقدم ، وقد لبس الطاعات وأعمال البر فقد نجا ، ثم للعباد تفاوت فى هذه الطاعات وأعمال البر ، فمنهم من يأتيه قد لبس نور الطاعات وزينتها وبهاءها ، فهذا مزين بالطاعات . ومنهم من يأتيه وعليه هذا اللباس ، وفوق هذا اللبـاس ما يدق مما[١١] وراء ذلك فى هذا اللباس ، وهو اليقين والصبر والتوكل ، وهو لباس المعرفة ، فهذا لباس قد علا كل شيء ، فاذا عرض عليه فى هذا اللباس فهذا عبد قد تزين بحق الله ، والأول قد تزين بطاعة الله فهو ناج ، والهالك تزين بشهوات الدنيا ، وفيما حكى عن أحد أولئك العباد الذين كانوا مع يونس[١٢] عليه السلام قال فى دعائه : « اللهم بك أتزين فاجعل التقوى ردائى واليقين شعارى ، والصـبر دثارى والتوكل سكنى ومأواى حتى أكون بقضائك موقنا ، وعليك متوكلا ، ولثوابك راجيا » .

وطبقة أخرى أعلى من هذا ، قد تزين أحدهم بالله ، فالمتزين بالله هو صاحب الحظ ، فانما يتزين بحظه من الله ، وكل ذى حظ فمن حظه من ذلك يتملك الذى هو حظه يتزين حتى يكون أعلاهم من حظه من ملك الملك بين يديه ، فهو يتزين بحبه الذى هو حبه لعبده ، وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء وان على وجوههم نورا ، وثيابهم نور يضع الله لهم منابر من نور يوم القيامة »[١٣] .

* * *

(١٠) الكهف : ٤٩ (١١) فى الأصلين ((ما)) ولعل الصحيح ما أثبتناه .

(١٢) يونس النبى صلى الله عليه وسلم صاحب الحوت وباسمه سورة فى القرآن .

(١٣) أخرجه أبو داود فى سننه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأخرجه الطبرانى فى معجمه الوسيط باسناد حسن عن أبى الدرداء رضى الله عنه .

وفى حديث ابن مسعود[١٤] رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فاذا أشرف أحدهم على أهل الجنان أضاء حسنه[١٥] أهل الجنان كما تضىء الشمس أهل الدنيا ، فانما تضىء الجنان من نور ما تزينوا به فى الدنيا »[١٦] .

* * *

٦١ — مسألة فى حظ النفس من العلوم

قال رحمة الله عليه : وجدنا أن النظر فى الأحاديث فيما تتقبله النفس المريدة للخير فاذا أتت على شمائل القوم ومحاسن أفعالهم وبرهم وتقواهم وصدقهم وعبادتهم وجدت حلاوة ذلك فذلت ومرنت واهتشت الى ذلك من أفعالهم ، فنظره(*) فى هذه الأحاديث المروية زيادة له فى ذلك .

ووجدنا أن النظر فى كلام أصحاب الرأى يزيده علما بالأقضية بين الناس وما يلزمهم فى مواطن الحكم عند الحكام ، ونفسه خالية من الانتباه لشمائل أهل الخير ومحاسن أفعالهم وبرهم وتقواهم وصدقهم ونياتهم واخلاصهم وعبادتهم ، فهى خالية عن ذلك ، مفتقدة لحلاوة تلك الأشياء ، قد تذل نفسه ، ولا تهش الى أعمال البر ، انما حظها من هذا العلم مطالعة مخاتلات الناس وخدعهم ومجاذباتهم وظلاماتهم ، فنفسه تحدث أبدا بمثل هذا وبما يلزم من طريق الحكم هؤلاء الجناة ، فهى تسعى أبدا بهذا فمتى يتأدب بأدب العلماء حتى يظهر على جوارحه الخير ، فلذلك صار هؤلاء المتفقهة فى زماننا بمثل هذا الحال الذى ترى ، لأن نفوسهم أبدا فى ذلك القال والقيل وتخاليط النفوس فيتحول طبعهم فيبقى على ذلك التخليط لأن نفوسهم أذانهـا أبدا مصغية الى تلك الأشياء ، فاذا فكر فانما يفكر فى ذلك ، فانما لهم من ذلك معرفة تلك الأحكام علما بالقلوب ، وليس للنفوس حظ ، فاذا صاروا الى وقت

---

(١٤) ابن مسعود صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان معروفا بحسن تلاوته للقرآن توفى سنة ٣٣ ، أسد الغابة جـ ٣ ص ٣٩٠ .

(١٥) فى نسخة الاسكندرية ((حسنهم)) .

(١٦) أخرجه ابن حميد فى مسنده جـ ٢ وابن عوانه جـ ٢ والطبرانى فى معجمه الوسيط ، قال عنه ابن معين : ضعيف ، راجع الأسرار المرفوعة .

(*) فى ليبزج « فنظر » .

اقامة العمل بالصدق وجدت قلبا خربا ونفسا شرهة تنزو فى أفراح ذلك العلم نزوانا لأن ذلك علم الخصومات ٠

(وأهل المجاذبة)[١] وفى الخصومات مكامن علم طالعة تلك المكامن من جعامة فى النفس ولاطلاعها فرح وشرة ، ولمفاطنتها عجب فاذا نظرت النفس الى كياستها وفطنتها أظهرت علوا وكبرا ٠ لتعرف أن[٢] أصحاب الرأى اليوم من أشد الناس تحاسدا ، وذلك للعلو والكبر الذى فيهم ، ومن أشد الناس استحقارا للخلق وملقا للسلطان وللأغنياء ٠

ووجدنا أن النظر فى علم العربية يبصرك الى النخوة والتباهى والتزين والفخر ، فنفسه جعمة فى تعلمه وعاقبته الى ما وصفنا ٠

ووجدنا أن النظر فى علم الحكمة يبصرك بأن الدنيا ولأولها[٣] ولعبها وغرورها وصغرها وتلاشيها ، ثم رأى[٤] الآخرة وحقائقها وشرفها ونبلها وتدبير الله فيها ٠

ووجدنا أن النظر فى علم المعرفة يؤديك الى الله ، وينور عليك هذه الأصناف ، وأى صنف أخذت من هذه الأصناف استبان لك وعليك وأنت به شريف فمن علم المعرفة سبى القلب وخشعت النفس فاذا خشعت النفس فقد ٠٠٠٠[٥] جاه محادثتها واذا سبى القلب ذهب به الى من سبى له فأقيم ببابه حتى يتأدب ويتخلق بأخلاق الملك حتى يصلح لخدمته فاذا صلح لخدمته ٠٠٠٠[٦] هذه الأصناف من العلوم التى ذكرنا[٧] ٠

* * *

---

(١) ما بين القوسين جاء بالأصل ولعله جاء نتيجة سهو من الناسخ ٠

(٢) ساقط من ليبزج ٠

(٣) لعله يقصد « ولهوها » فان الكلمة المذكورة فى الأصل لا تفيد معنى ٠

(٤) هكذا فى الأصل ولعل الأنسب ((يرى)) ٠

(٥) بياض فى الأصل فى النسختين ٠ (٦) بياض فى الأصل فى النسختين ٠

(٧) فى هذه الرسالة يستعرض الحكيم ألوان العلم وما تكتسبه النفس الانسانية من كل منها ، وهو هنا كعادته فى أماكن أخرى يهاجم علماء الرأى ويرى أن اشتغالهم بمشاكل الناس وأقضيتهم حجب قلوبهم عن الاتجاه الى الله وشغلها بهذه الأمور الدنيوية ثم هو يتهم هنا هذا الصنف من العلماء باتخاذ معارفهم وسيلة الى الجاه والتقرب من الحكام وهو أمر لا يليق بالعلماء وأنواع العلوم هنا : الحديث ، والرأى ، والعربية ، والحكمة ، والمعرفة ، والأخير أعلاها وأفضلها وأنفعها ٠

٦٢ ـ مسألة فى تفسير السفلة

قال : السفلة الذى رأس ماله من المعرفة يقال بالأعجمية قردمانه[١] فأعطى الله الموحدين معرفة التوحيد ، فذاك رأس مال الموحدين ، واقتضاهم الربح • وهى الطاعات ، فاذا أعطى النفوس مناها بالشهوات فقد انكمن اشراق نور توحيده ، فليس له فى صدره اشراق ، فبقيت عينا فؤاده فى دخان الشهوات وظلمتها ، فاذا رفضها أشرق ، فاذا رفض العلائق ورفض المور[٢] أشرق فيه نوره فهناك وفر رأس ماله •

فالسفلة أعطى رأس مال فلم يتجر وتركه حتى نقص ذوبا ذوبا بمنزلة شجرة غرست فلم تسق ولم يقو أصلها بتراب فبقيت ودية كما غرست ولم تتفرع ولا أورقت ولا أثمرت •

فالسفلة يقول : ان رحمة الله عظيمة ومغفرته واسعة ، وهو سمح جواد ثم ينكمش فى شـهواته ، فيوجه الى ربه قبائحه وفضـائحه وشيطنته • فيقال له : شكرت من بهذه الصفة بمثل هذا الذى وجهت اليه ، ما أعظم اغترارك به ، أجللت الممدوح بهذه الأشياء التى وجهتها وعرفت حقه •

والسفلة فى الدنيا يقول : فلان لى صديق وحبيب وواد ، وأنا أحتاج الى أن أحسن الى هذا العدو حتى يكون لى ، وهذا الصديق لى •

فيقال له : يا سفلة وفاء الصديق والحبيب والوديد[٣] أن تضيع حقه وتستهين بأمره ، وتجل العدو وتقضى له مناه ، فبمثل هذه المعاملة التى يعامل بها الآدمى يعامل ربه اغترارا ، وكذب فيما قال لأنه قد أمن الصديق والوديد وليس فى قلبه صداقة ولا ودادة ، لأنه رأى منه الوفاء والصدق فأمنه وتهاون فى الباطن وفى قلبه غش ودغل فلا تصدقه ؛ وكذلك فيما بينه وبين ربه قل خوفه وقل حياؤه •

* * *

---

(١) كلمة فارسية •

(٢) هكذا فى النسختين والمقصود منها غير مفهوم •

(٣) هكذا فى النسختين والمعروف فى هذه الصيغة ((الودود)) •

٦٣ — مسألة فى الذكر ودرجاته

قال : الذكر غذاء المعرفة ، والمعرفة حلوة نزهة ، والقلب وعاؤها وخزانتها والصدر ساحته ، والمعرفة ذات شعب : شعبة منها للجلال وشعبة للعظمة ، وشعبة للرحمة ، وشعبة للجمال ، وشعبة للبهجة ، وشعبة للسلطان ، وشعبة للبهاء ، وأصل هذه الشعب القُدرة ، ومن القدرة تتشعب هذه الشعب ، ثم من كل شعبة منها تتشعب الأشياء •

فجوهر الذكر البهجة ، فاذا بدا الذكر على القلب هاج الفرح ، فلو لم يمازجه فرح النفس بها لطاب الذكر ، ولكن النفس لما جاءت بمزاجها تكدر الفرح فانقطع المدد من المذكور فبقى الذكر(١) مع كدورة الفرح . فأهل الصفاء يلتذون بالذكر لأن نفوسهم فى سجون القلب وسلطان المعرفة قد أحاطت بالنفس . فلا تقدر النفس أن تتحرك للمزاج والأخذ بنصيبها •

قال قائل : ذكرت المزاج ، فصف لنا شيئا منه • قال : أما ظاهر المزاج فترى أحدهم فى الذكر يرقص وان لم يرقص صفق بيديه ، وان لم يصفق حرك رأسه كالمعتوه ، وان لم يفعل ذلك تهادى بمنكبيه ، فهذه الأفعال كلها من هيجان النفس والمزاج الذى أتت به •

وأما فى الباطن فالتفات القلب الى الذكر ، فذاك مزاج النفس فان الذكر غير المذكور ، فاذا كان الذكر من صاحب مرتبة ومجلس ونجوى فهناك انقطع عنه التفات القلب الى الذكر ، وبقيت عينا فؤاده شاخصتين(٢) الى المذكور فهو مشغول به لا يتفرغ للالتفات الى الذكر ، فهؤلاء أهل صفاء الذكر ، والذكر من الصدر ، والعين الى المذكور ، واللذة فى الجوارح ، فالنفس حينئذ مشغولة بلذة الجوارح ، والقلب مشغول بالمذكور ، والصدر معمور بالذكر •

وأصل الذكر فى القلب ، وعمله بالفؤاد فى الصدر ، فاذا خرجت المشيئة من باب الرحمة جرت الارادة من باب الحكمة ، هاج الذكر من ملك البهجة فثار ضوؤها الى الصدر ، فتراءى الضوء لعينى الفؤاد ، فارتحل بعقله شاخصا الى الله فصار ذلك الضوء مركبه الى الله ، والراكب عقله ، فهذا هو الذكر •

---

(١) فى نسخة الاسكندرية ((الذاكر)) •

(٢) فى النسختين ((شاخصتان)) ولا تجوز الا على لغة من يلزم المثنى الألف •

فالقلوب لها محلات . فمحلة العامة قلوبها محبوسة فى الجو لا تصعد لأن الشهوات قد ثقلتها ، والهوى قد قيدها ، وقلوب المريدين فى سيرهم فى منازلهم أين ما وقف فهو محله ، وانما قيده هواه ، وثقله باقى شهواته .

وقلوب الواصلين فى محلاتهم عند العرش ، وقد قيدهم باقى أهوائهم لا يصلون الى مجالسه فى ملكه .

وقلوب أهل الصفو من الواصلين واصلة اليه فى مجالسه فذلك خالص النجوى وصافى الذكر ، وهذا الصنف هم الذين قال موسى : « يا رب ، أقريب فأناجيك أم بعيد فأناديك ؟ قال : أنا جليس من ذكرنى » فالمجلس لهؤلاء .

فكل طبقة أصل الذكر لهم مما وصفنا بديا ، وانما ذكره بقدر ضوئه الذى خرج الى صدره من معرفته ، فانما تباينت المحلات لتباين المراكب ، لا يستوى من ركب حمارا دبرا بمن ركب فرسا عربيا ، فأهل الذكر على اختلاف طبقاتهم[٣] انما ينال كل ذاكر من ذكر الله له على قدر ذكر العبد له ، وعلى قدر مركبه ، فالذكر يقرب العباد الى الله ، لأنه مركب القلوب الى الله ، فقربة الله الى العبد على قدر قربة العبد الى الله ، ولذلك قال : « ان تقرب منى شبرا تقربت اليه ذراعا »[٤] والله أسرع الى العبد من العبد الى الله لأن سرعة الله الى العبد بالفرح الصافى ، وسرعة العبد الى الله بالفرح الممزوج ، لأن فرح الله بالعبد يخرج من باب الجود وهيجانه من حبه له ، وفرح العبد بالله يخرج من باب الضوء لأن الله غنى والعبد فقير ، فلذلك قال : « ان تقرب شبرا تقربت ذراعا » فأعلم العباد فى تنزيله شأن الذكر فقال : « **فاذكرونى أذكركم** »[٥] فجعل ثواب الذكر ذكره للعبد ، فالذكر هو ارتحال القلب الى الله ، وذكر الله هو دنو الله من العبد ، فكل ذاكر انما يحتظى من دنوه بقدر رحلته ، وانما ينال من الرحلة على قدر قوة الراحلة ، فراحلة تطير وراحلة تجمز وراحلة تسير على هينة ، وراحلة قطوف قعود تسير مرحلة فى يومين أو ثلاثة .

---

(٣) فى الأصلين ((طبقاتها)) والصحيح ما أثبتناه .

(٤) جزء من حديث قدسي ، وصيغته المشهورة : (اذا تقرب الى عبدى شبرا تقربت اليه باعا ، وان تقرب الى باعا تقربت اليه ذراعا ، واذا جاءنى يمشى أتيته هرولة) .

(٥) البقرة : ١٥٢

فانظر أين يبلغ الطائر ، وأين هذا الى بلوغ (هذا القطوف الى الطائر)(٦) وهذا الطائر قد أكل العرس كله ، وما بقى من نشـارة العرس انتثر وتردى الى هذا القطوف فى مكانه بمنزلة رجل على ذروة جبل يطعم طعاما فما تناثر من الذرو فأذرته الريح الى سفح الجبل تناوله صاحب الراحلة القطوف ، وقد هيأ الله عرسا ، وملك العرس على عرشه طعمة للذاكرين وتزودا للمناجين ، ومشربا لأهل الصفوة كى يصدروا من عنده شباعا رواء أولئك الذين تناولوا الدنيا عن شبع ورواء فلم تضرهم أشبعهم طعام الحب ، وملأ عروقهم من حلاوته ، وأرواهم ماء الحياة فكلما تناولوا شيئا من الدنيا من مأكول أو مشروب أو ملبوس أو منكوح أو مركوب أو مبتذل كانت سمات الحب فى تلك الأشياء ظاهرة على قلوبهم فتلاشت حلاوة الأشياء فى حلاوة الحب الذى نالوا سماته فلم يضرهم لأن الضرر كان من حلاوة الأشياء ، فلما افتقدوا حلاوة الحب صارت الأشياء عليهم فتنة(٧) ان فرحوا بها صار الفرح بطرا (وان افتقدوها)(٨) فحزنوا وأسفوا على فوتها جزعوا وعصوا الله فى جنبها ، فلما أشبعهم طعام الحب ماتت الرغبة منهم ، فلما أرواهم ماء الحياة مات الحرص منهم وقصر الأمل حتى صار العمر عندهم عدد الأنفاس ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (حين اشترى أسامة جارية بمائة دينار الى شهر)(٩) ••••(١٠) : « ان أسامة لطويل الأمل ، والذى نفسى بيده انى لأرفع اللقمة فما أظن أن أسيغها حتى أقبض ، وانى لأرفع طرفى فمـا أظن أن شفرى يلتقيـان حتى أقبض »(١١) ، فهذا شأن من تروى من ماء الحياة وانغمس فى بحره يتلاشى أمله حتى يعد الأنفاس ، فطبقة تصل الى محل العرش حتى تطل عليه فتطعم منه ، وطبقة عجزت عن الوصول اليه ، وانما يطعمون

---

(٦) ما بين القوسين ساقط من نسخة الاسكندرية •

(٧) ((ان)) ساقطة من نسخة ليبزج •

(٨) فى ليبزج ((فاذا افتقدوا حزنوا)) •

(٩) ما بين القوسين ساقط من ليبزج •

(١٠) مكان النقط زيادة فى الاسكندرية : (فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم) وهى تكرار لا داعى له •

(١١) أخرجه الدارقطنى والبيهقى وابن عوانه وضعفه البخارى ، راجع الأسرار المرفوعة بالأحاديث الموضوعة ص ٢١٩ •

من الأيدى المتداولة له الى محل هذا العبد ، فانما يطعم من الأيدى بمقـــدار •

وطبقة يصل اليهم من هذا العرس ريحه على المشام ، وطبقة وهى العامة تنال من هذه الريح كالخيال وكأثر الشىء فتقوى قلوبهم بذلك •

فالطبقة التى ولجت ملك العرش حتى أظلت عليه فصدرت شباعا رواء ، هم الذين وصفهم الله على لسان رسوله فقال : « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »(١٢) فانما شغله ذلك الطعام الذى أشبعه هناك فى العرس عن أن يذكر حاجة فيسله لأنه شبع وروى ، فالشبعان ممتلىء لا يذكر شيئا لأنه قد سد أبواب الحاجة بشبعه ، فوعد من كان بهذه الصفة أن له عندى أفضل ما أعطى السائلين •

قال له قائل : وما أفضل ما أعطى السائلين ؟ قال : الثبات وهو « الداشت » بالأعجمية ، فهذا حظه لا يناله الا هذه الطبقة الواصلة فى ملك العرس الذى صدروا شباعا ، فاذا تخطوا هذا المحل الى ملك الملك فصار المرعى بين يديه ، وهناك خلصوا الى أصل العرش فطعموا من الجفنة ، وارتعوا بين يديه (للمزاج والهناءة)(١٣) ، وهناك صاروا فى القبضة واستوجبوا الثبات ، وصاروا أمناء الله وخاصته ، فهم أهل القبضة والذين يستعملهم ، وهو قوله تبارك اسمه فيما(١٤) حكى عنه رسوله صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام عن ربه تبارك وتعالى(١٥) اسمه أنه قال : « فاذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله(١٦) ، وفؤاده ولسانه ، فبى يسمع وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، وبى يعقل ، وبى ينطق »(١٧) فهذا عبد مرعى مكلوء محروس مربى بالعين ، وهو من قوله : **((ولتصنع على عينى))**(١٨) •

---

(١٢) راجع الحديث فى الترغيب والترهيب لكنه قال : من شغله القرآن •• الخ وقال ان الترمذى رواه ، الترغيب جـ ٢ ص ٢٠٦ ، وكنز العمال جـ ١ ص ٤٣٤ •

(١٣) فى ليبزج ((بلا مزاج بالمهناة)) •

(١٤) ((فيما)) ساقط من نسخة الاسكندرية •

(١٥) ((تعالى)) ساقط من الاسكندرية •

(١٦) ((ورجله)) ساقط من الاسكندرية •

(١٧) هذا جزء من حديث قدسى : ((ما تقرب الى عبدى بأفضل مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ••)) الخ •

(١٨) طه : ٣٩

ودعوة الثبات هجيرا[١٩] رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« يا مقلب القلوب ثبت قلبى .. »[٢٠] فأهل الثبات هجيراهم سؤال الثبات ، وهم الذين يعلمون ما الثبات ومن أى ملك الثبات .

فالذاكرون تباينت طبقاتهم لاختلاف الأحوال فى الذكر ، فليس من أحد يذكر ربه ، الا ويبدو ذلك الذكر من ربه ، وذلك الذكر من الرب اذن للعبد فى الارتحال اليه فاذا ذكر الله مبتديا فانما ذكره من ملك البهجة ، فذاك شوق الله الى عبده ذكره ليهيج بذكره له من العبد ذكره فيهيج شوقه الى الله كل على قدره .

فالعامة لا تقدر مطالعة هذا ولا تمييزه ولا تفطن لما يتردد فى صدورهم من ذلك لأنهم فى المرج والشجر الملتفة ، وهى أشغال النفوس فى الصدور ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم فما أقبل عبد بقلبه على الله الا أقبل الله بقلوب المؤمنين تفد اليه بالود والرحمة وكان الله بكل خير اليه أسرع »[٢١] .

فحثهم صلى الله عليه وسلم على فراغ الصدر حتى يصير الصدر كمفازة جرداء حتى تبصر عينا الفؤاد ما يجرى فى الصدر من ضوء الذكر فيشرق ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعائه : « اللهم فرغ فؤادى لذكرك واغن قلبى عن مفاقر الدنيا ، وأعوذ بك من حب العيش عند حضرات الموت »[٢٢] فانما قال : تفرغوا من هموم الدنيا لأن أشغال الدنيا تصير فى الصدر هموما فتصير كالمرج الشجراء الملتفة ، فاذا فرغت فذلك التفريغ انما هو لفؤادك ليبصر ضوء الذكر الهائج من القلب المضىء للصدر ، فيرتحل الى الله ، وانما يرتحل منه

---

(١٩) هجيراه : عادته وطبيعته .

(٢٠) يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك . أخرجه الامام أحمد فى مسند الامام على ، تحقيق الساعاتى فى باب الدعاء والحافظ العراقى فى المغنى وأقره الذهبى .

(٢١) جاء فى الجامع الصغير بالحديث أطول من هنا وقد اختصره الحكيم ، راجع الجامع الصغير ج ١ ص ٣٣١ ، فقد أشار أن الحديث رواه الطبرانى عن أبى الدرداء ورمز اليه بالضعف .

(٢٢) أخرجه الامام أحمد فى الثلاثيات عن ابن مسعود ج ٣ ص ١٢٤ .

نور العقل ونور التوحيد المختلط بالبضعة ، فان العقل مسكنه فى الدماغ وشعاعه وأشراقه متأد الى نور التوحيد ومختلط فى البضعة فذاك الذى يصير الى الله فسمى ذلك قلبا لأنه نور العقل مختلط ببضعة القلب فنسبوا سيره الى الله.سير القلب ووصوله الى المحل وصول القلب •

فالذكر الأول بدوه من الله من ملك البهجة اشتاق الى الموحد لأنه محبوبه فهاج من الفرح الذى له بالعبد ، فهاج العبد من العبد من معدن المعرفة ، فأضاء الصدر فأبصرت عينا الفؤاد ، فارتحل القلب المختلط بلحمة الفؤاد الى الله مشتاقا فصاروا على درجات وطبقات ، فطبقة ذكرت ثم انقطع ذكرها ولم تقدر على الارتحال لثقل الشهوات ، وجذب الهوى نفسه الى الشهوات •

وطبقة ذكرت ثم ارتحل القلب فانقطع فى بعض المسافة ، فلما انقطع حاد يمينا وشمالا من حيث بلغ فلاحظ احسانه وأياديه •

وطبقة ذكرت فارتحل القلب فجاوز مسافات الجو حتى وصل الى القربة ثم انقطع هناك فحاد يمينا وشمالا فلاحظ المنن •

وطبقة ذكرت فارتحل القلب فصار الى القربة ثم ولج ملكا من ملكه ثم انقطع فحاد يمينا وشمالا فلاحظ تدبيره •

وطبقة ذكرت فارتحل القلب فخلص الى ملك الملك بين يديه ، فلاحظ القدرة ، ولم يقدر على ملاحظة القدر لأنه مستور عن الملائكة والرسل . فهذا المشغول بالله عاقه شغله بالله عن المسألة •

فذكر الله دنوه من العبد ، فدنوه على قدر مصير العبد اليه ولذلك قال فيما روى عنه : « أنا مع عبدى ما تحركت بى شفتاه »(٢٣) •

فكل ذاكر يرجع اليه من ذكره بما انتهى اليه فمن انتهى ذكره الى محل حاد(٢٤) عنه الى ذى الاحسان رجع الى قلبه بحلاوة الرحمة وغليل الرأفة ، ومن انتهى ذكره الى محل حاد(٢٥) عنه الى ذكر المنن

---

(٢٣) خرج العراقى الحديث فى الاحياء ونسبه الى الحاكم والبيهقى وابن حبان وقال : انه صحيح الاسناد ، الاحياء جـ ٣ ص ١٢٥ •

(٢٤ ، ٢٥) فى ليبزج كتب فى الهامش مقابل هاتين الكلمتين : ((جاز)) بالجيم والزين •

رجع الى قلبه بحلاوة المحبة البارزة المحتظاة منها ، ومن انتهى ذكره الى محل حاد عنه الى ذكر التدبير رجع الى قلبه بحلاوة القربة ، ومن انتهى ذكره الى محل خلص الى القدرة رجع قلبه بحلاوة الفرح بالله وحلاوة محبة الله الباطنة ، وهو الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله اذا أحب عبداً نادى : يا جبريل ، انى أحب فلانا فأحبوه ، فينادى جبريل فى السموات : ان الله قد أحب فلانا ورضى عنه فأحبـوه »(٢٦) حدثنا بذلك قتيبة بن سـعيد(٢٧) عن مالك بن أنس(٢٨) عن سهيل بن أبى صالح(٢٩) عن أبيه(٣٠) عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فليس هذا الحب الموضوع فى هذا الحديث حب(٣١) العام لأن كل موحد يحبه ربه ، ولم يعطه التوحيد ولا من به عليه الا من حبه له ، ولكن هذا من الحب المخزون عنـده لا المحتظى منه لجميع الموحدين ، والمخزون هذا الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « ما تقرب الى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، وان عبدى ليتقرب الى بعد ذلك بالنوافل حتى أحبة ، فاذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله وفؤاده ولسانه ، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يعقل وبى ينطق وبى

---

(٢٦) قال فى الجامع الصغير : ان الحديث رواه مسلم ورمز اليه بالصحة راجع الجامع الصغير جـ ١ ص ١٦٧ .

(٢٧) ثقة صدوق كان من الأغنياء سمع الليث ومالكا والكبار ، روى عنه خلق كثير ولد سنة ١٤٩ هـ وتوفى سنة ٢٤٠ هـ أو ٢٤١ هـ ، تهذيب جـ ٨ ص ٣٦٠ ، العبر جـ ١ ص ٤٣٣ ، تذكرة جـ ٢ ص ٣٣ ، تاريخ بغداد جـ ١٢ ص ٤٦ .

(٢٨) امام دار الهجرة وفقيه الأمة أجمع الناس على دينه وفقهه وعلمه وروايته ولد سنة ٩١ أو ٩٣ أو ٩٦ هـ وتوفى سنة ١٧٩ هـ ، العبر جـ ١ ص ٢٧٢ ، تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٩٣ وما بعدها ، تهذيب التهذيب جـ ١٠ ص ٥ — ٩ .

(٢٩) أحد شيوخ مالك اتهمه بعض المحدثين بالنسيان فى آخر عمره مات فى خلافة المنصور ، تهذيب جـ ٤ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٣٠) اسمه ذكوان أبو صالح السمان الزيات المدنى مولى جويرية بنت الأحمس الغطفانى شهد الدار زمن عثمان أثنى عليه العلماء ووثقوه واحتجوا بحديثه توفى سنة ١٠١ هـ ، تهذيب جـ ٣ ص ٣١٩ .

(٣١) لعل الصواب ((الحب العام)) حيث يستقيم مع ما بعده .

يمشى »[٣٢] فهذا محبوب يستعمله ربه وفى قبضته ، وله الثبات من ربه وله الكلاءة والرعاية ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ان الليل والنهار أربع وعشرون ساعة ، ولله فى كل ساعة صدقة على عبيده ، وما تصدق على امرىء بشىء أفضل من أن يلهمه ذكره »[٣٣] •

فالهام الذكر بدو الذكر فاذا ذكره هاجت المعرفة فى القلب فيخرج من هيجانه الضوء الى الصدر فأبصرته عينا الفؤاد فارتحل عقله بديا فذاك الارتحال ذكر القلب فذكر اللسان قد عم جميع الموحدين وتناولوه الا أن كل شىء يرفع ثناؤه من معدنه ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه : « ان من أمتى رجالا الحرف الواحد من تسبيح أحدهم يعدل جبل أحد »[٣٤] وقال أيضا فيما روى عنه : « ان الرجلين ليصليان جميعا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض »[٣٥] ، فانما برز الذكر على سائر الأعمال لان جوهر الذكر ما وصفنا بديا ، ومن المعرفة هاجت ، ولذلك قال معاذ بن جبل : « ان الذكر يزيد الايمان شدة والقلوب حدة » •

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ذاكر الله فى الغافلين بمنزلة الشجرة الخضراء فى السنة الجرداء »[٣٦] ، حدثنا اسماعيل بن نصر[٣٧] ، قال : حدثنا أصرم بن حوشب[٣٨] قال : حدثنا

---

(٣٢) تقدم تخريج هذا الحديث •

(٣٣) أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه جـ ١٣ ص ٢١ ، وأبو يعلى وابن عوانه فى مسنديهما عن ابن عباس رضى الله عنهما •

(٣٤) أخرجه الدارقطنى وابن عساكر والطبرانى فى المعجم جـ ٣ ص ٦ عن وهب بن منبه وضعفه الذهبى •

(٣٥) لم أعثر على هذا الحديث عند أحد ممن قرأت لهم غير الحكيم •

(٣٦) جاء الحديث بروايات مختلفة عند مسلم وأحمد والترمذى ، وأبى نعيم ، راجع كشف الخفاء جـ ١ ص ٤٢٠ •

(٣٧) راجع الجرح والتعديل جـ ١ قسم ١ ص ٢٠٢ •

(٣٨) أصرم بن حوشب أبو هشام ، قاضى همذان ، متروك الحديث ، متهم بالوضع ، راجع الضعفاء الصغير ص ٢١ ، الضعفاء والمتروكون ص ٢٢ ، المغنى جـ ١ ص ٩٣ ، التاريخ الصغير للبخارى جـ ٢ ص ٢٩٠ ، كتاب المجروحين لابن حبان جـ ١ ص ١٨١ ، ١٨٢ ، الميزان جـ ١ ص ١٢٦ •

أبو سلمة معاوية(٣٩) عن اسماعيل بن شعيب(٤٠) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ذكر الله فى السوق تبسم الله اليه ، ومن تبسم الله اليه لم يعذبه ، ومن ذكر الله فى السوق ذكره الله بعدد من فى السوق »(٤١) •

حدثنا اسماعيل عن أبى نعيم(٤٢) عن سفيان(٤٣) عن أبى صالح الحنفى(٤٤) قال : « ان الله ليضحك الى عبده حين يذكره فى الأسواق »(٤٥) •

وروى عن أبى الدرداء(٤٦) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أخبركم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وخير لكم

---

(٣٩) لم أعثر له على ترجمة فيما لدى من مراجع •

(٤٠) لعله اسماعيل بن أبى شعيب ، أحد التابعين مجهول ، راجع الميزان جـ ١ ص ١٠٩ ، المغنى جـ ١ ص ٨٣ •

(٤١) لم أجد الحديث عند أحد غير الحكيم •

(٤٢) لعله الفضل بن ركين وهو لقب واسمه عمرو بن حماد بن زهير ابن درهم التيمى مولى آل طلحة أبو نعيم الملائى الكوفى الأحول ، وكان أحد أعلام الحديث بالكوفة أثنى العلماء على حفظه وتثبته ، وقالوا عنه ، ثبت ثقة صدوق كان مع فضله وعلمه وورعه يميل الى الدعابة ، ولد عام ١٣٠ هـ وتوفى سنة ٢١٩ هـ ، تهذيب جـ ٨ ص ٢٧٠ ــ ٢٧٦ •

(٤٣) لعله يقصد سفيان بن سعيد الثورى أو سفيان بن عيينة فكلاهما روى عنه ركين وكلاهما من أعلام الحديث يأخذ العلماء حديثهما بالقبول ، ولكل منهما ترجمة مفصلة فى تهذيب التهذيب ، راجع جـ ١٤ ص ١١١ ــ ١١٥ ، ص ١١٧ ــ ١٢٢ •

(٤٤) هو عبد الرحمن بن قيس أبو صالح الحنفى الكوفى تابعى ثقة من خيار التابعين من أصحاب على ، راجع تهذيب التهذيب جـ ٦ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧

(٤٥) أخرج الحديث أبو يعلى فى مسنده جـ ٢ ص ١٢١ والبيهقى فى السنن عن الحارث بن أسامة وهو ضعيف •

(٤٦) صاحب رسول الله أبو الدرداء عويمر بن عامر من بنى الحارث ابن الخزرج ، كان آخر أهل داره اسلاما ، وحسن اسلامه ، وكان فقيها عاقلا حكيما ، سماه النبى صلى الله عليه وسلم : ((حكيم الأمة)) وآخى بينه وبين سلمان الفارسى ، ولى قضاء دمشق ، وتوفى بها قبل عثمان بسنتين على الأرجح ، أسد الغابة جـ ٤ ص ٢١٨ ، ٢١٩ ــ جـ ٦ ص ٩٧ ، ٩٨

من اعطاء الورق والذهب ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فيضربوا رقابكم ، وتضربون رقابهم ؟ قالوا : بلى . قال : ذكر الله »(٤٧) .

وروى عن أبى هريرة(٤٨) (رضى الله عنه)(٤٩) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حين يذكرنى »(٥٠) ، وروى عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سيروا سبق المفردون ، قالوا : يا رسول الله ، وما المفردون ؟ قال : الذين اهتزوا فى ذكر الله ، يأتون يوم القيامة ، خفافا يضع الذكر عنهم أثقالهم »(٥١) .

وروى عن معاذ(٥٢) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس شىء أنجى للعبد من ذكر الله ، قالوا : ولا الجهاد فى سبيل

---

(٤٧) راجع الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٢٨ فقد أورد الحديث وقال : رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم وابن أبى الدنيا والبيهقى ، وراجع كنز العمال جـ ١ ص ٤٢٨ .

(٤٨) صاحب رسول الله وأكثر أصحابه حديثا عنه ويروى عنه فى ذلك قصة مشهورة ، وقد اختلف فى اسمه ، استعمله عمر على البحرين ، ثم عزله ، ثم أراده على العمل فامتنع ، وسكن المدينة وبها توفى سنة ٥٨ هـ ، أسد الغابة جـ ٦ ص ٣١٨ — ٣٢١ .

(٤٩) ما بين القوسين زيادة من ليبزج .

(٥٠) الحديث متفق عليه وخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، راجع الكنز الثمين ص ٦٧٦ .

(٥١) أورد السيوطى الحديث فى الجامع الصغير ورمز اليه بالصحة ، وأشار الى رواية الترمذى والحاكم والطبرانى له ، الا أن ألفاظ الحديث هناك مختلفة عما هنا ، الجامع الصغير جـ ٢ ص ٩ ، وراجع كنز العمال جـ ١ ص ٤١٦ ، ٤٢٨ .

(٥٢) معاذ بن جبل صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شهد العقبة وبدرا والمشاهد ، كان من نجباء الصحابة اماما ربانيا ، قال له النبى : (يا معاذ انى أحبك) ، أسلم وله ثمان عشرة سنة وعاش بضعا وثلاثين سنة ، بعثه النبى معلما الى اليمن ، وقال عنه : (أعلم أمتى بالحلال والحرام معاذ) وكان من أحسن الناس وجها ، وأحسنهم خلقا ، واسمحهم كفا توفى سنة ١٨ هـ ، العبر جـ ١ ص ٢٢ ، تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٢٤ ، تذكرة جـ ١ ص١٨ ، تهذيب التهذيب جـ ١٠ ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

الله ، قال : ولا الجهاد فى سبيل الله »([٥٣]) •

وقال الله تبـارك اسـمه فى تنزيله : « **ولذكر الله أكبر** »([٥٤]) فروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لذكره اياكم أكبر من ذكركم اياه لأنه اذا ذكر أثنى واذا أثنى أوجب ، وأنت تذكره افتقـارا وتذكره اعتصاما وتذكره تعلقا ، وتذكره شوقا • وتذكره اهتشاشا ، وتذكره اجلالا واعظاما ، وتذكره محبة وفرحا فاذا ذكرته ذكرك من الباب الذى ذكرته ، فذكره من ذلك الباب أكبر من ذكرك اياه ؛ فلذلك قال : ما من شىء أنجى للعبد من ذكر الله ولا حطم السيوف لأنك تستمد بهذا الذكر أمرا عظيما ، قال فى تنزيله : « **يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا • وسبحوه بكرة وأصيلا** »([٥٥]) •

ثم أخبرك ما ثوابه العـاجل فقال : « **هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور** »([٥٦]) فصلاته أن يدعوا لكم أى يسأل لكم بنفسه من نفسه ليخرجكم من ظلمات النفس الى نوره •

* * *

---

(٥٣) خرج العراقى الحديث فى الاحياء الا أن الحديث هناك فيه زيادة ليست هنا وقد روى الحديث ابن أبى شيبة ، والطبرانى ، الاحياء ج ٣ ص ١٤٥ •

(٥٤) العنكبوت : ٤٥

(٥٥) الأحزاب : ٤١ ، ٤٢

(٥٦) الأحزاب : ٤٣

٦٤ — مسألة فى شأن العقل والهوى

قال : قلب مالك للجوارح وأمير عليها فاذا ملكته المعرفة والعقل استقام واذا ملكه الهوى والنفس مال عن الله ، فالنفس مع الهوى كالمعرفة مع العقل ؛ فالعقل ملك على الجوارح ؛ وهو لأيهما غاب ، فالهوى من تنفس النار ، يخرج من ذلك التنفس ريح فتحمل تلك الأفراح والزينة التى بباب النار مخلوقة بلوى للآدميين ، وفى نفس كل آدمى موضوع من تلك الأفراح والزينة فتلك تسمى شهوات ، لاهتشاش النفس اليها ، ونفس النار من شدة السلطان الذى فيها ، فذلك النفس هو الهوى يمر بتلك الزينة والأفراح فتحمل الى موضع الشهوة من الآدمى فتهيجها وتميت النفس عن الله لأنه من السلطان جاء ، والسلطان يميت هوله الأشياء ؛ فاذا ماتت النفس ثقلت ، فلذلك قلنا ان النفس ثقيلة لما فيها من الشهوات ، لأن الشهوات ميتة ، وانما صارت ميتة لما وصفنا من هول السلطان .

والقلب يحيا بحياة المعرفة فيخف لأن الحياة من الحب ، والمعرفة موضوع فيها الحب ، فلذلك يحيا بالمعرفة فيخف واذا خف أسرع الى الطاعة . فالقلب انما حيى بالمعرفة ؛ والنفس حييت بالمعرفة فتابعت القلب ؛ فلما جاء هذا الهوى بالشهوات ثقلت لأن قوة حياتها ذهبت فيحتاج القلب الى أن يمدها بثقلها(١) الى الطاعات ، فاذا عرضت الطاعات التى دعاه الله اليها يسارع القلب اليها على خفة بالحياة التى فيها ؛ لأن الحياة تخفف الشىء وتحمله ، ألا ترى أن الحى خفيف يحمل ثقل بدنه فاذا مات ثقل حتى يحمل بين أربعة فقد بان لك عمل الحياة ما تعمل وعمل الموت ما يعمل ، فالموت من السلطان ، والحياة من الحب ؛ فالقلب يرتحل خفيفا الى الطاعة العارضة له والنفس تتثاقل بما فيها من الشهوات فيحتاج القلب الى أن يمدها ، لأنهما شريكان فى العمل ، لأن فى النفس حياة وفى الروح حياة فالروح تدعو الى الطاعة مع القلب ، والنفس تدعو الى الشهوات ، والحياة فى كليهما ، فلذلك صار القلب والنفس شريكين(٢) ، فاذا ثقلت النفس بالشهوات التى فيها

---

(١) لعل المعنى المقصود ((بسبب ثقلها)) فيكون معنى الباء السببية .

(٢) جاء فى الأصلين ((شريكان)) بالألف وقد يصح عربيا على لغة من يلزم المثنى الألف .

لوتها عن الله حتى احتاج القلب الى أن يمدها الى الطاعة فهذا هو الكره ، فذاك الكره تعب القلب ، فحفت الجنة بتلك المكاره ، وهو تعب القلب ، وحفت النار بالشهوات ، وهى لذة النفس .

فمثل النفس مثل سفينة مشحونة موقرة بالشهوات فاذا جاءها من الطاعات ما للهوى والشهوة فيها نصيب خفت النفس وسارعت مع القلب ، فالقلب انما يسرع حينئذ ويخف الى تلك الطاعة بحياة المعرفة فذلك لله .

والنفس تسرع وتخف بلذة الشــهوات وذلك حظ ابليس لأن الشهوات التى بباب النار أعطيت(٣) للعدو فتلك حظه ليغوى بهــا الآدمى . ومن أجــل ذلك قال : ((**لأزينن لهم فى الأرض ولاغوينهم أجمعين**))(٤) ثم استثنى فقال : ((**الا عبادك منهم المخلصين**))(٤) ، علم أنه لا يقدر على غواية من أخلصه الله لنفسه بهذه الزينة .

فيحتاج القلب أن يمد النفس الى أمر الله فاذا جاءت طاعة فيها للنفس لذة فتلك الشهوة التى اشتهت ، فاذا نالتها لذة(٥) من وجود حلاوة ذلك الفرح الذى فى تلك الزينة وافقت القلب فاستمرت معه خفيفة فلم يكن على القلب تعب ، فهى طاعة ممزوجة بالهوى ، لا يحتاج القلب أن يمدها بكد وتعب ، فالقلب يبتغى وجه الله لا يريد به وجها غيره ، والنفس تبتغى وجه الخلق ، فاذا جرها القلب انقادت معه تبتغى وجه الله فى الظاهر منقادة لزجره اياها ، وفى الباطن حلاوة رؤية الناس منكمنة فيها ، فان أصابت من القلب فرحة رآت بذلك وجوه الناس ليروه فيمدحوه ، ويعلو بذلك عندهم لشهوة العز والعلو التى فيها فى معدن الشهوات ، لأن الغرور والعلو من أعمال الزينة والأفراح ، فالقلب فى جهد من تلك الطاعة التى للنفس فيها نصيب ، ومزاج الهوى من أجل التطهير من الرياء والاخلاص من الشهوة ، وذلك حظ النفس ، فاذا جاءت طاعة ليس فيها للنفس نصيب ثقلت عن الطاعة بموت النفس عنها للشهوات الميتة التى جاء بها الهوى ، واحتاج القلب الى أن يمدها بثقلها(٦) .

---

(٣) فى الأصلين « أعطى » .

(٤) الحجر : ٣٩ ، ٤٠

(٥) من الأصلين بتاء مفتوحة .

(٦) الباء هنا معناها السببية .

فمثل ذلك مثل سفينة مشحونة موقرة يمدها سكانها صعدا فسكانها يجرونها جرا والسفينة تمخر بصدرها ذلك البحر ، فهم مع ذلك الحبل على العاتق فى أنين وزئير لما يقاسون من أثقال ما فيها ، فاذا أرادوا أن يخففوا عن أنفسهم التعب لم يوقروا السفينة ، فكلما قللوا من شحنها صاروا الى الراحة من التعب ، واذا فرغوها جرها اثنان منهم ، واذا أوقروها احتاجوا الى عشرين رجلا ، واذا كانت فى ماء راكد كان أيسر عليهم ، واذا كانت فى ماء له حدور وانصباب واشتدت جريته كان أصعب وأعسر واحتيج الى أضعاف الرجال(٧) ، فكذلك النفس مع القلب فى هذه الأعمال اذا عرض لها أمر ، مما أمر الله به ؛ وكان ذلك الأمر موافقا للنفس ، ولها فيه شهوة تلتذ بها فى ذلك الأمر مرت خفيفة مسارعة فى ذلك نشيطة قد انحلت عقدها واستوطنتها فنشطت ولم يبق على القلب تعب لأنه لا يحتاج الى جرها ، واذا كان ذلك الأمر غير موافق لها وليست لها فيه شهوة تلتذ بها ثقلت فصارت كالميتة لأنها انما خفت فى الحالة الأولى بحياة النفس لا بحياة القلب ، وخفت بما عرفت ، وطمعت فى وجودها اللذة بتلك الشهوة ، وهى فى الظاهر تظهر للقلب انقيادا له أنها لله ؛ وفى الباطن تخف للشهوة والهوى واللذة . يقبل ذلك منها ومن القلب لأن القلب لا ينفك من وجود ذلك ومخالطتها ، فهذا فعل الصادقين ، قبل الله منهم على جهدهم وحفظهم لهذه النفس أن لا ترائى فيها أحدا ، ولا تبتغى وجه أحد ، وهو على ما كان من الشهوة واللذة التى جاء بها الهوى معذور لأنه لا يملك ذلك فهؤلاء الصادقون .

ومن ترك الجهد فى هذا ، ولم يراقب ما تدخل النفس فى هذا العمل من شهوتها ولذتها حتى يعمل بهواها فيزيد أو ينقص أو يرائى نقص من عمله ؛ وربما فسد كله للمراءاة والعجب به والصلف والاستكثار ونحوه .

والصديق فتح له باب المنة فجاء روح اليقين فجاءت المحبة وروح الشوق الى الله فلما هاجت الريح صارت النفس بمنزلة الشراع للسفينة فاحتملت السفينة بما فيها وقعد السكان فى راحة ، والسفينة تمخر الماء مصعدا شديد الخرير لانحداره ، فهذه الريح الهائجة وقعت فى هذا

---

(٧) فى الأصلين « رجال » فزدنا « أل » لايضاح المعنى وصحة التركيب .

الشراع ؛ فاحتملت السفينة تعدو على المـاء بأوقارها وأثقالهـا عدو الفرس ؛ فكذلك اذا هاج روح اليقين وروح الشوق الى الله استراح القلب ؛ ولم يحتج الى أن يجر النفس بل تصير النفس تعدو عدوا تكاد تسبق القلب ؛ فقد ذهب التعب ؛ وعملا على الراحة فاستوت الأعمال على صاحب هذا المحبوب والمكروه كله واحد عنده كما استوت هذه السفينة فى حدور النهر وصعوده الا أنه فى حال حدوره تجرى بريح وبغير ريح وفى حال صعوده لا تجرى الا بريح(٨) •

* * *

---

(٨) يلاحظ أن الحكيم الترمذى فى هذه الرسالة أجمل رأيه فى الصراع الدائم بين العقل والقلب وبين النفس والهوى ، وهى الفكرة التى تشكل خطا رئيسيا فى تفكيره وتصوره لمسار السلوك الانسانى والعوامل الخفية المتحكمة فيه والموجهة له •

وقد تناول الفكرة ذاتها بتفصيل أوسع فى كتابه (غور الأمور) أو (الأعضاء والنفس) الذى تصور فيه أن للعقل جنودا وأعوانا يعملون على بسط سلطان المعرفة واتساع مملكتها من قاعدتها الأصلية وهى القلب الذى هو مركز المعرفة الذى ينطلق من اللب فى حشاشة القلب وله فى تصور هذه المملكة تفصيل يتناول الحصون والخنادق والأبواب ومدائن النور الداخل بعضها فى بعض وعمل العقل وجنوده فى حماية هذه المدائن وتمهيد الطريق لشعاع المعرفة أن يبسط سلطانه على الأعضاء جميعها وفى هنا تفسير لحديث الرسول : (ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ••• ألا وهى القلب) •

وفى الجانب الآخر يقف الهوى وأعوانه المـائلة متخذا من النفس قاعدة انطلاق وهجوم فى محاولة مستمرة لاطفاء نور القلب وانحسار نوره من الأطراف والعمل على اضعاف اشعاعه واحتلال مدنه وتقويض استحكاماته حتى يقع أسيرا أو ينكمش فى مكمنه فلا يبقى له سلطان على الجوارح •

٦٥ ـ مسألة أخرى « الطاعم الشاكر والصائم الصابر »

قال : حدثنا يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمن المخزومى(١) ، قال حدثنا ابن أبى فديك(٢) عن معن بن محمـد الغفارى(٣) عن حنظلة ابن على الأسلمى(٤) عن أبى هريرة(٥) (رضى الله عنه)(٦) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر »(٧) حدثنا عمرو بن على الصيرفى(٨) قال حدثنا عمر بن على ابن مقدم(٩) قال : حدثنا معن بن محمد الغفارى قال : سمعت حنظلة ابن على الأسلمى يحدث عن أبى هريرة قال : سمعت أبا القاسم بهذا الوادى يقول : « الطاعم الشاكر كالصائم الصابر » وقال : « الصوم لى وأنا أجزى به »(١٠) ، فالأعمال كلها لله فانما صار الصوم

---

(١) قال عنه أبو حاتم : صدوق ثقة ، وذكره ابن حبان فى الثقات وقال فى الصلة : ليس بالقوى له مناكير ، توفى سنة ٢٥٧ هـ ، تهذيب جـ ١١ ص ٢٨٨ .

(٢) اسمه محمد اسماعيل بن مسلم ، قال النسائى : ليس به بأس وذكره ابن حبان فى الثقات اختلف فى وفاته ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ هـ ، تهذيب جـ ٩ ص ٦١ .

(٣) حجازى ذكره ابن حبان فى الثقات ، تهذيب جـ ١٠ ص ٢٥٣ .

(٤) المدنى قال النسائى : ثقة وذكره ابن حبان فى الثقات روى عن عدد من الصحابة ، تهذيب جـ ٣ ص ٦٢ .

(٥) صاحب رسول الله وأكثر أصحابه رواية عنه ، توفى سنة ٥٧ هـ ، راجع ترجمته فى أسد الغابة جـ ٦ ص ٣١٨ .

(٦) ما بين القوسين ساقط من نسخة الاسكندرية .

(٧) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة ، وقال الحاكم : صحيح ، وأقره الذهبى ، راجع كشف الخفا جـ ٢ ص ٥٠ نشر المكتب الاسلامى ودار التراث .

(٨) بصرى صدوق كان من الحفاظ صنف المسند والعلل والتاريخ وهو امام متقن توفى سنة ٢٤٨ ، تاريخ بغداد جـ ١٢ ص ٢٠٧ ، تهذيب جـ ٨ ص ٨٠ ، ٨١ .

(٩) أبو جعفر البصرى ، صدوق ثقة كان يدلس توفى سنة ١٩٠ أو ١٩٢ هـ راجع تهذيب جـ ٧ ص ٤٨٦ .

(١٠) هذا جزء من حديث وقد جاء به ابن ماجه كاملا فى باب فضل الصيام جـ ١ ص ٥٠١ ، ورواه البخارى ومسلم ، راجع رياض الصالحين ص ٣٩٨ .

مخصوصا(١١) من بين الأعمال بأنه نسبه الى نفسه ، لأن الصوم ليس بعمل الأركان فتكتب الحفظة ويصير علانية ، ولكنه سر فيما بينه وبين ربه ، وهو أن يعزم على أن يكف عن الطعام والشراب والجماع الى الليل ، فهذا يسمى صوما ، وفى اللغة السائرة اذا كف عن شىء يقال صام عنه ، ومنه قوله : « **أنى نذرت للرحمن صوما** »(١٢) فقال المفسرون يعنى صمتا ، فانما صار الكف عن الكلام لها صوما (فسمى لكفها صوما)(١٣) وأمرت بالصمت لينطق عيسى صلى الله عليه بحجة الله حين أنطقه فى المهد صبيا •

فكل ساعة تتردد فى العبد شهوة شىء من طعام أو شراب أو غير ذلك مما هو ممنوع عنه فرد شهوته ، وتجرعت نفسه مرارة الرد ، فهو شهوة يتجدد عليه الصبر ساعة بعد ساعة ، فلذلك قال : الصائم الصابر لأنه يتجدد عليه الصبر عند تحرك كل شهوة فى نفسه ومنع منها ، فهو يردها ، ويثبت على الوفاء بنذره ، فلذلك قال : هو لى وأنا أجزى به لأن الحفظة لا تعلم ذلك ولا يطلعون عليه ، انما ذلك بينه وبين ربه فاذا كان ذلك الصبر وتردد تلك الشهوة مستورا عليهم خفى عليهم أن يعلموا جزاءه ومقداره فتكفل الله ذلك لعبده ، لأنه كلما ترددت شهوة عزم على الثبات والوفاء ، فله بكل عزمة ثواب جديد ، ولذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الأعمال كل حسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة الا الصوم »(١٤) •

فانما استثنى الصوم لأن عدد التضعيف قد ارتفع عن أن يحاط بعلمه ، فلذلك قال فى الحديث : « وأنا أجزى به » ، وانمـــا صار الحسنة بعشر أمثالها لأهل التخليط ، والحسنة بسبعمائة لأهل الصفاء ، وهم الصادقون لأن أبدانهم صارت مستعملة فى الطاعات •

وقال فى تنزيله : « **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** »(١٥) وقال : « **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله** »(١٦) •

انتهى بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم (وعلى آله وأصحابه الى يوم الدين) •

---

(١١) فى ليبزج (مخصوص) وهو خطأ • (١٢) مريم : ٢٦

(١٣) هكذا فى الأصلين ولعل المقصود (فسمى صوما لكفها) •

(١٤) هذا جزء من حديث مشهور روته كتب السنن : البخارى ومسلم والترمذى وكذلك الامام أحمد والطبرانى ، الا أن الصيغة فيها تفاوت ، غير أن المعنى واحد فى الجميع — راجع رياض الصالحين ص ٣٩٩ •

(١٥) الأنعام : ١٦٠ (١٦) البقرة : ٢٦١

المراجـــع

١ — الأسرار المرفوعة بالأحاديث الموضوعة

٢ — الاعـــلام — لخير الدين الزركلى

٣ — أحسن التقــاسيم — للمقدسى

٤ — احياء علوم الدين — لحجة الاسلام الغزالى

٥ — أسـد الغـابة فى معرفة الصحابة — لابن الأثير

٦ — أسنى المطــالب فى أحاديث مختلفة المطالب

٧ — الأعضاء والنفس — (مخطوط) للحكيم الترمذى

٨ — أنواع العــلوم — (مخطوط) للحكيم الترمذى

٩ — البـدء والتــاريخ

١٠ — بدو شأن الحكيم الترمذى

١١ — البيان والتعريف

١٢ — بيــان العــلم

١٣ — تاريخ بغـداد

١٤ — التــاريخ الصغير

١٥ — التــاريخ الكبير

١٦ — تاريخ الاســلام

١٧ — الترغيب والترهيب

١٨ — تذكرة الأولياء — لفريد الدين العطار

١٩ — تذكرة الحفــاظ — للذهبى

٢٠ — تهذيب التهـذيب — لابن حجر

٢١ — تهذيب تاريخ دمشق — لابن عساكر

٢٢ — تفسير القرطبى — للامام القرطبى

٢٣ — الجامع الصغير — للسـيوطى

٢٤ — الجرح والتعـديل

٢٥ — حلية الأولياء — لأبى نعيم الأصفهانى

٢٦ — الخـــلاصة — للخزرجى

٢٧ — دقائق العــلوم — (مخطوط) للحكيم الترمذى

٢٨ — ذخائر المواريث — للنابلسى

٢٩ — الرسائل والمسائل — لابن تيمية

٣٠ — الروح — لابن قيم الجوزية

٣١ — الرياضة وأدب النفس

٣٢ ــ رياض الصالحين للنووى
٣٣ ــ سنن الترمذى تحقيق الشيخ أحمد شاكر
٣٤ ــ الضعفاء الصغير
٣٥ ــ الضعفاء والمشركون
٣٦ ــ طبقات الأولياء لابن الملقن ـ تحقيق نور الدين شريبه
٣٧ ــ العبر فى خبر من غبر للذهبى ـ طبقات الشافعية
٣٨ ــ علم الأولياء (مخطوط) للحكيم الترمذى
٣٩ ــ الفتوحات المكية لابن عربى
٤٠ ــ القرون العشر (مخطوط) للحكيم الترمذى
٤١ ــ فتح القدير على الشوكانى
٤٢ ــ القسطاس المستقيم فيما سأل عنه الترمذى الحكيم (مخطوط) لابن عربى
٤٣ ــ كشف الخفاء للعجلونى
٤٤ ــ كشف المحجوب للهجويرى ترجمة د. سعاد قنديل
٤٥ ــ كنز العمال
٤٦ ــ الكنز الثمين فى حديث سيد المرسلين
٤٧ ــ لسان الميزان لابن حجر
٤٨ ــ معجم الأدباء لياقوت الحموى
٤٩ ــ معجم البلدان لياقوت الحموى
٥٠ ــ المغنى للذهبى
٥١ ــ مختصر صحيح مسلم للمنذرى
٥٢ ــ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى لطائفة من المستشرقين
٥٣ ــ المسائل العفنة (مخطوط) للحكيم الترمذى
٥٤ ــ المعرفة عند الحكيم الترمذى للدكتور عبد المحسن الحسينى
٥٥ ــ المواقف والمخاطبات لابن عبد الجبار النفرى
٥٦ ــ ميزان الاعتدال فى تاريخ الرجال
٥٧ ــ المجروحين
٥٨ ــ المسند للامام أحمد بن حنبل
٥٩ ــ منهاج الأفكار الفرسية فى شرح الرسالة القشيرية
٦٠ ــ

محتويات الكتاب

* * *

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

❋ ❋ ❋

رقم الايداع بدار الكتب ٤٣٨٥ / ٨٠

الترقيم الدولى ٣ ـ ٢٠ ـ ٧٢٦٨ ـ ٩٧٧



هـذا الكتاب

يلتقى المسلم الراغب فى معرفة مقاصد الاسلام وأسراره بالكثير من الأمور المتشابهة فى المعنى ظاهرا .. ولكنها فى الحقيقة مختلفة .. ومن هنا يقع الخلط والخطأ .

* كالخشية والخوف .. الهدية والهبة .. المعرفة والعلم .. وما أشبه ذلك من المعارف الاسلامية .

ويلتقى طالب المعرفة المسلم كذلك بالكثير من المواضيع التى يتعذر عليه الوقوف على حقائقها .

* مثل : امارة الانسان على الأرض .. وكيف يصل الانسان الى المعرفة ... الغيب والشهادة .. وما أشبه ذلك من مسائل الاسلام .

وقليلا ما يجد طالب المعرفة لمسلم مراده من العلم بالاسلام فى عمق ويسر وقوة واتساع **كما يجدها عند الحكيم الترمذى فى هذا الكتاب** .

* فالحكيم رجل فقيه تخلص لله . ونفض عن قلبه وجسده كل مظاهر الترف . فأسبغ الله تعالى عليه فيض الحكمة التى ترعرعت فى جنبات قلبه ، وفاضت على ما تركه من الكتب .

* والحكيم فى هذا الكتاب ينتقل بك من معارف الاسلام كلها : أدبا ... وفقها ... ومعرفة ... وغوصا وراء الأسرار .

* ينتهى الحكيم بقارئه فى هذا الكتاب الى روح اليقين بالله ، ويدفعه الى تتبع معالى الاسلام حيثما وجدها ، ويصل به الى مرتبة المحبوبين المرادين .

دار التراث العربى